إلى التصوف من جديد

الإحسان

٤

مجلة فصلية تصدر من الجامعة العارفية، الله آباد، الهند

التجربة الصوفية في ضوء العلم و العقل

طلب العلم أفضل الأعمال عند الصوفية

أثر التصوف السلوكي في تحسين الأخلاق

شبهات حول البيعة الصوفية دراسة علمية

أصول نافعة لفهم التصوف والصوفية الصافية

تحقيق منهج الصوفية في قبول الأحاديث النبوية

شاہ صفی اکیڈمی
SHAH SAFI ACADEMY
A research center for academic work on Islamic Studies and Sufism

٤

إلى التصوف من جديد

الإحسان

مجلة فصلية تصدر من الجامعة العارفية، الله آباد، الهند

١٤٣٩هـ / ٢٠١٨م

الإشراف العام

الداعية الإسلامي والعارف الرباني الشيخ **أبوسعيد شاه إحسان الله** المحمدي الصفوي حفظه الله

الإشراف

أ. د/ إبراهيم صلاح الهدهد

أ. د/ عبدالصمد محمد مهنا

المراجعة

د. / حسن نجار محمد

رئيس التحرير

أبو سعد حسن الصفوي

المراسلات

أكاديمية شاه صفي

الجامعة العارفية

سيد سراوان، الله آباد

أترابراديش، الهند، رقم البريد:٢١٢٢١٣

مسئولية التحرير

إظهار أحمد السعيدي الأزهري

مساعدو التحرير

خامس سليمان الأزهري

ضياءالرحمن العليمي

غلام مصطفى الأزهري

SHAH SAFI ACADEMY, KHANQAH E ARIFIA

Saiyed Sarawan, Allahabad, Uttar Pradesh 212213 (INDIA)

الهاتف:+919559218070(**الهند**)+20-1117917198(**مصر**)

البريد الإلكتروني:shahsafiacademy@gmail.com

سلسلة المطبوعات:١٨

©
جميع الحقوق الملكية الأدبية والفنية
محفوظة لأكاديمية شاه صفي

Copyright ©
All Rights Reserved
Exclusive rights by
Shah Safi Academy

ثمن النسخة

في الهند:	٢٠٠ ₹
في مصر:	٤٠ £

عنوان المراسلات

SHAH SAFI ACADEMY
Khanah e Arifia
Saiyed Sarawan
Kaushambi, Allahabad
U. P. Pin. 212213 INDIA
E-mail:shahsafiacademy@gmail.com

ترسل الاشتراكات بالشيك باسم

Shah Safi Academy
A/C-22631450000118
IFSC CODE HDFC 0002263
(HDFC,Akbarpur-
Sallahpur,Allahabad)

المجلس الاستشاري

فضيلة المفتي الدكتور علي جمعة
(مفتي جمهورية مصر سابقا وعضو هيئة كبار العلماء، مصر)

فضيلة الشيخ الدكتور حسن الشافعي
(رئيس مجمع اللغة العربية، القاهرة)

الأستاذ الدكتور جمال فاروق دقاق
(عميد كلية الدعوة بجامعة الأزهر الشريف)

فضيلة الشيخ أبو بكر مسليار
(الأمين العام لمركز الثقافة السنية، كيرالا ولجمعية علماء الهند)

الأستاذ الدكتور مسعود أنور العلوي
(رئيس قسم اللغة العربية سابقا، بجامعة علي جراه الإسلامية، علي جراه)

الأستاذ السيد عليم أشرف الجائسي
(الأستاذ بقسم اللغة العربية، جامعة مولانا آزاد، حيدرآباد)

الأستاذ الدكتور مصطفى شريف
(مدير دائرة المعارف العثمانية، الجامعة العثمانية، حيدرآباد)

شاہ صفی اکیڈمی
SHAH SAFI ACADEMY
A CENTRE FOR RESEARCH ON ISLAMIC STUDIES AND SUFISM

قد أفلح من تزكى

محتويات

افتتاحية

٧ **كلمات الإحسان** (أبو سعد حسن الصفوي)

تقديم

١٠ **مقدمة** (أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد)

من تراث السلف

١١ **طلب العلم أفضل الأعمال عند الصوفية** (الشيخ قطب الدين الدمشقي)

١٢ **معنى "من لا شيخ له فشيخه الشيطان"** (الشيخ سعد الدين الخير آبادي)

قضايا التصوف

١٤ **التصوف لماذا؟** (أ.د/ عبد الصمد محمد مهنا)

١٦ **التصوف وخصائصه** (الشيخ مصباح اليماني)

٢٠ **نشأة التصوف وعقيدة الصوفية** (محمد راغب الأزهري)

٢٥ **الحل الوحيد من المشاكل الراهنة التصوف** (محمد أفضل حسين)

دراسات وأبحاث

٢٩ **التجربة الصوفية في ضوء العلم والعقل** (أ.د/ جمال رجب سيدبي)

٣٤ **أثر التصوف السلوكي في تحسين الأخلاق** (الشيخ محمد تحيى الكناني)

٤٣ **نحو تصوف إسلامي رشيد** (د./ صلاح محمود العادلي)

شبهات ورد وردها

٥١ **التبرك بالإيثار** (أ.د/ جمال فاروق دقاق)

٥٨ **شبهات حول البيعة الصوفية دراسة علمية** (الباحث: ذيشان أحمد المصباحي)

٨٠ **في لغة التصوف** (د./ حسن بخار محمد)

٨٢ **تحقيق منهج السادة الصوفية في قبول الأحاديث النبوية** (غلام مصطفى الأزهري)

١٢٨ **أهمية النظافة عند الصوفية** (الباحث: إظهار أحمد الأزهري)

١٣٦ **أصول نافعة لفهم التصوف والصوفية الصافية** (ضياء الرحمن العليمي)

ترجمة تراث السلف

١٨٦ **نفحات الأنس مرجع مهم عند الصوفية** (محمد ذكي)

١٩٠ **نظرة عابرة على "مجمع السلوك"** (محمد نور عالم)

أوضاع وأفكار

١٩٦ **في رياض الإحسان** (أ.د/ فتحي عبدالرحمن حجازي)

١٩٩ **أثر التصوف في حياة الإمام محمد عبده** (أ.د/ عاطف الأكرت)

٢٠٤ **مقاصد التصوف** (د./ حمد الله حافظ الصفتي)

٢٠٦ **أنا صوفي** (الشيخ/ خامس سليمان)

٢٠٩ **شيخ الجامعة العارفية ومعلموها** (الشيخ القاري عبدالله البنا)

٢١١ **رقابة الله تعالى هي الضمان ضد الخواء الروحي** (محمد رومي محمد الرومي الكويتي)

٢١٢ **دور الأزهر الشريف في نشر التصوف** (علي أحمد العثماني)

مقصد العلم وغايته، الخوف من الله والشوق إليه

العلم نور؛ به يميّز صاحبه بين الخبيث والطيب، والغث والسمين، وبين الصالح والطالح، وبه يتبيّن لصاحبه الحلالُ والحرامُ، ويسهل له التفريقُ بين الكفر والإيمان، وفطرةُ الإنسان أنه إذا اطّلع على رداءة شيءٍ وخبثِهِ، فهو يجتنب بدون أن ينبِّهَه عليه أحدٌ، أو إذا اطّلع على جودة شيءٍ، فهو يَرْغَبُ في حصوله عليه بدون أن يرغِّبه فيه أحدٌ. والأمر معروف لدى الجميع بأن العلماء والجهلاء ليسوا سواءً. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الزمر:]٩. ومثلُ صاحب العلم كمثلِ بيتٍ فيه مصباحٌ مُضيءٌ؛ وبه يظهر ما في البيت من الأشياء الجيّدة والرديئة، ثم في هذا الضوء يُنَظِّفُ صاحبُ البيتِ بيتَه من الأشياء الرديئة، ويُخرج منه تلك الأشياء التي تسبب ضرره، ويطرح منه ما هو ليس بنافع في حقه، يُبقي فيه كل ماهو مفيدٌ في حقه، وصالحٌ له، ثم لايزال يزيّن البيت ويعمِّره، ويحاول كل لمحة أن يَّزيدَ البيتَ رونقا وبهاء. هكذا صاحب العلم أيضًا ينظّف من نفسه كل ما يجد فيها من المهالك والمخاطر، ويطهر القلب من كل ما يسبب ضرره، أويقوده إلى الفساد بضوء علمه ونوره، ثم يعمّر القلب بالصلاح والتقوى.

وثمرة العلم ونتيجته اليقين، وكما هو معروف لدينا بأنه من اطّلع على شيء مخيفٍ ومُهيبٍ بكل حزم ويقينٍ يحاول أن ينقذ نفسه من ذلك الشيء المخيف فورًا، على سبيل المثال: زيد واقفٌ، وبجواره بكرٌ، وهو موثوقٌ ومعتمدٌ لدى زيدٍ، فنادى بكرٌ قائلاً: يا زيد، تحت رِجْلِك ثُعبانٌ أو أفعى، أو وراءك أسدٌ أو فهد، ففي هذا الوقت لايرى زيدٌ إلا الفرار والهروب من ذلك المكان، من غير أن يبحث عن حقيقة هذا التنبيه.

وكذلك إذا جاء نبأٌ إلى زيدٍ من بكرٍ بأنه ناجحٌ في امتحانه فهو يفرح بدون أن يبحث عن الخبر و يتفقده؛ لأن المُخبِرَ موثوقٌ ومعتمد لديه، ثم أخذ زيد يحاول تحقيقَ نجاحٍ باهرٍ أكثر مما حقّقه، ومن لم يفعل هذا فكأنه يتيقن بأنه المُخبِر كاذبٌ وليس بصادق في ما يقوله، أو أنه يريد أن يَحرِمَ نفسه عن فرح وسعادة ما حقق له بسبب نجاحه الباهر، أو يريد أن يُهلِك نفسه من خطرٍ داهمٍ، وهو واقفٌ على رأسه.

أو نقول بعبارة أخرى: إنه لم يحصل له اليقينُ والجزمُ بأنّ الثعبان وراءه، أو أنه ناجحٌ في الامتحان، لأنه من حصل له اليقين فهو يحاول إنقاذ نفسه من الخطر، أو يشتاق إلى أن يحقق مزيدًا من النجاح. ومِنْ هنا نستنتج أنه إن كلما وُجِدَ علمٌ ويقينٌ فمن المعلوم بالضرورة أنه يوجد أمران: خوفٌ وشوقٌ، يكون الخوف من الهلاك، ويكون الشوق إلى مزيد من النجاح. فكل من هو يتصف بهذين الأمرين فهو يوصف بأنه عالمٌ، ويقال عنه إنّه لديه يقينٌ. ومن لم يتصف بهذين الأمرين فهو ليس بعالم، ولا بصاحب اليقين، يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[فاطر:]٢٨. يعني: العلماء هم الذين المنقذون أنفسهم من العذاب.

ومن هم الذين يمتثلون لأوامر الله ويتناهون عن نواهيه ثم يحصلون على رضاء الله سبحانه وتعالى هم العلماء فقط. فالعلم المفيد هو علمٌ يشوق صاحبه إلى الله تعالى، ويعينه على الإنقاذ من العذاب، وعلى الحصول على رضاء الله سبحانه وتعالى. وماعداه خرافات وفضول. والعلم الذي لايقود صاحبه إلى الله سبحانه وتعالى، أو لاينقذ من عذابه، فهو ليس بعلمٍ وإنما هو جهلٌ، وهو ليس بعلمٍ يقينيٍّ، وإنما هو علمٌ دنيويٌّ، وهو ليس بعلمٍ رحمانيٍّ، وإنما هو علمٌ شيطانيٌّ.

• إعداد: إظهار أحمد السعيدي الأزهري

كلمات الإحسان

أبو سعد حسن الصفوي

مما لايتطرق إليه الشك أن التصوف هو روح الإسلام ومغزاه، لأن أساسه تزكية النفس، وتخليتها عن الأعمال الرذيلة، وتحليتها بالأخلاق الفاضلة، وتزهيدها في الدنيا، وتبعيدها عن زخارفها، ثم إيصالها إلى الله سبحانه وتعالى.

ولا يكون القول من الكذب لو قلنا: بأننا نؤدي جميع المسئوليات التي تتعلق بالدنيا بالجِدِّيّة، ونقوم بحمل تلك الأثقال الدنيوية التي وُضعت على عواتقنا بكل النشاط . ولكننا لاهون وغافلون عن أداء تلك المسئولية التي هي أساس الدين والإسلام، وناسون إقامتها، وهي تزكية النفس وتربيتها.

وأقول بكل ثقة بأن ما نراه اليوم من الاضطراب والأزمة والفساد والكارثة فيما بين المسلمين، ليس سببها إلا نسيانهم تزكية النفس وتربيتها، فاشتدت الحاجة اليوم إلى أن يقوم العلماء بلفت أنظار المسلمين إلى التزكية والتربية الدينية، ونحن اليوم أحوج إلى أن نقوم بإحياء التصوف الحقيقي ونضعه في حياتنا فوق كل اعتبار، ولا نخجل من أن نعترف بأن التصوف الحقيقي الروحي هو الذي يتمكن من أن ينقذ العالم الإسلامي مما هو فيه الآن ، ولا المراسم والخرافات التي تُؤدّى باسم التصوف.

ولكن مع ذلك؛ نرى في الإسلام جماعة ترفضه بأصله، وتهاجمه بشدة، وتأتي بهجمات شرسة حول قضاياه، وهذه الجماعة التي تعترض على التصوف وترفضه لا تستدل على ما تدّعيه إلا بأفعال الجهلة المتصوفة الذين يخوضون في المراسم والخرافات، ويهيمون فيما لايعنيهم، ويتخبطون فيما لا يُجديهم، ويلهون عن التصوف الحقيقي . ثم يدعون بأنهم من أهل التصوف وأعيانه، والحقيقة أن التصوف منهم بريء.

وما أحسن ما قاله العلامة قطب الدين الدمشقي ـ رحمه الله ـ في رسالته حيث يقول فيها: « وأجمعوا على أن جميع ما فرض الله تعالى على العباد في كتابه، وأوجبه رسول الله- صلى الله عليه وسلم- فرضٌ لازمٌ وحتم واجبٌ، لا يجوز التخلف عنه، ولا يسع فيه التفريط لأحد من الناس من صدِّيق أو وليٍّ أو عارف، وإن بلغ أقصى المراتب وأعلى الدرجات، وأنه لا مقام للعبد يُسقط عنه آداب الشريعة، فإن من

المعلوم بالضرورة أن أقرب الناس إلى الله تعالى أنبياؤه ورسله ـ عليهم السلام ـ ولم يرتفع عنهم التكليف مع بلوغهم الرتبة العالية، فمن دونهم أولى بذلك، بل كلّما ازداد القرب كانت المطالبة بأداء آداب الشريعة، والمعاتبةُ على تركها أكثر، فعُلِم بذلك أن صحة العمل بصحة العلم؛ ولهذا قال سهلٌ التُّستري رحمه الله: «اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلون، والقراء المداهنون، والمتصوفة الجاهلون »[1].

اللهم اجعلنا ممن جعلتَهم من الصوفية البررة العاملين الذين اعتكفوا على رضائك ورضاء حبيبك المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم (اللهم آمين).

قراءنا الأعزة! كما تعرفون جيدًا بأن مجلة الإحسان منذ إصدارها الأول تشمر عن سواعد جدها لتحيي ما انمحى من تعليمات ساداتنا الصوفية، وتجدد ما اندرس من علومهم، وتعيد إلى وجهها مسحة الجمال وومضتها، وتقاوم صورتها المشوهة من قبل دخلاء التصوف ومحرفيه، وتعرفه إلى المجتمع الإسلامي بصورته الصحيحة النقية الطاهرة.

وأيضًا من عادتها أنها تتحف قارئيها بموضوعات لم تقرع أسماعهم، ولم تخطر ببالهم، ونظرًا إلى هذا الهدف السامي قررت إدارة الإحسان أن تجعل هذاالعدد خاصًا باسم "الشبهات على التصوف وردودها". وبالفعل اختارت الإدارة من موضوعات التصوفموضوعاتدار حولها الجدل وكثر فيها الكلام، ولكن مع الأسف البالغ لم تتمكن من أن تحصل على البحوث التي كانت تتوقع حصولها، ولم تتمكن من أن تتسلم تلك المقالات التي كانت مطلوبة لها من كتَّابها، وذلك بسبب ازدحام المسئوليات لكُتّابها وكثرة شواغلهم.

وعلى الرغم من ذلك لا داعي للقلق لقرائها الأعزة؛ لأنها ولولم تحصل على جميع المقالات المتعلقة بالشبهات ولكنها حصلت على بعضها، واعتاضت ممافات، فإنها أتت بأحسن بديل؛ لأنها حصلت على مقالات قيمة تم إعدادها من العلماء الذين تتلألأ أسماؤهم في سماء العلم، وهم شموس العلم وفوارس هذا الميدان؛ ألا وهم علماء الأزهر الشريف، أمثال : فضيلة الدكتور إبراهم صلاح الهدهد رئيس الجامعة الأزهرالشريف السابق، والدكتور عبد الصمدمحمد مهنا مستشار شيخ الأزهر الشريف، والدكتور جمال فاروق دقاق عميد كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف، والدكتور فتحي عبدالرحمن أحمدحجازي الأستاذ بجامعة الأزهر الشريف، والدكتور جمال رجب سيدبي نائب رئيس جامعة السويس السابق. و أظن أن هذه الأسامي الخمسة تكفي لمعرفة أهمية الرسالة وكُتَّابها.

---

[1] الرسالة المكية ، لقطب الدين الدمشقي، ص ٦٠ ، ط أكاديمية شاه صفي بالهند .

والعلماء الذين كتبوا في الشبهات على رأسهم الدكتورجمال فاروق دقاق الذي كتب حول التبرك بآثار الصالحين وأثبت جوازه لغير واحد بالأدلة من الكتاب والسنة وأفعال الصحابة وأفعال العلماء وأقوالهم.

وكذلك كتب الأستاذ الشيخ محمد ذيشان المصباحي عن تلك الشبهة التي تثار حول بيعة الصوفية، وعالجها في ضوء القرآن والسنة، وأشبع جميع النواحي، ولم يترك مجالًا للشك في هذا الأمر.

ومعارضوالتصوف يثيرون الشبهة حول لغة الصوفية ولسانهم أيضًا. ويقولون ما لايقال . فأجابهم الدكتور حسن نجار بكلية اللغة العربية بالأزهرالشريف. أحسن جواب، حتى أفحمهم بجوابه، فجزاه الله خيرالجزاء .

والباحث إظهار أحمد السعيدي الذي ناقش تلك الشبهة التي تثار ضدالتصوف بأنه يمنع عن النظافة ويأمر بالتجافي عن الدنيا تمامًا، وأثبت بأقوال الصوفية أنهم بريئون من هذه التهمة .

وهناك غيرها من المقالات الرائعة والمباحث القيمة التي هي نبراس لكل من يريد أن يتوصل إلى فهم حقيقة التصوف، والصوفية الربانيين الذين ضحَّوا أنفسهم في طلب رضاء الله سبحانه وتعالى .

وفي الأخير لايفوتني أن أتقدم بغاية الشكر والامتنان إلى فضيلة العلامة الأستاذ الدكتور إبراهيم صلاح الهدهد رئيس جامعة الأزهر الشريف السابق الذي رفع شأن المجلة بكتابة مقدمة لها، وساعدنا على طباعة المجلة في مصرنا المحروسة – فجزاه الله خيرالجزاء-.

وأشكرغاية الشكر لفضيلة الأستاذ الدكتور حسن نجار الذى قام بمراجعة المجلة مراجعة دقيقة نهائية، وأتى بتعليقات وملاحظات جمَّلَتِ المجلةَ وزيَّنَتْهَا ظاهرا وباطنا.وكذلك أشكر أخانا الفاضل محمد شمساد الأزهري الباحث بمرحلة الماجستير الذي قام بالمراجعة الأولى بكل دقة ووعي . و أسأل الله أنه يجزيهم أحسن الجزاء.

وكذلك أتقدم بغاية الشكر إلى كل من شارك معنا في إعداد هذه المجلة، خاصة إلى من زيّنوا المجلة بمقالاتهم ومباحثهم ولبوا ندائنا.

وكذلك لا ننسى أبدًا تقديم غاية الشكر والامتنان إلى روح هذه المجلة «شيخنا وقدوتنا شيخ المشيخة العارفية الصفوية رائدالثورة الروحية الشيخ أبي سعيد إحسان الله المحمدي الصفوي» متعنا الله بطول بقائه، والحمدلله تبارك وتعالى أولًا وآخرًا ظاهرًا وباطنًا، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ومن سارعلى دربه إلى يوم الدين.

مقدمة

إعداد:أ.د/ إبراهيم صلاح الهدهد[1]

الحمد لله رب العالمين خلق الإنسان في أحسن تقويم، وجعل النفوس أنواعًا، قال تعالى:﴿**يَاأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً** ﴾[الفجر:٢٧-٢٨]وقالأيضًا: ﴿**لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيٰمَةِ وَ لَآ أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ**﴾[القيامة:١-٢]وقال أيضًا:﴿**وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِالسُّوٓءِ**﴾ [يوسف:٥٣]ووصف الساعي في تزكية نفسه بالفلاح، قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰىهَا** ﴾[الشمس :٩]وقال أيضًا: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّٰى** ﴾[الأعلى :١٤].

والتزكية: التربية، وقد تولى أهل السلوك في كل زمن الأخذ بأيدى الناس إلى طريق خالقهم، وأضحى الطريق الأسد للمسلمين، ومذهب أهل السنة والجماعة فقهًا، ومذهب أبي الحسن الأشعري عقيدة، وكذلك الماتريدي، والسلوك، هذه الأركان الثلاثة هي التي تصون المتدين، ظاهرًا وباطنًا، هديًا واتباعًا، وصار لعلم السلوك في كل زمان رجاله، وآتت تربيتهم ثمارها، بيد أن الراصد في طريق الحق موجود في كل زمان، يتناوله بالتجريح، ويطلق عليه سهامه المسمومة، والتدافع بين الحق والباطل سنة كونية، ولازمة حياتية، وفي المنتهى تكون البشارة:﴿**بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ**﴾ [الأنبياء:١٨].﴿**فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ**﴾[الرعد:١٧] .

وقد انبرت مجلة الإحسان الرصينة في هذا العدد لدفع الشبهات على التصوف، وتعرضت المجلة في عددها الطيب هذا لأكثر الشبهات شيوعًا، كالقضية الواردة على البيعة، كما لم يفت المجلة التعرض للمحسوبين على أهل التصوف الذين يسيئون إليه، ومما حواه هذا العدد المقالات الآتية، أصول نافعة لفهم التصوف والصوفية الصافية، والتجربة الصوفية في ضوء العلم والعقل، وأثر التصوف السلوكي في تحسين الأخلاق، ونحو تصوف إسلامي رشيد، والتبرك بالآثار، وفق الله القائمين عليها، وبارك في عمر الشيخ الرباني أبي سعيد الصفوي، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وأمته.

[1] رئيس جامعة الأزهر سابقا ،عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف

عند الصوفية
طلب العلم أفضل الأعمال

الشيخ قطب الدين الدمشقي

الشيخ العارف بالله قطب الدين محمد بن أيمن الأصفهيدي الشافعي ، من أعلام التصوف في القرن الثامن الهجري، عاش في عصر الإمام عفيف الدين عبدالله بن أسعد اليافعي، كتب متنا جامعا في التصوف وسماه بـ "الرسالة المكية " وقد تلقى القبول بين السادة الصوفية، قام بتدريسه المشايخ في رحاب المسجد الحرام بمكة وفي الزوايا الصوفية بالهند للطالبين والسالكين ، فكان من أهم الكتب الدراسية في الطرق الصوفية خاصة في الطريقة الجشتية والسهروردية إلى زمن طويل، وقد توفي رحمه الله في ٧٨٠هـ ، رحمه الله رحمة واسعة . وإليك اقتباس من " الرسالة المكية ".

الصوفية رأوا طلبَ العلم أفضل الأعمال لتوقفها عليه، فإن الجاهل قد يعتقد ما ليس بقربةٍ قربةً، كبدع المبتدعة بأفعالهم، نحو حلق اللحى، والتطوُّق بأطواق الحديد وغير ذلك مما اخترعه الجهلة.

ولا يقبل الله تعالى من العمل إلا ماكان صوابًا خالصًا، والصَّواب: ما كان على وفق الشريعة المطهرة، والخالص: ما أريد به وجه الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[البينة:٥]

وأجمعوا على أن جميع ما فرَضَ اللهُ تعالى على العباد في كتابِه، وأَوْجَبَه رسُولُ الله ـ ﷺ ـ فرض لازم، وحتم واجب، لايجوزالتخلف عنه، ولا يسع فيه التفريط لأحد من الناس من صدّيق أَو ولي أو عارف، وإن بلغ أقصى المراتب وأعلى الدرجات، وأنه لا مقام للعبد يُسقط عنه آداب الشريعة، فإن من المعلوم بالضرورة أن أقرب الناس إلى الله تعالى أنبياءه و رسله ـ عليهم السلام ـ ولم يرتفع عنهم التكليف إجماعًا مع بلوغهم الرتبة العالية، فَمَنْ دونهم أولى بذلك، بل كلّما ازدادالقرب كانت المطالبةُ بأداءِ آدابِ الشريعة والمعاتبةُ على تَرْكها أكثر. فعُلِم بذلك أن صحة العمل بصحة العلم. ولهذا قال سهل التستري ـ رحمه الله تعالى ـ: «اجتنب صحبة ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلون، والقراءالمداهنون، والمتصوفة الجاهلون».

مفهوم "من لا شيخ له فالشيطان شيخه "

الشيخ سعد الدين الخيرآبادي

الشيخ العارف الزاهد النحوي الأصولي سعد الدين الخير آبادي أحد العلماء الهنود المبرزين في النحو والأدب والفقه والأصول والتصوف ، فشـرَحَ الشيخ في النحو"المصباح" للإمام عبـد القـاهر الجرجاني ، و"الكافية" لابن الحاجب، و شرح في أصول الفقه " أصول البزدوي" للإمام البـزدوي، و"مختصـر الحسامي" للإخسـيكثي، و شرح "البـاب الإعـراب" للأسـفرائيني. وفي التصـوف شرَحَ "الرسالة المكية" للشيخ قطب الدين الدمشقي باسم "مجمع السلوك والفوائد" وهذا الشـرح كان في صورة المخطوطة باللغة الفارسية فطبعت أول مرة تحت رعاية "أكاديمية شاه صفي" بتحقيق وتخريج وشرح، بعد ترجمتها إلى اللغة الأردية. توفي الإمام الخير آبادي رحمه الله سنة ٩٢٢ هـ ، والنص الآتى كان بالفارسية ثم تُرجِمَ إلى الأردية ومن الأردية ترجم إلى العربية. وإليك هذا النص المترجم.

لقد ورد عن بعض المشايخ أنهم قالوا: إن هذه المقولة فيها إيحاء بأن من استطاع أن يهتدي بالكتاب والسنة بدون شيخ، لا حاجة له إلى شيخ، فالكتاب والسنة يكفيان له. وأما هذه المقولة الشهيرة الصوفية فهي في حق من يسلك في سبيل الله ولكنه قاصرٌ عن لطائف الكتاب والسنة، وعاجزٌ عن فهم رموزهما وأسرارهما.

وأنا أقول: نعم إن الأمر كذلك؛ لأن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يهدي أحدًا بدون أن يتبع شيخاً، ويقتدي مرشداً، بل إنه سبحانه وتعالى قادر على أن يهدي أحداً، ويوصله إلى غايته ومقصوده مباشرة، دون أن يجعل الكتاب والسنة وسيلة له؛ لأنه سبحانه وتعالى مالك الملك يتصرف في ملكوته كما يشاء، ولكن الوصول إلى الغاية بدون الكتاب والسنة ـ وإن كان ممكنًا ـ شاذٌ ونادرٌ، فإن كان الأمر يمكن

عليه، ولكنه محفوف بالمخاطر والمهالك. وكذلك من وصل مباشرة إلى غايته ومقصوده بدون وسيلة الكتاب والسنة فهو لا يصلح أن يكون مرشدًا للآخرين.

فالأمة توافقت في هذا العالَم على اختيار شيخٍ كاملٍ، فبدون الشيخ الكامل لا يتمكن أحد من معرفة التوحيد اليقيني والشهودي، ومعرفة الباطن وعلم الأحوال، وكذلك لايتمكن من معرفة المكاشفة والمشاهدة؛ لأن تلك أمور تتعلق بتربية الشيخ ومصاحبته، فهي لن تأتي إلا أن نتبع شيخاً كاملاً يكون غوّاصاً في موج هذا البحر.

يا ولدي! إن التصوف ليس شيئاً حسياً حتى تحصل عليه بمجرد قرأة الكتاب والسنة، بل إنه لو لم يكن العبد عارفاً بطريق التصوف، أو إنه لو لم يكن متَّبعاً لشيخٍ كاملٍ عارفٍ، فلن يمكن له أن يصل إلى مقصوده وغايته، كما وصل إليه الكاملون العارفون.

لا مفر من المرشد:

قال شيخي[1]: إنه كان شخصٌ صالحٌ قام بترك الدنيا واشتغل بعبادة الله سبحانه وتعالى في عهد شيخ الإسلام خواجه نصير الدين الدهلوي، وصَاحَبَ معه مشكاةَ المصابيح (من كتب الحديث) وعوارفَ المعارف (من كتب التصوف) وخاض في مطالعتهما، وأخذ يعمل بكل ما كان يقرأ من الكتاب، حتى مضت له مدة طويلة ولكنه لم يفلح، و لم يصل إلى مقصوده، ولم تحصل له معرفة الله سبحانه وتعالى. ثم توجّه ذلك العبد الصالح إلى شيخ الإسلام خواجه نصير الدين الدهلوي، ووصل إليه ثم أنشد البيت، وهذا مفهومه :

لا أدخلنّ في أزقّة المحبوبين ولن أستريح إلا بعد ما أزورك

ثم أخذ العهد من شيخ الإسلام وبايعه على يديه، وجعل يتّبعه، ولم يمض إلا زمنٌ يسيرٌ حتى جعله شيخُ الإسلامِ من الواصلين إلى الله ومقرّبيه، وذلك بتمرينه إياه بذكر خفي .

كما أنَ تلك الشجرة التي تنبت بنفسه تكون يانعة ومليئة بالأوراق ولكنها لا تثمر، ولو أثمرت تكون ثمرتها مريرة الذوق، هكذا إذا كان المريد بدون شيخ فهو يتبع هواه، ولا يفلح أبداً.

[1] يريد به شيخ الإسلام الشيخ محمد بن قطب المعروف بشاه مينا اللكنوي رحمه الله تعالى المتوفى سنة ٨٨٤هـ.

التصوف... لماذا؟

إعداد: أ.د. عبدالصمد محمد مهنا(١)

لم تتلق الأمة الإسلامية عبر تاريخها كله ضربات أشد وطأة مما تتلقاه الآن، ولم تتداع عليها الأمم من قبل، كما تتداعى عليها في مثل هذه الأزمان، ولم ينتبها في يوم شعور بالمذلة والهوان والتخبط والهزيمة والاستسلام، مثلما ينتابها في مثل هذه الأيام، حتى قدموا لها دعاوى الكفر والإلحاد، على أنها حرية شخصية، والسخرية من الأديان والرسل والعقائد، على أنها حرية تعبير، والتشكيك والتشويه والتخريف والتحريف والتغريب، على أنه تنوير، والموبقات المدمرة في كافة وسائل الإعلام (المرئي، والمسموع، والمقروء) ومحلات العري والرقص، وأندية الخمر والقمار، والإيدز والشذوذ، ومخازي عُلب الليل، والمصائب المذاعة في المسارح والسينمات والمصايف والمشاتِ، التي تحطم أقدس مواريث الدين والخلق، والوطنية والإنسانية، قدموها على أنها تمدنٌ ورقيّ، فتغرب المسلمون عن إسلامهم، وتناقضت معاملاتهم مع دينهم، وسلوكياتهم مع مبادئهم وقيمهم .

ولذلك كان التصوف، أي: مطابقة القول للعمل، والدين للمعاملة، والسلوك للمبادئ، ولكن التصوف اليوم محاصر بين أعداء وأدعياء، أعداء راحوا يكيلون له التهم ويرمون أهله بالأباطيل دون أدنى أساس من العلم أو الدين أو الخلق المستقيم، هؤلاء عرفوا شيئًا وغابت عنهم أشياء.

ثم جلسوا في مجلس الحاكم بأمره، يوزعون مراسم الزندقة والتبديع والتكفير والشرك والتفسيق والخرافة، كأنهم أوصياء على الله، متخذين من جهلهم حجة على علم الناس، وجعلوا الجنة إقطاعًا خاصا بهم وبمن معهم، لا يدخلها إلا من كان مظهره مظهرهم ومحضره محضرهم ومخبره مخبرهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله(٢).

وعلى الجانب الآخر راح الأدعياء بما يأتونه من المخازي والمنكرات والمخالفات الشرعية والخلقية يمدون إخوانهم أعداء التصوف في الغيّ، ويخدعون من تبعهم من العوام، ويقطعون السبيل على المقبلين على الله من المؤمنين. ألم ير هؤلاء وهؤلاء أن الإسلام اليوم هو الآخر محاصر بين أعداء وأدعياء؟ ألم يتساءل أحد عن سر التماثل في الموقفين ؟ حصار التصوف في حصار الإسلام ؟.

---

(١) مستشار شيخ الأزهر الشريف.

(٢) راجع: "أهل القبلة كلهم موحدون" للإمام الرائد مُحَمَّد زَكي إبراهيم.

إن معاداة التصوف تعنى معاداة الإسلام، والقضاء على التصوف يعنى القضاء على الإسلام، فالتصوف هوحقيقة الإسلام وروحه وذروة سنامه، فماذا تبقّى من الإسلام إن لم يكن هناك صدق وإخلاص، وتقوى وورع، ومحبة وشجاعة، وحلم وصبر، وزهد وكرم، وخلق وسلوك مستقيم؟!

فهل للزهرة قيمة دون رائحتها؟ أو للشجرة دون ثمارها؟ أو للدين معنى دون المعاملة؟ إن محاربة التصوف ومحاولة إبعاده عن حياة الناس هو الذي أدى إلى ما نحن فيه اليوم من انفصام في الشخصية الإسلامية والشعور بالهزيمة الحضارية، فبانفصال المفهوم والتصور عن الواقع والسلوك، أضحى الدين ممسوخًا في حياة الأمة، لا روح فيه ولا قلب، لا حقيقة له ولا أصل، لا واقع له ولا حضارة، ولا سيادة له ولا قيادة، ولا رائحة له ولا طعم.

وأضحى المسلم ممسوخًا في شخصه، حائرًا في فكره، زائغًا في بصره، مهزومًا في حضارته، ظاهرًا لا باطن له، رسمًا لا حقيقة له، قولاً لا فعل له، كلامًا لا صدق فيه، بصرًا لا بصيرة له؛ لذلك كان التصوف الراشد رسالة الوعي الناهض التي حمل لواءها ولا زال العالم الجليل الإمام (محمد زكى إبراهيم) رائد العشيرة المحمدية على مدى خمسين عامًا، لم يأل له جهد، ولم تثبط له عزيمة من أجل إنقاذ التصوف – يعنى إنقاذ الإسلام – من الأعداء، وتخليصه من خلط وتلبس الأدعياء، رغم ما عانى في سبيل ذلك من افتراء الأعداء وتقلبات الأدعياء، فالتصوف هو المخرج الوحيد للأمة لكي تعود إليها هويتها، وللمسلم لكي يعود إليه وعيه، وإن شئت فاسمع معي ما يقول ذلك السيد الجليل[٣]: «يا ولدى! إن التصوف خدمة تتكيف بحاجة كل عصر وكل إنسان وكل وطن، فهي تجسيد شامل لعملية الاستخلاف على الأرض، إن التصوف (التقوى) والتصوف (التزكية)، وهى مقام يجمع الخوف والرجاء، وينهض بالعقيدة والخلق، وبه تتحقق إنسانية الإنسان، فالتصوف أدب، والعقيدة أدب، والعبادة أدب، والمعاملة أدب، من تعلم الأدب بلغ الأرب».

التصوف فرض عين؛ لأنه طلب الكمال، وما من مخلوق إلا وفيه نقص يجب استكماله، وبالتالي كان كل علم يمكن الاستغناء عنه إلا التصوف؛ لأن موضوعه الذات والروح، وعلاقة الوجود بالموجود، وارتباط الغيب بالشهادة، والملك بالملكوت، وكل علم بعد ذلك فهو نافلة.

"التصوف فناء صفة العبد ببقاء صفة المعبود"، التصوف أمر من الله في قوله تعالى:﴿كُوْنُوْا رَبّٰنِيّٖنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُوْنَ الْكِتٰبَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُوْنَ﴾[آل عمران:٧٩].

التصوف خلق، ومن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف، فزاد عليك في الإنسانية، فنفع وانتفع وأدى رسالة البشرية بروح سماوية علية. ●●●●

(٣) راجع : "الخطاب" للإمام محمد زكي إبراهيم.

التصوف وخصائصه

إعداد: الشيخ مصباح عوض الله سالم اليماني .[1]

إن التصوف خلق عظيم، وسمة عالية ومكرمة غالية، لا يتصف بها أي إنسان، بل لا يتصف بها إلا من كان قلبه صافيًا نقيًا ظاهرًا عفيفًا، وكان زاهدًا في الدنيا وزاهدًا فيما عند الناس؛ فبذلك ينال حب الله والملائكة والناس أجمعين. إن المتصوف من ترك الدنيا خلف ظهره، وسلك طريق القرآن الذي هو منهج من ربه، وتمسك بسنة رسوله، وعض عليها بالنواجذ، وأصبحت الدنيا عنده وسيلة لا غاية، وكان فيها كراكبٍ استظل تحت ظل شجرة، ثم راح وتركها. وهذا المعنى يتجلى في فضيلة الشيخ الإمام الخاشع الصفي النقي أبى سعيد الصفوي مؤسس الجامعة العارفية التي لها صدًى واسع في شتى أصقاع الدنيا، وذلك بفضل جهوده العظيمة التي لا يبغي من ورائها إلا رضاء ربه ونشر دين الإسلام في شتى المعمورة.

إن للتصوف خصائص: منها:

(١) الصفاء:

وهو أن يخرج الإنسان من ذل نفسه، وأن يطهر قلبه مما عدا الله، وأن يعلم أن التصوف جليل القدر عظيم النفع أنواره لامعة وثماره يانعة، فهو يزكى النفس من الأدناس، ويطهر القلب من الأرجاس ويوصل الإنسان إلى مرضاة الرحمن؛ لأنه إنما سميت الصوفية بهذ الاسم لصفاء أسرارها ونقاء آثارها، وقد قال الجنيد البغدادي:«طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، إذ الطريق إلى الله مسدود على خلقه إلا على المقتفين آثار الرسول -صلى الله عليه وسلم-». وقد قال أحد الأئمة الزاهدين المتصوفين: «أصول مذهبنا ثلاثة: الاقتداء بالنبي – صلى الله عليه وسلم- في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأفعال». وقد حكى الإمام الشعراني في مقدمة كتاب الطبقات إجماع القوم على أنه لا يصلح للتصدر إلى طريق الصوفية إلا من تبحر في علم الشريعة وعلم منطوقها ومفهومها وخاصها وعامها وناسخها ومنسوخها، وتبحر باللغة العربية حتى عرف مجازاتها واستعاراتها، والحكمة من هذا و ذلك أن

[1] أستاذ اللغة العربية بالجامعة العارفية مبعوث الأزهر الشريف.

شيخ الصوفية يكون قدوة ومرجعًا للناس في مسائل العلم والدين. وذلك أن التصوف سلوكٌ مبنيٌّ على منهجٍ، أساسُه كتاب الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

(٢)التمسك بالكتاب والسنة:

إن التمسك بالكتاب والسنة لازم، وهذا من باب إطلاق اللازم في الملزوم كلزوم الظل للشخص وملازمة الماء للحياة، وملازمة القلب للإنسان، فيلزم على المتصوف أن يجعل أموره كلها معروضة على الكتاب والسنة كما كان يفعل الصحابة، وأن يكون مدركًا كل حركاتهم وسكناتهم وأن يترك الشك باليقين، وأن يكون راجيًا من ربه أن يعينه بتدبيره على تدبيره، وباختياره، على اختياره وأن يوقفه على مراكز الاضطرار.

(٣)الورع:

وهو التحري في الحلال قلبًا وقالبًا بالبعد عن أي شبهة أو ريبة، وأن يدع ما يريبه إلى ما لا يريبه، وهو اتقاء الشبهة معتمدًا على الكتاب والسنة باعتبارهما المصدرين الأولين في التشريع، فقد اتخذ الصحابة من أهل الصفة الورع منهجًا وخلقًا وسلوكًا لهم، ويدركون أن غنى النفس هو الغنى الحقيقي؛ فكان حديث النبي صلى الله عليه وسلم: «من بات آمنًا في سربه معافًى في بدنه عنده قوت يومه كأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها» نصب أعينهم، ودستورًا لهم، ولذلك كان يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف؛ ذلك لأنهم قوم عرفوا ربهم بربهم عن طريق حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم، ولولا ربهم ما عرفوا ربهم؛ فعرفوه حق المعرفة.

(٤)الزهد:

هو أن يزهد الإنسان في الدنيا لا يكون راغبًا فيها، زاهدًا فيما عند الناس، عالمًا بأن متاع الدنيا قليل، متخذًا أفعال النبي صلى الله عليه وسلم، وأفعال الصحابة من بعده هداية له، وإذا ما قلبنا واستقرأنا صفحات القرآن الكريم لوجدنا فيها آيات بينات واضحات تدل على الزهد؛ قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ﴾[فاطر:٥]، وكذلك قال الله عز و جل: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾[النساء:٧٧] ، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ لَهِيَ ٱلۡحَيَوَانُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾[العنكبوت:٦٤].

وقد كثر ذكر الزهد في السنة المطهرة، وكثرت أبوابه، والناظر فيها يجدها قد اشتملت على أبواب كثيرة، منها باب الزهد في الدنيا، باب فضل الجوع، باب القناعة والعفاف. فقد قال صلى الله عليه وسلم:

«ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبعه في اليم فلينظر بما يرجع»، وقال صلى الله عليه وسلم: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، وكان ابن عمر يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك، وليس الزهد عن قلة المال، ولكن الزاهد من جاء ه المال فزهد فيه، وأنفقه ولم يجعله كل همه».

فقد جاء في القرآن الكريم ما يدعو إلى الزهد؛ فقد قال الله تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيٰحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴾ [الكهف:٤٥]. ولقد كان النبي صلى الله عليه وسلم أزهد الناس، ولم لا وهو القائل: «لوكانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء».

وقد روي عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم نام على حصير فأثر في جنبه، فقال له أصحابه: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء، فقال صلى الله عليه وسلم: «ما لي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».

وها هي عائشة أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق تقول: «ما ترك النبي صلى الله عليه وسلم عند موته دينارًا ولا درهمًا ولا عبدًا ولا أمة ولا شيئًا إلا بغلته البيضاء التي كان يركبها وسلاحه وأرضًا جعلها لابن السبيل صدقة».

(٥) الإحسان:

هو منهج وخلق وسلوك وفق رؤية الإسلام ، وقال بعض الصوفية: «إن الإحسان هو أحد أركان الدين الإسلامي المبني على ثلاثة أركان: الإسلام ،و الإيمان ،و الإحسان».

فمثلما اهتم الفقه بتعاليم شريعة الإسلام الذي هوعلم العقيدة بالإيمان، فإن التصوف اهتم بتحقيق مقام الإحسان، وهو أن يعبد الإنسان المسلم ربه كأنه يراه فإن لم يكن يراه فهو يراه، وهو طريق ومنهج للوصول إلى الله؛ أي الوصول إلى معرفته والعلم به، وذلك أن طريق الاجتهاد في العبادات واجتناب المنهيات واجتناب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وتربية النفس وتطهير القلب من كل ما لا يحبه الله، وتحليته بالأخلاق الحسنة، هذا المنهج تستمد أصوله وفروعه من الكتاب والسنة واجتهاد العلماء. وقال بعضهم: «إن الإحسان علم كعلم الفقه له مذاهبه ومدارسه ومجتهدوه» وهذا ما يسميه الصوفية وأئمتة الذين شيدوا أركانه وقواعده كغيره من العلوم، جيلًا بعد جيل علمًا يسمى التصوف وعلم التزكية وعلم

الأخلاق، فألف الصوفيون فيه الكتب الكثيرة، بينوا فيها أصوله وفروعه وقواعده، ومن أشهرها الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندري، وإحياء علوم الدين للغزالي الذي قال العلماء عنه: «من لم يقرأ الإحياء فليس من الأحياء»، وجوامع الكلم للإمام الشيخ محمد ماضى أبو العزائم.

الخلاصة:

التصوف الحقيقى ما كان على نهج كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام، ما أشد حاجة الأمة الإسلامية اليوم بعد أن أصابها الوهن والتمزق والتفكك إلى هذا المنهج القويم العظيم لتقييم النفس وتخليصها من الأدناس والأرجاس والأخلاق الفاسدة التي طمت وانتشرت في أرجاء الأمة الإسلامية، وذلك بسبب بعدهم عن شرع ربهم وخضوعهم لغير منهج نبيهم فلا مناص لمعالجة كل مشاكل النفس ورأب الصدع، الذي أصاب أمتنا الإسلامية إلا بعودتهم إلى حظيرة ربهم واتباع منهج نبيهم.

وفي الختام:

أجد لزامًا علي بعد أن من الله علي فرأيت و عايشت رجلًا صالحًا صوفيًا جند نفسه ماليًا وعمليًا وعلميًا؛ فادخر كل ما يملك من مال ووقت لأجل رفعة راية الإسلام؛ فجعل الدعوة همه، وطاف كثيرًا من البلاد لنشر دين الله، فأسلم على يديه كثيرون، ونال حب الأرض بعد حب السماء ، ثم بعد ذلك أنشأ جامعة لحفظ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ودراسة العلوم العربية والشرعية أجد لزامًا علىّ أن أشكر ذلك الشيخ الجليل جزاه الله خيرًا.

إن الشيخ أباسعيد الصفوى يسعى لإنشاء أجيال تتسلح بالعلم الصالح المبني على الزهد والتقوى والتصوف الحقيقي المستمد من الكتاب والسنة؛ لتنساب به إلى أصقاع الدينا شرقها وغربها لينشروا دين الله على وفق ما أراد الله مطابقًا لسنة نبي الله وصحابته من بعده، هذا كله يتبناه ويرعاه ويقوم عليه ليل نهار رجل صالح اختاره الله لهذا الزمان ليصلح به وبأمثاله الناس ليدخلوا من خلاله في دين الله أفواجًا، لاحرمنا الله من أياديه البيضاء، إنه فضيلة الشيخ أبي سعيد الصفوى الذي يعلمه القاصي والداني، فما ما يدل على أنه في رعاية الله وعونه وسنده، ويدل على أن الله يحبه، فإذا أحب الله عبدًا نادى في السماء يا أهل السماء إني أحب فلانًا فأحبوه، ثم يوضع له القبول في الأرض، نفعنا الله بعلمه ورزقه من فضله، ونفع به الإسلام وجعله نصرة للمسلمين.

نشأة التصوف وعقيدة الصوفية

إعداد: محمد راغب الأزهري المصباحي[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا ومولانا إمام المتقين وخاتم النبيين والمرسلين وخير خلق الله أجمعين وعلى آله وصحبه ومن تبع هديه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فمما لا شك فيه أن نشأة التصوف كانت نشأة إسلامية خالصة، اقتضتها طبيعة هذا الدين الحنيف ذاته. وليس للثقافات الأجنبية أي دخل في هذه النشأة،وأن القران الكريم قد شمل عناصر هذا المنهج التربوي الروحي للنفس البشرية، والسيرة الذاتية لنبي هذا الدين – صلى الله عليه وسلم–هيالمنبع الثاني للتصوف، ثم حياة الصحابة – رضي الله عنهم– الشغوفين بالتأسي به في كل نواحي حياته هي المنبع الثالث، ثم التابعين الذين لهم مزيد عناية بأمر الدين كانوا نماذج حية لمن أراد أن يقتدي.

ومن هنا أريد أن أذكر عناصر التصوف في كل ما أجملت إجمالاً فيما يلي:

عناصر التصوف في القرآن:

لقد تناول القران أهم العناصر التي يتكون منها التصوف: تحدث القرآن عن التوبة التى هي الخطوة الأولى في الطريق الصوفي فقال: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور :٣١].

تحدث عن الإخلاص فقال:﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾[البينة :٥].

وتحدث عن الزهد في الدنيا فقال: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ ۚ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ﴾[النساء:٧٧].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾[آل عمران :١٨٥].

[1] الطالب بكلية اصول الدين، قسم العقيدة والفلسفة، جامعة الأزهر الشريف، القاهرة .

عناصر التصوف في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم:

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «والذي نفس أبي هريرة بيده ما شبع نبي الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعًا من خبز حنطة حتى فارق الدنيا».[1]

وفي رواية لمسلم قالت: «لقد مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما شبع من خبز وزيت في يوم واحد مرتين».[2]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:«نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، قلنا: يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاء(فرشا لينا) فقال: مالي وللدنيا؟ ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها».[3]

وكذالك حياة الصحابة والتابعين وتابعيهم حافلة بعناصر التصوف،أكتفي بما ذكرت من عناصر التصوف في منبعين رئيسين خشية من الإطالة، فعلى من يعترض على التصوف بأنه بدعة أو أصحابه مضلون،أوكما يقول السلفية المعاصرة:إن أفعال الصوفية ضد القرآن والسنة، فعلى كل من يقول مثل ذلك الاتعاظ بالقرآن والسنة النبوية؛ لأنه اتضح أن نشأة التصوف هي نشأة إسلامية خالصة اقتضتها طبيعة هذا الدين الحنيف.

أصالة التصوف الإسلامي:

التصوف -كما قلت أيضًا- طريقة سلوكية عرفانية أخلاقية، قوامها التقشف والتحلي بالفضائل، والتخلى عن الرذائل، والاستعلاء على أهواء النفس البشرية، والتحرر من سلطان الغرائز والنزوات، حيث تزكو النفس وتسمو الروح، وينتظم سلوك الإنسان وعواطفه على أساس ما جاء به دين الإسلام، وهذا يعني بالضرورة أن تكون مصادر الإسلام هي بعينها مصادر التصوف الإسلامي، وأهمها القرآن الكريم والسنة المطهرة، وهذه هو التصوف الصحيح، وهذا ما أجمع عليه أعلام التصوف.[4]

يقول الإمام الجنيد رحمه الله تعالى: «مذهبنا هذا مقيد بأصول "الكتاب والسنة"، وقال أيضا رداّ على من توهّم خروجه عنهما: الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم واتبع سنته ولزم طريقته فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه »[5].

---

[1] الترغيب والترهيب ٤\١٨٧.

[2] (الترغيب والترهيب؟

[3] السابق ٤\ ١٩٨.

[4] الفكر الصوفي في ميزان الشريعة الإسلامية \ د \ فرج عبد الحليم أستاذ قسم العقيدة و الفلسفة كلية أصول الدين الأزهر.

[5] طبقات الصوفية للإمام أبي عبد الرحمان السلمي؟الجزء؟ \ ١٥٩ ط دار الكتاب النفيس ط الثانية١٤٠٦ هـ.

فالتصوف الصحيح هو الذي يقوم على الاتباع لا على الابتداع، يقول الإمام الجنيد: فيما رواه البغدادي: أخبرنا أبو نعيم الحافظ قال: سمعت على بن هارون ومحمد بن أحمد بن يعقوب الوراق يقولان: سمعنا أبا القاسم الجنيد بن محمد غير مرةيقول: «علمُنا مضبوط بالكتاب والسنة؛من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به ».[1]

وعلى هذا فأصل التصوف يرجع إلى القرآن والسنة، ومن يتمسك بالكتاب والسنة المطهرة ويلتزم بالأوامر ويجتنب النواهي ولا يأتي بأمر مخالف للشرع لا في صغيرة ولا كبيرة هو المتصوف الحقيقي، ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَالَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[المؤمنون ٣-١]

بداية ظهور اسم الصوفية:

يقول القشيريرحمه الله:«اعلموا أن المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يَتَسم أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام، إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم "الصحابة"، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدةعناية بأمرالدين "الزهاد"و"العُبَّاد"، ثم ظهرت البدعة، وحصل التداعي بين الفرق، فكل فريق ادعوا أن فيهم زهادًا، فانفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم معالله سبحانه وتعالى، الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم "التصوف"، واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة».[2]

ويقول محمدصديق الغماري: «ويعضد ماذكرهابن خلدون في تاريخ ظهور إسم التصوف ماذكره الكِنْدوي كان من أهل القرن الرابع في كتاب "ولاة مصر" في حوادث سنة المائتين: "إنه ظهر بالإسكندرية طائفة يسمَّوْن بالصوفيةيأمرون بالمعروف"، وكذلك ماذكره المسعودي في "مروج الذهب" حاكيًا عن يحيى ابن أكثم فقال: "إنا لجالسون عند لمأمون يومًا، إذ دخل عليه علي بن صالح الحاجب، فقال: ياأمير المؤمنين! رجل واقفٌ بالباب، عليه ثياب بيض غلاظ، يطلب الدخول للمناظرة، فعلمت أنه بعض الصوفية"، فهاتان الحكايتان تشهدان لكلام ابن خلدون في تاريخ نشأة التصوف. وذُكر في "كشف الظنون " أن أول من سمي بالصوفي "أبوهاشم الصوفي" المتوفى سنة خمسين ومائة».[3]

---

[1] تاريخ بغداد . للحافظ أبي بكر أحمد بن على الخطيب البغدادي الجزء \ ٢٤٣.

[2] كشف الظنون عن أسماءالكتب والفنون، تأليف: حاجي خليفة ، ج١،ص٤١٤.

[3] الانتصار لطريق الصوفية ، تأليف : مُحَمّدالصديق الغماري ، ص ١٨-١٧.

ظهور التصوف كعلم:

بعد عهد الصحابة والتابعين، دخل في دين الإسلام أُمم شتى وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم، وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص، فقام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يُجيده أكثرمن غيره، فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول علمالفقه، وعلمالتوحيد، وعلوم الحديث، وأصول الدين، والتفسير، والمنطق، ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض "الميراث" وغيرها، وبعد هذه الحقبة أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على الله بالعبودية، وبالقلب والهمة، مما دعا أربابالرياضة والزهد إلى أن يعملوا هُم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائرالعلوم، من باب سد النقص، واستكمال حاجات الدين في جميع نواحي النشاط.

وكان من أوائل من كتب في التصوف من العلماء:

- الحارث المحاسبي، المتوفى "سنة ٢٤٣ هـ" ومن كتبه: بدء من أناب إلى الله، وآداب النفوس، ورسالة التوهم.
- أبوسعيدالخراز، المتوفى "سنة ٢٧٧ هـ" ومن كتبه: الطريق إلى الله.
- أبوعبدالرحمن السلمي، المتوفى "سنة٣٢٥هـ"ومن كتبه: آداب الصوفية
- أبونصرعبدالله بن علي السراج الطوسي، المتوفي "سنة ٣٧٨هـ"وله كتاب: اللمع في التصوف.
- أبوبكرالكلاباذي، المتوفي "سنة ٣٨٠هـ"وله كتاب: التعرف على مذهب أهل التصوف.
- أبوطالب المكي، المتوفى "سنة ٣٨٤هـ" وله كتاب: قوت القلوب في معاملة المحبوب.
- أبوالقاسم القشيري، المتوفى "سنة٤٦٥هـ" وله الرسالة القشيرية، وهي من أهم الكتب في التصوف.
- أبوحامدالغزالي، المتوفى "سنة ٥٠٥هـ" ومن كتبه: إحياء علوم الدين، والأربعين في أصول الدين، ومنهاجالعابدين إلى جنة رب العالمين، وبداية الهداية، وغيرها الكثير. ويعد كتاب إحياءعلوم الدين من أشهر – إن لم يكن الأشهر- كتب التصوف ومن أجمعها.

عقيدة الصوفية:

أجمعت الصوفية على أن الله واحد أحد،فرد صمد، قديم، عالم، قادر، حي، سميع،بصير،عزيز، عظيم، جميل، كبير، رحمن، رحيم، موصوف بكل ما وصف به نفسه مسمى بكل ما سمى به نفسه، لم يزل قديما بأسمائه

وصفاته غير مشبه للخلق بوجه من الوجوه، لا تشبه ذاته الذوات، ولا صفاته الصفات، ولا يجري عليه شيء من سمات المخلوقين الدالة على حدثهم، لم يزل سابقاً متقدماً للمحدثات، موجوداً قبل كل شيء لا قديم غيره، ولا إله سواه، ليس بجسم، ولا شبح ولا صورة، ولا شخص، ولا جوهر، ولا عرض، لا اجتماع له ولا افتراق، لا يتحرك، ولا يسكن، ولا تحيط به الأفكار، ولا تحجبه الأستار،ولا تدركه الأبصار.[1]

ويقول الإمام القشيري – رضي الله تعالى عنه-:«إن شيوخ هذه الطائفة بنوا عقائدهم على أحوال صحيحة في التوحيد صانوا بها عقائدهم عن البدع ودانوا بما وجدوا عليه السلف وأهل السنة من توحيد ليس فيه تمثيل ولا تعطيل وعرفوا ما هو حق القدم وتحققوا بما هو نعت الموجود عن العدم».[2]

فاتضح مما سبق أن عقيدة الصوفية ليست منحرفة عما نص عليه القرآن و الحديث النبوي الشريف في ذاته تعالى، كما قال القرآن الكريم: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌاَللهُ الصَّمَدُلَمْ يَلِدْ وَ لَمْ يُوْلَدْوَ لَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [الإخلاص] والعقيدة المنحرفة عما ورد في الكتاب والسنة ليست عقيدة الصوفية الصحيحة التى تبناها أعلام الصوفية قديماً وحديثاً.

نغمات الأسرار في مقامات الأبرار

أبيات روحية كاشفة لأنوار الحقائق ولمعات الدقائق لأحوال الصوفية الصفوة ترشد الطالبين إلى التزكية والإصلاح وإلى مدارج الحق وقمم الرشد والفلاح باللغة الأردية الفصحى السهلة، وهي الخواطر الربانية والفيوض الصمدانية للداعية الإسلامي العارف الرباني الشيخ **أبي سعيد إحسان الله** المحمدي.

أكادمية الشاه صفي، الله آباد، الهند

[1] التعرف على لمذهب أهل التصوف \ لتاج الإسلام أبى بكر محمد الكلاباذي ٤٥-٤٦ ط الثانية ١٤١٢هـ-١٩٩٢م المكتبة الأزهرية.

[2] الأنوار القدسية في معرفة قواعد الصوفية للشعراني ص ٢٥-٢٠.

الحل الوحيد من المشاكل الراهنة

التصوف

إعداد: محمد افضل حسين[1]

الحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيبًا ومباركًا فيه، والصلاة والسلام على سيد الخلق وأشرف المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتشرت الأفكار المتشددة في المجتمع في الأوضاع الراهنة التي نعيش فيها، وبسبب هذه الأفكار المتشددة يقتل الآلاف من الناس، حتى ظهرت في أيامنا مجازرة إنسانية يوم بعد يوم، وكذلك تلاشت فيها القيم النبيلة كالتسمح والمحبة والأخوة، وسادت فيها الشحناء والبغضاء والتشدد والحروب.

سوف نتحدث شيئًا فقد وجدت حل هذه المشاكل وكيفية معالجتها، وذلك في ضوء التصوف، أن التصوف هو الحل الوحيد لهذه المشاكل كلها؛ لأن التصوف يحمل في داخله طرقا تتضمن الأمن والسلام والإخاء والرخاء والهدوء والسكون. وتلك الطرق على النحو الآتي:

الطريقة الأولى: الإخلاص، كما قال الله عزوجل: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[الزمر: ٣].

قال ابن عاشور في تفسير الآية: «استئناف للتخلص إلى استقامته تعالى الإفراد بالعبادة وهو غرض السورة أفادت التعليل للأمر بالعبادة الخالصة لله عزوجل؛ لأنه إذا كان الدين الخالص مستحقا لله وخاصًا به كان الأمر بالإخلاص له»[2].

ذكر الشيخ الملطاوي في كتابه حديثا وذلك الحديث يحمل سر الإخلاص: عن حذيفة رضي الله عنه قال: «سألت النبي ﷺ عن الإخلاص ماهو؟ قال سألت جبريل عليه السلام عن الإخلاص ماهو؟ قال سألت رب العزة عن الاخلاص ما هو؟ قال: سر من سري استودعته قلب من أحببته منه عبادي».

---

[1] الدارس: بجامعة الأزهر الشريف.

[2] التحرير والتنوين، ج: ٣ ص: ٣١٧.

قال سيدي ذو النون المصري رضي الله عنه: «الإخلاص لا يتم إلا بالصدق فيه، والصبر عليه، والصدق لا يتم إلا بالصدق فيه، والمداومة عليه، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال، ونسيان اقتضاء العمل في الآخرة».

والسادة الصوفية يتحلون في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم مدفوعين إليه بقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣].

وقال تعالى في الصحابة رضوان الله عليهم: ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح:٢٩].[1]

و في ضوء ما سبق من الأقوال اتضح لنا أن الإخلاص جامع لكل الأوصاف النبيلة، و وسيلة للتقرب إلى الله تعالى، وسبب للبعد عن كل المنهيات، وكذلك سبب التحلي لكل الأوصاف الفاضلة، كما قال: ابن عطاء الله السكندري: «الإمال صورة قائمة وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها».[2]

الطريقة الثانية: الزهد، هو: انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، إنه عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف، وتفريغ القلب من شهواتها و زينتها بلا تعلق.

قال ابو عمر بن مسلمة الحداد رحمه الله: «الزاهد حقا لا يذم الدنيا ولا يمدحها، ولا ينظر إليها ولا يفرح بها إذا أقبلت، ولا يحزن إذا أدبرت».

ولنقف على شيء من الحديث عن الزهد في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤] وقال أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الفاطر: ٥].

الزهد في السنة: عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الدنيا حلوة و إن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء».[3]

الطريقة الثالثة: من أهم طرق حل المشاكل الراهنة الرفق: كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه ». «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه».

---

[1] الصوفية في إلهامهم، ج:٢ ص:٢٤.

[2] شرح الحكم العطائية لإبن عطاء الله السكندري ، ص: ٢٢.

[3] رفع الملام عن الصوفية الإعلام للجوهري، ص: ١٢٤-١٢٥.

قال فضيلة المفتي الدكتور علي جمعه بعد إيراد هذا الحديث: «الرفق يكون مع النفس والرفق يكون مع الناس، والرفق يكون مع الكون، وبكل ذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم»[1]. لذلك يجب علينا أن نترفق مع الجميع ولا نشدد على أحد، وإذا علمنا هذا فالفساد يرفع بنفسه، يقوم الهدوء والأمن والسلام.

الطريقة الرابعة: حسن الخلق مع الناس: قال تعالى: ﴿**وَ إِنَّكَ لَعَلٰى خُلُقٍ عَظِيْمٍ**﴾[القلم:٤]. وقال صلى الله عليه وسلم: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق». كما ذكر ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين): «إن هشام بن حكيم سأل عائشة رضي الله تعالى عنها عن خلق رسول الله ﷺ ؟ فقالت: "كان خلقه القرآن" فقال: هممت أن أقوم ولا أسأل شيئًا وقد جمع الله له مكارم الأخلاق في قوله تعالى: ﴿**خُذِ الْعَفْوَ وَاْمُرْ بِالْعُرْفِ وَاَعْرِضْ عَنِ الْجٰهِلِيْنَ**﴾ [الأعراف:١٩٩]»[2].

كما ذكر الغزالي عن مكارم الأخلاق حكاية عن جارية بقوله: «لما أوتي بسبايا طيء وقفت جارية في السبي فقالت: يامحمد، إن رأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإنني بنت سيد قوم، و إن أبي يحمي الذمار، ويفك العاني، ويشبع الجائع، ويطعم الطعام، ويفشي السلام، ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي، فقال صلى الله عليه وسلم: "يا جارية، هذه صفة المؤمن حقًا، لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه"، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، وإن الله يحب مكارم الأخلاق»[3].

مما سبق من الآيات والأحاديث اتضح لنا قيمة حسن الخلق، والعفو، والجود، والكرم، والسماحة مع البشرية كافة سؤاء كان كافرًا أو مسلمًا.

الطريقة الخامسة: الخير والأدب مع كل الناس الصغير والكبير، الحر والعبيد، ولقد أورد الشيخ علي جمعة أصولًا متعددة للأدب في كتابه (سلسة التربية والسلوك)

أولًا: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

ثانيًا: من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فليقل خيرًا أو ليصمت.

ثالثًا: لا تغضب و لك الجنة.

رابعًا:لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

يقول أبو زيد القيرواني رضي الله عنه وهو من أئمة المالكية: هذه أربعة هي أسس الخير والأدب، وإذا

---

[1] سلسة التربية والسلوك، ص: ٣٧٨.

[2] مدارج السالكين لإبن القيم ، الجزء الثاني، ص: ٢٨٣.

[3] إحياء علوم الدين للغزالي، ص: ٨٢٠.

تخلق بهن الإنسان كان مسلمًا حقًا.

الطريقة السادسة: من طرق حل المشاكل الراهنة تزكية النفس، كما قال تعالى: ﴿**قَدْ اَفْلَحَ مَنْزَكّٰىهَا وَقَدْ خَابَ مَنْدَسّٰىهَا**﴾ [الشمس: ١٠،٩] ولكن دسست النفوس في هذا العصر، وترك الناس تزكية النفس، وذلك بفقدان التصوف، و من هنا ألمت جميع المشاكل برءوسنا في هذا العصر الراهن، فيجب علينا أن نتمسك بتزكية أحسن تمسك و نأخذها بكل قوة، كما أكد الشيخ الإمام البوطي رضي الله تعالى عنه: «لو زكيت النفوس كما أمر الله في محكم تبيانه لما فرق المسلمون أنفسهم فئات وجمعات، أنهالت كل جماعة على الأخرى توبيخًا و انتقاصًا وشتمًا، بل وتكفيرًا في كثير من الأحيان لو زكيت النفوس لما انتشرت آفة حب الرياسة مقنعة بأقنعة شتّى بين الفئات والجماعات المسلمة، فتقارعت الرؤوس وتشحانت النفوس ووقع الإسلام الضحية الأولى لذلك فيما بينهم»[1].

في نهاية هذا المقال وصلت بنا النتيجة بأن الزهد والرفق والخلق والأدب وتزكية النفس دواء مؤثر لعلاج جميع مشاكل المجتمع البشري؛ ولذلك يهتم بهن أهل التصوف ليحقق الأمن المتكامل والسلام الشامل في الإنسانية اهتمامًا بالغًا، و من هنا عرفنا أن التصوف هو حل وحيد لهذه المشاكل.

اللهم اجعلنا من المتصوفين المخلصين.

مجلة شهرية دينية روحية

خضر راه

تصدر باللغة الأردية السهلة
أكادمية الشاه صفي، الجامعة العارفية، الله آباد، الهند
ثمن النسخة ـ/ ٢٥ روبية
بدل الاشتراك السنوي ـ/ ٣٠٠ روبية للهند
لخارج البلد ـ/ ٤٠ دولارا أمريكيا

[1] قضايا ساخنة للبوطي، ص: ٢٧٨.

التجربة الصوفية

في ضوء الدين والعقل والعلم

إعداد: أ / د جمال رجب سيدبي [1]

التجربة الصوفية في الإسلام تجربة ثرية، تجربة تنفذ إلى الحقائق الباطنية عيورا بعلوم الظاهر، وميدان التصوف الرشيد هوالميدان البكرالتي تحتاجه الحياة الروحية في الإسلام.

يوم أن تهجّم المسلمون لعلوم الحقائق، ولعالم الروح الطليق، كانماكان من شقوة وآلام، إن التجربة الصوفية تنبع من المعاناة والمعايش، وليس من خلال رؤية نظرية ينطلق صاحبها بقصدالتنظير واستخراج النظريات، ومن ثم تضطرب الرؤى، وتبتى استنتاجات لم يقصدها العارف أوالولي.

إن التجربة الصوفية، كما أشار إليها الأكابرمن الصوفية تذوق وتحقق، وما لم يعش المريد في بطون التصوف لم يعرف عن الحقيقة فبدأ غلة، فبعيدا عن النظرالعقلي الفلسفي الذي يقف عند حدود البرهان العقلي فحسب، وبعيدا عن الجدل والمحاجة عند علماء الكلام يأتي علم التصوف ليوازن بين العقل والروحي تناغم أصيل، وهذه هي التجربة التي عاناها الغزالي في تجربته الروحية مرورا بعلم الكلام ونقدالفلسفة وانتهى به المطاف إلى لغة الذوق والوجدان لغة البصيرة، لغة الوصول إلى المعاني الجلية وراء الحقيقة أو اتساق علم الظاهر مع الباطن. وعندما وقف المسلمون عند حدود الظاهر فقط، أو فقه الجوارح فقط، لم يتنسموا عمق العبادة ولذة الطاعة! ولذلك فقد أكد الجنيد في ثنايا رسائله على ضرورة التمسك بعلوم الظاهر والباطن، بل قد بدأ حياته عالما بعلوم الظاهر وترقى في مدارج السالكين إلى علوم الباطن وأبدع لنا بعد ذلك رسائله وهو مواجده وبلغة عميقة تحتاج إلى نفس صافية كي تصل إلى الفكرة في قاعها الخصب، ولقد من الله علينا بتحقيق ودراسة أعماله منذ أكثر من عشرين عاماخلت-ولله الحمد والمنة- وأعتقد أن الإمام الجنيد مازال في حاجة إلى دراسات، ودراسات نقد أثرت مدرسة الروحية في اللاحقين أمثال مدرسة أبي حامد الغزالي في القديم، ومدرسة الشاذلي فيما بعد.

---

[1] نائب رئيس جامعة السويس السابق.

ويجدربنا أن نشير إلى أن لغة الصوفي تختلف في مراميها عن اللغة العادية، فاللغة الصوفية تعبر عن رموز وإشارات ودلالات تحتاج إلى كشف مكنونها، وليس الوقوف عند المعنى الظاهري لأن الصوفي أوالعارف يعبر عن مواجيده وأحواله بلغة خاصة تختلف من مشرب صوفي عن آخر وإن الجميع يغترفون من معين واحد، أو من مشكاة أنوار النبوة! ولكل منهم مشربه ومسلكه ولهذا صاح الغزالي في شعره بقوله:

فكان ماكان ممن لست أذكره فظن خيرا ولا نسأل عن الخبر

فاللغة العادية لم تعد تصلح لنقل تجربته إلى الآخرين، ولعل مسألة اللغة عند بعض العارفين أو الأولياء الكبار قد أثارت إشكالا في تلقيها عند بعض الدارسين مثل لغة محيي الدين ابن عربي وخياله الخصيب، لأنه كان يتحدث عن علوم الأسرار وما أجلها من علوم.

وقد فرق الصوفية تفرقة انتفع بها الغزالي واستغلها إلى أقصى حد بين نوعين من العلم الذي يكتسب عن طريق العقل وإعمال الفكر، وهذا يخصونه باسم "العلم" فإن أطلق اللفظ من غير تقييد انصرف إليه، والآخرالعلم الذي يدرك بطريق أشبه بالإلهام ويلقى في القلب إلقاء، ولايدرى كنهه ولامصدره، ولايمكن تفسيره أو تعليله وهوالعمل الذوقي أوالمعرفة، كما فرقوا بين العالم والعارف وأطلقوا اسم العارف على الصوفي دون غيره، ومن أصبحت المعرفة غاية وهدفا يسعى إليه الصوفي، وأصبحت الطريقة الصوفية بما فيها من مجاهدة ورياضة نفس وسيلة لا غاية نفسها، لتحصيل المعرفة بالحقائق واليأس مما في أيدي الناس، يدريك بذلك إدراك الحقائق الإلهية بواسطة الكشف والزهد فيما أيدي الناس من متاع الدنيا.[1]

ولّما كان التصوف الرشيد يعتمد على مجاهدة النفس وتصفية القلب والمداومة على الذكر والإكثار في النوافل فقد تحدث للولي كرامة، كما حدثت للنبي معجزة، ولكن الولي الحقيقي لا يسعى سعياً وراءالكرامة، فأساس زبدة الطريق الاستقامة علي منهج الله من أجل الفوز بالسعادة في الدارين الدنيا و آخرة، ولمن أراد الكرامة فعليه بالاستقامة، والولي الحقيقيلايغترببعض الكرامات التي تصادفهأثناء الطريقفي رحلة الوصول إلي الله، بل غالباً ما يكون حذراً من ذكرها، وربما أشار إلى بعض مريديه أو خاصة خاصته من أرباب الطريقة، وفي هذا المضمار ذهب بعض المريدين في المبالغة والتهويل في ذكر كرامة شيوخهم مما صرف العامة من هذاالطريق، وإن كنا نعتقد أن الكرامة الحقيقي كما يقول العلماء الاستقامة على منهج الله سبحانه وتعالى قولا وفعلا وتحقيقا وسلوكا، وغاية الصوفي أن الكرامة الحقيقة هي التخلق بأخلاق الله والنبي صلى الله عليه وسلم، والنبي الخاتم والرسول المجتبى عندما سمع (فاستقم كما أمرت) قال: «شيبتنى هود وخواتها»؛

[1] الإمام الجنيد "الأعمال الكاملة"دراسة تحقيق وتقديم، د. جمال رجب سيد بى، الهية المصرية العامة للكتاب(٢٠١٠)

لأنه تلقى الآية على قدره صلى الله عليه وسلم، فالنبي صلى الله عليه وسلم تلقى القرآن على قدره في سموه و علوه، وكذلك الولي في تلقيه للقرآن على قدره أيضاً، وهكذا تتسلسل المعرفة الروحية حتى تصل إلى المريد الذي يتلقي عن شيخه الأنوار المحمدية، كي توصله إلى الحضرة الإلهية، وكل على قدر حاله ومجاهداته، ولا يعرف إلا من ذاق وعرف أوعرف واغترف من معين الحب الإلهي، ومن ثم في هذه الحالة كلما اتسعت الرؤية، كما يقول الإمام النفرى: ضاقة العبارة، فبعض الواصلين يعبر بلغة إشارية، والبعض الأخر يصبه ما يسمى بالشطح و في هذا يقولون: «الشطح مزلة أقدام الرجال».[1]

و في كلام الصوفية (عن الشطح) ما قد يؤثر على نظر العامة في نظرتهم إلى التجربة الصوفية، وإن كان بعض العارفين يلجئون إلى تأويل مثل هذه اللحظة الخاطفة أو البارقة التي يهذي فيها الصوفي بهذا الكلام! ونتوقف هنا عن مقالة أبي يزيد البسطامي "سبحاني سبحاني" وسئل أحد الأولياء عن قول أبى يزيد البسطامي "سبحاني سبحاني" فقال رضى الله عنه:«إنه لأسيادنا الصوفية العارفين عبارات ظاهرها كفر، وباطنها عين المعرفة الصحيحة»، وقد قالوا:«حرام على من ليس مثلنا أن يقرأ كتبنا» وذلك لعدم إدراكهم معاني العبارات وبواطنها، فقول أبي يزيد"سبحانيسبحاني"ليس المراد أنه يتنزه نفسه إذ أن التنزيه الحق لله، ولكن أبا يزيد كان فى جلسة مع ربه ينزه سبحانه فسمع النداء من ربه بلا كيف ولا انحصار أفي عيب حتى تنزهني؟ فما أحجم على الفور وأخذ فقال:"سبحاني سبحاني"يعنى أنا المعيب وحاشاك أن يكون فيك عيب.[2]

إذن فالحكم بالكفر يجب أن يكون طبقا لما جاءت به الشريعة وليس طبقا لأهواء النفوس أو فلتات الخواطروالسان، وأول ما يقتضيه ذلك أن نسأل المرء في حقيقة ما نسب إليه من قول أو فعل، فإن كان الفاعل أو القائل غائبا عنا غيابا كليا، كأن يكون قد مات، ثم تصرعلى أن نصدر حكما على قوله أو فعله فلا أقل من أن نكون منصفين، فندقق فى معنى الفعل أو القول، ثم نقلبه على وجوه الإيمان قبل الكفرفلعل وجها منهايحتمله،ثم علينا بعد ذلك أن ننظرفيما أثرعن الرجل حال حياته،فإن كان حال علم وتقوى ومعرفة وإيمان وصلاح فلنتق الله وحذرا ثم حذرا أن نظلمه فنأتى بظلامتنا يوم القيامة، فإذا نحن وجدنا وجها من وجوه الإيمان لقوله أو فعله حملناه عليه، وإن لم نجد ظننا بأنفسناخيرا فقلنا لعله دسّ عليه أو لعلنا لم نفهم حقيقة ما يعنيه، ثم وكلنا أمره إلى ربه الذى صار ذلك الرجل فى كنفه وجواره.

[1] د. أبو العلاء عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢ص.٢٤

[2] الشيخ سليمان سامي محمود :الحب الإلهي. ص ١٧٨

إن الذي حدث لأبي يزيد هوأشبه عما حدث للرجل الذي ضربه مثلا النبي صلى الله عليه وسلم لفرح الله تبارك وتعالى بتوبة عبده، إذ نام الرجل خلال سفره وعند رأسه راحلته، وعليها طعامه وشرابه، فلما استيقظ لم يجدها،فالتمسها في كل مكان دون جدوي،فعاد به اليأس إلى مكانه الأول وقال لنفسه: أنام حتى الموت،فلما استيقظ من بعد ذلك وجد راحلتهعندرأسه وعليهاطعامه وشرابه، فقال: «اللهم لك الحمدفأنت عبدي وأنا ربك»، وياله من مثال رائع! ذلك الذي يصور رسول الله صلي الله عليه وسلم فرح الله بتوبه عبده. فيكون ماحدث لولي الله الصالح الذي نحن بصدد الحديث عن شطحته، أن الله تبارك وتعالى قد تجلى مرآة قلبه حين استغراقه في الذكر تجليا أدهش القلب، واختل منه توازن العقل، فارتج على لسانه فلم يدر ماهو قائل؟ فقال في دهشته: "سبحاني سبحاني، ماأعظم شأني" وهو يريد أنه يقول:«سبحانك سبحانك، ماأعظم شأنك».ولكنه أخطأ لشدة مافجأه من هجمات تجلى ذي الجلال في مرآة قلبه، ومايعاقب الله عبدا لمثل هذا الخطأ الذي لايعنيه، وهو يعلم أنه يعني الصواب لا الخطأ، فالرسول صلوات الله عليه يقول: «رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ومااستكرهوا عليه»والدليل الأكبر علي صحة مانقول: إن هذا الولي الصالح لم يقل ذلك إلا هي واحدة، وماعاد إليها بعد ذالك قط، ولوكان هذا حالا يدعيه لنفسه لأصرعليه، فقال له في غدوه ورواحه، ولكنه ماأثر عنه إلا كل خير من قبل ومن بعد.[1]

لقد ذابت قلوب الصوفية بين الفناء والبقاء في إشارات بالغة الدلالة عن هذه التجربة الروحية، فمن العارفين من يفني عن نفسه، ويتوحد مع الأنوارالإلهية، فكل صوفي يعيشحال الفناءعلى قدر تلقيه الأنوارالإلهية فمنهم من يثبت ويرجع إلى مقام البقاء، ومنهم من يعود من المحو إلى الصحو،أوالتمكين بعد التلوين، كتصوف الإمام الجنيد ومن هنا فاحت عبر مواجيد الصوفية وتأوهاتهم في محراب حب الإلهي المعاني السامقة التي يتملاها الصوفي على قدر طاقته الروحية، وذهب الذاهبون إلى تفسير إشارات ابن عربي ونعته بأنه من القائلين بوحدة الوجود، أو تهمة التكفير عند البعض، ويجدربي في هذا السياق الروحاني أن أطير على جناح السرعة إلى رسالة عظيمة، قليلة في مادتها، كبيرة في معانيها وفيوضاتها الروحية يتحدث في رسالته (شحية الكون)فيقول: عن الكون وكأنه شجرة، ويوضح الصلة بين الخالق أوالله والموجودات، فهو سبحانه وتعالى إنما أوجد العرش إظهارا لقدرته لا محلا لذاته، وأوجد الوجود لالحاجة له، وإنماهي إظهارا لأسمائه وصفاته، فإن من أسمائه:الغفور، ومنصفاته: المغفرة، ومن أسمائه: الرحيم، ومن صفاته: الرحمة، ومن أسمائه: الكريم، ومن صفاته: الكرم، فاختلفت أغصان هذه الشجرة وتنوعت ثمارها ليظهر سر

[1] المرجع السابق :ص.٤٧٠

مغفرته للمذنب، ورحمته للمحسن، وفضله للطائع وعدله للعاصي، ونعمته للمؤمن ونقمته على الكافر، فهو مقدس في وجوده عن ملامسة ماأوجده، ومجانبته ومفاصلته ومواصلته؛ لأنه كان ولا كون، وهوالآن كما كان، لا يتصل بكون، ولا ينفصل عنه كون؛ لأن الوصل والفصل من صفات الحدوث لا من صفات القدم؛ لأن الإتصال والإنفصال يلزم منهما الانتقال والارتحال والتحول والزوال والاستبدال، وهذا كله من صفات النقص لا من صفات الكمال، فسبحانه عما يقول الظالمون والجاحدون علوا كبيرا،[1] وهل بعد هذاالكلام كلام في أن ابن عربي كان هو حدا من طراز رفيع؟ وقد سبق أن أشرنا إلى شيئ من هذا في دراستنا السابقةعن التصوف.(٧)

وقد أثبت العلم الحديث بالدليل القاطع والمنهج العلمي حالة الفناءالتي يعانيها الصوفي،وفي هذاالصدد يذهب العالم الجليل الدكتور عمرو شريف بقوله: «أما نشوة السمو الصوفي الروحية فهي غير مادية وتعتمد علي مراكز عصبية عليها تقع في القشرة المخية الفص الأمامي ومناطق التربيط،وتكون مصحوبه بالشعور بغناء الذاتي، أما استخدام الألفاظ المشتركة للتعبير عن المشاعر في الحالتين فلا يعني إلا لجوءالصوفي إلى استخدام الاصطلاحات التي تصف أعلى قدر من النشوة».

وقد أثبتت الدراسات العلمية أن ما نشعر به من نور وحي يرجع إلي وظائف أمخاخنا العليا التي تؤدي إلى الشعور بالذاتية تنحسر أو تذوب أو تختفي من الوعي ولو لوهلة، وقد استخدمت التقنيات الحديثة وتحديد أي مناطق الدماغ تبدوا في العمل وأي منها يتوقف خلال لحظات يشعر فيها البعض؛ بأنهم موجودون خارج إطار الزمان والمكان وبأنهم يواجهون العالم المقدس.

ويمضي عالمنا الجليل الدكتور عمرو قدما في جلاء هذه الحقيقة بقوله: «إن ماعرضناه قد أظهر عددا من الحقائق، وطرح العديد من التساؤلات التي تجعل من عوالم الغيب التي تنكشف للصوفيين دليلا علي أن مخ البشر قد أعد قصدا من أجل التواصل مع عوالم الغيب حقيقة، فما يعد دليلا صريحا علي الألوهية وعلي المصدر السماوي للأديان».(٨)

أظن لسنا في حاجة إلي التأكيد على شراء التجربة الصوفية؛ وأنها أوضحت حقيقة يقينية في ضوء الشرع والعمل والعلم، وإلي لقاء آخر بإذن الله، والله المستعان.

[1] ابن عربي: شجرة الكون.

أثر التصوف السلوكى في تحسين الأخلاق

إعداد: الشيخ محمد يحيي الكتاني [1]

أخرج الطبرانى فى الكبيرعن أبى عنبة الخولاني ـ قيل صحابى وقيل ولد فى عهد النبى ولم يره، وقال البيهقى إسناده حسن ـ عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم «إ ن لله تعالى فى أرضه آنية وإن آنية الله فى أرضه قلوب عباده الصالحين وأحبها إليه ألينها وأرقها»، فإن القلوب إذا لانت رقت، فإذا ما رقت انجلت، فإذا ما انجلت صفت، فإذا صفت شفت، فإذا شفت أشرقت عليها أنوار الملكوت فتنفتح عين البصيرة، ويلاحظ القلب نور الله، فإذا لاحظه صار محل نظر الله عز وجل، فيصير العبد من خاصة عباد الله الذين جاء ذكرهم فيما أخرج الإمام أحمد فى الزهد وابن المبارك فى الزهد عن عطاء بن يسار: «إن موسى سأل الله: من تؤويه فى ظل عرشك؟ قال هم الطاهرة قلوبهم، البريئة أبدانهم، الذين إذا ذكرت ذكروا بى وإذا ذكروا ذكرت بهم، الذين ينيبون إلى ذكرى ويغضبون لمحارمى ويكلفون بحبى "زاد ابن المبارك" الذين يعمرون مساجدى ويستغفروننى بالأسحار».

وصلاح القلوب هو مراد الله تعالى من خلقه ﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَّ لَا بَنُوْنَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ**﴾[الشعراء: ٨٨،٨٩].

ولا يكون صلاحها إلا بتزكيتها وتطهيرها وتعميرها بمحاسن الأخلاق، لما أن القلوب أنواع: قال السيد أحمد الرفاعى: القلوب أنواع: قلب يطير فى الدنيا حول الشهوات، وقلب يطير فى العقبى حول الكرامات، وقلب يطير فى سدرة المنتهى حول الأنس والمناجات؛ فقلب معلق بالدنيا، وقلب معلق بالعقبى، وقلب معلق بالمولى، وقلب حريق، وقلب غريق، وقلب سحيق، وقلب منتظر للعطاء، وقلب منتظر للرضاء، وقلب منتظر للقاء، وقلب مشروح، وقلب مجروح، وقلب مطروح، وقلب منيب وهو قلب

[1] خادم العلم بثغر الإسكندرية والمدرس بالجامع الأزهر الشريف، القاهرة.

آدم عليه السلام، وسليم وهو قلب إبراهيم عليه السلام، وقلب منير " كرسي عرشي فرشي وسع الحق والخلق" وهو قلب سيدنا محمدﷺ.[1]

(إن الله نظر إلى قلوب عباده فلم يجدقلبًا أطهر من قلب محمد ....)

وللعبادات أثر كبير فى تحسين الأخلاق توصلًا إلى تعمير القلوب وإصلاحها.

ماهى الأخلاق؟

قال الغزالى فى الإحياء: «الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معًا يقال :فلان حسن الخلق والخلق؛ أى حسن الباطن والظاهر، فيراد بالخلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخلق الصورة الباطنة؛ وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة أعظم قدرًا من الجسد المدرك بالبصر.

فالخلق عبارة عن هيئة فى النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير فكر وروية، فإن كانت الهيئة بحيث يصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلًا وشرعًا سميت تلك الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التى هى المصدر خلقًا سيئًا».

والأخلاق على ضربين:

فطرى، ومكتسب، وفى حديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأشج وفد عبد القيس: «إن فيك خصلتان يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة، قال: أجبلة جبلنى الله عليها أم تخلقًا منى؟ قال: بل جبلة؛ فقال: الحمد لله الذى جبلنى على ما أحبه الله ورسوله». وهذه قسمة الله تعالى فى خلقه؛ فقد جعلهم متفاوتين فى مراتب الأخلاق ودرجاتها، وقد أخرج أحمد والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الله تعالى قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم» ولا شك أن العلم والتهذيب والعبادات والذكر تمد من كان ذا حسنِ خُلُق واستقامة سلوك، وتزيده فضلًا.

وقد ذكر أهل العلم لاكتساب الأخلاق وتحسينها وسائل متعددة؛ منها:

١ـ التدريب العملى والرياضة النفسية ولو بتكليف الشرع الشريف و إليه الإشارة فى الأحاديث الشريفة؛ منها ما رواه البخارى ومسلم عن أبى سعيد الخدري أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله، فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده؛ فقال لهم حين أنفق كل شىء بيده «ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفه الله، ومن يستغن يغنه الله، ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطى أحد عطاء خيرًا وأوسعَ من الصبر».

(١) حالة أهل الحقيقة مع الله ص:١٧٤، ١٧٥.

٢ـ الصحبة الصالحة والبيئة الطيبة؛ قال تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

٣ـ القدوة الحسنة، وقد جعلها الإسلام وسيلة لترقية المجتمعات المسلمة فى سُلَّم الكمالات السلوكية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب٢١].

٤ـ وأما العبادات عامة والذكر خاصة فالإكسير الذى عليه المعول؛ فإن الله تعالى ربط العبادات بغايات أخلاقية؛ فالصلاة التي هي أهم الأركان في الإسلام بعد توحيد الله تعالى نجد أنها من أعظم وسائل تزكية النفوس ﴿اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾[العنكبوت:٤٥].

قال الطاهر بن عاشور: «عَلَّلَ الْأَمْرَ بِإِقَامَةِ الصَّلَاةِ بِالْإِشَارَةِ إِلَى مَا فِيهَا مِنَ الصَّلَاحِ النَّفْسَانِيِّ فَقَالَ: " إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ "، فَمَوْقِعُ إِنَّ هُنَا مَوْقِعُ فَاءِ التَّعْلِيلِ، وفِعْلَ تَنْهى مُسْتَعْمَلٌ فِي مَعْنًى مَجَازِيٍّ بِعَلَاقَةٍ أَوْ مُشَابَهَةٍ. وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ الصَّلَاةَ تُيَسِّرُ لِلْمُصَلِّي تَرْكَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ. وَلَيْسَ الْمَعْنَى أَنَّ الصَّلَاةَ صَارِفَةُ الْمُصَلِّي عَنْ أَنْ يَرْتَكِبَ الْفَحْشَاءَ وَالْمُنْكَرَ فَإِنَّ الْمُشَاهَدَ يُخَالِفُهُ إِذْ كَمْ مِنْ مُصَلٍّ يُقِيمُ صَلَاتَهُ وَيَقْتَرِفُ بَعْضَ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ..... وَفِي الصَّلَاةِ أَفْعَالٌ هِيَ خُضُوعٌ وَتَذَلُّلٌ للَّهِ تَعَالَى مِنْ قِيَامٍ وَرُكُوعٍ وَسُجُودٍ وَذَلِكَ يُذَكِّرُ بِلُزُومِ اجْتِلَابِ مَرْضَاتِهِ وَالتَّبَاعُدِ عَنْ سَخَطِهِ. وَكُلُّ ذَلِكَ مِمَّا يَصُدُّ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ».

وَفِي الصَّلَاةِ أَعْمَالٌ قَلْبِيَّةٌ مِنْ نِيَّةٍ وَاسْتِعْدَادٍ لِلْوُقُوفِ بَيْنَ يَدَيْ اللهِ وَذَلِكَ يُذَكِّرُ بِأَنَّ الْمَعْبُودَ جَدِيرٌ بِأَنْ تُمْتَثَلَ أَوَامِرُهُ وَتُجْتَنَبَ نَوَاهِيهِ.

فَكَانَتِ الصَّلَاةُ بِمَجْمُوعِهَا كَالْوَاعِظِ النَّاهِي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، فَإِنَّ اللهَ قَالَ تَنْهى عَنِ الْفَحْشاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَمْ يَقُلْ تَصُدُّ وَتَحُولُ وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا يَقْتَضِي صَرْفَ الْمُصَلِّي عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

ثُمَّ النَّاسُ فِي الِانْتِهَاءِ مُتَفَاوِتُونَ، وَهَذَا الْمَعْنَى مِنَ النَّهْيِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ هُوَ مِنْ حِكْمَةِ جَعْلِ الصَّلَوَاتِ مُوَزَّعَةً عَلَى أَوْقَاتٍ مِنَ النَّهَارِ وَاللَّيْلِ لِيَتَجَدَّدَ التَّذْكِيرُ وَتَتَعَاقَبَ الْمَوَاعِظُ، وَبِمِقْدَارِ تَكَرُّرِ ذَلِكَ تَزْدَادُ خَوَاطِرُ التَّقْوَى فِي النُّفُوسِ وَتَتَبَاعَدُ النَّفْسُ مِنَ الْعِصْيَانِ حَتَّى تَصِيرَ التَّقْوَى مَلَكَةً لَهَا. وَوَرَاءَ ذَلِكَ خَاصِّيَّةٌ إِلَهِيَّةٌ جَعَلَهَا اللهُ فِي الصَّلَاةِ يَكُونُ بِهَا تَيْسِيرُ الِانْتِهَاءِ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ.

رَوَى أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ وَالْبَيْهَقِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيءِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ، فَقَالَ: سَيَنْهَاهُ مَا تَقُولُ» أَيْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ.

والصيام من غاياته العظمى تحقيق التقوى، كما قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة:١٨٣]، ولا تتم التقوى عند العبد إلا

إذا حسن خلقه مع تقوى الله تعالى؛ ولهذا جمع النبي صلى الله عليه وسلم بين الوصية بالتقوى والوصية بحسن الخلق حين قال: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»؛ وذلك لأن بعض الناس يظن أنه بإحسانه عبادة الله يمكنه أن يتخلى عن المعاملة الكريمة الحسنة مع الخلق؛ فوجههم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة الجمع بين تقوى الله وحسن الخلق.

والزكاة كذلك هي عبادة وفريضة وهي أيضًا وسيلة من أعظم وسائل تطهير النفس من البخل والشح والأنانية، وزرع معاني الفضيلة والألفة والرحمة والشفقة؛ ولهذا قال الله عز وجل: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا**﴾[التوبة:١٠٣].

أما الحج وهو الركن الخامس من أركان الإسلام فإننا نرى له أثرًا عجيبًا في إصلاح الأخلاق وتهذيب السلوك كيف لا! والله عز وجل يقول: ﴿**ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ**﴾[البقرة:١٩٧].

ولو ذهبنا إلى استقصاء آثار كل عبادة على حدة لطال بنا الوقت؛ ولنقف فى هذه السويعة على أم العبادات عماد الدين وهى الصلاة، ولنقتصر على لمحات من كلام العارفين فهم فرسان هذا الميدان.

١ـ الصلاة مرتع الأرواح فإن الصلاة ضيافةٌ رحمانية، استضافَك سبحانَه فيها وهيَّأ لك فيها أنواع التُّحَف والتكريمات، فاعقِل عنه أسرارَ شرعِه، ولا يكن همك النظرُ للجُدُران والرسوم؛ ﴿**فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ**﴾[الماعون:٥].

والصلاة علاجٌ رباني يشفي الجوارح مما أماتها من روائح المخالفات، فلا تقف بين يدي ربها – سبحانه– وهي مجروحةٌ بما اكتسَبَتْه، ولذلك تقدَّمَ الوضوءُ أمام الصلاة؛ فهو صِقالٌ ومِكنسةٌ عِنائيةٌ توقِفُك مَواقِف الأبطال، الصلاة شفيعٌ في الأرض، الصلاةُ والصُّفوف هنا كالحَشْر في تلك الدار ﴿**يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ**﴾[الحاقة:١٨]﴿**وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا**﴾[الكهف:٤٨]، ﴿**تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ**﴾[البقرة:٢٧٣].

والصلاة مناجاة و المصلي يناجي ربَّهُ، وكل لطيفة من اللطائف الإنسانية لها مناجاةٌ بحَسَبها، وقد قال لسان الحق المبين عن الله: «أرِحنا بها يا بلال»، وهى تكسب المصليَ أنوارًا روحانيةً يستعينُ بها على تحَمُّل النكَبات والوقائع الدهرية، فما صَبر مَن صَبرَ إلا بما عاد عليه مِن بَركات الصلاة، ولذلك كانت قرينةَ الصبْرِ فى قوله تعالى: ﴿**وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ**﴾[البقرة:٤٥]، وما جَزعَ إلا مَن لم تنهَهُ صلاتُه؛ ولذلك لم

تزدْهُ مِن الله إلا بُعدًا. فالصلاة مَرْهَمٌ مَلَكوتيٌّ تُعالَجُ به القوَّى الإنسانية وإذا استفحلت غوائل هذه القوى عالجتها الصلاة وفى الحديث الشريف «كان صلى الله عليه وآله وسلم إذا حَزَبَهُ أمر؛ فَزِعَ إلى الصلاة».

والصلاةُ معراجُ المومن، وصَيْقل للروح مما أصابَها مِن صدَأ مُحاوَرةِ الأكدار، ومِرآةٌ تنطبعُ فيها صورُ هدايا الحق سبحانه لك، ومُفارقةٌ للرسوم الكونية، ومحوٌ للنقوش الغَيْرِيَّة، وإلباسٌ للحظايا الوَدودية، وإعلامٌ بما لَك عنده مع إعراضِك وعصيانك ومُزهدةٌ في المُفارَقات، ومُشَوِّقةٌ للذات الجنات، ومقويةٌ لفنون المشاهدات، وهاديةٌ لأنواع المناجاة، وفاتحةٌ لأبواب الولايات، ومانحةٌ أسرارَ المواجهات، وخُلوةٌ بعرائس الدُّنو والاقترابات، ﴿وَ اسْجُدْ وَ اقْتَرِبْ﴾[العلق:١٩].

وأما الذكر (فضله) «ألا أدلكم على ما يمحو الله به الخطايا ...».

وحقيقة الذكر عند ساداتنا الصوفية أن تنسى المذكور فى الذكر؛ لقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَّبَّكَ اِذَا نَسِيْتَ﴾ [الكهف:٢٤] يعنى إذا نسيت ما دون الله فقد ذكرت الله، وقال النبي صلى لله عليه وآله وسلم: «سبق المفردون، قيل ومن المفردون؟ فقال: ﴿وَ الذّٰكِرِيْنَ اللّٰهَ كَثِيْرًا وَّ الذّٰكِرٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥] والمفرد: الذى ليس معه غيره».[1] ﴿فَاذْكُرُوْنِيْٓ اَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة:١٥٢] والذكر مراتب:

١ـ أول مراتب الذكر: هو الحالي؛ وهو: التيقظُ لمواقع النعم والآلاء الربانية: ﴿فَاذْكُرُوْٓا اٰلَآءَ اللّٰهِ﴾ [الأعراف:٦٩].

٢ ـ ثم الذكر الاعتباري؛ وهو: استعمالُ كل جارحة فيما خُلقَتْ لأجله.

٣ـ ثم الذكر اللساني: ذكرتك لأني نسيتك لمحة وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى.

٤ـ ثم الذكر النفساني؛ وهو: استحلاء الطاعات.

٥ـ ثم الذكر العقلي؛ وهو: تصفُّحُ وُجوه الكائنات لمُطالعة معاني حُسنِها المِرآتي الظاهرة فيه عُكوساتُ ظِلال الأسماء.

٦ـ ثم الذكر الروحي؛ وهو: الجوَلانُ بفضاء الملكوت العام لايزال بين ولوج وعُروج وتَطوافٍ في علم تنزُّلات البروج.

٧ـ ثم الذكر القلبي؛ وهو: أن لا تكون في القلب ربَّانيةٌ لغيره. ثم الذكر الخفيُّ؛ وهو: بِلا ذِكرٍ ولا فكر، ولا رسوم. ولا تتَسوَّرُ على محراب متعبَّدِه الحفظةُ.

---

[1] التعرف ص:٩٧.

وهو جلاء القلوب فلا تزال الحجب ترتفع حتى يصل لمقام المشاهدة وهي المغناطيس الجذاب للتحليات والتجليات، وأهله هم الملحوظون بعيون العناية فى العالم وهم محل نظره تعالى من خلقه.

وهم أمان لنا فى الأرض وبهم يدفع الله البلاء عن أهل الأرض وإذا نظر الله إليهم سكن غضبه، وفى الخبر: «إنى أهم بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى عمار بيوتى وقراء القرآن وولدان الإسلام فيسكن غضبي»

ولا يزال الذكر بالعبد حتى يصير ربانيًا تذكر رؤيته بالله تعالى وهم الأولياء «الذين إذا رؤوا ذكر الله».

ولاشك أن كثيرًا من الناس يشكو عدم حصول الأثر المرجو له من العبادة والذكر حتى تكدرت علينا حياتنا وذلك لعدم حضورنا مع الله تعالى بالخضوع والخشوع وإخلاص والغفلة عن متابعة السنة المحمدية الشريفة، فما وقع مشكل فى شأن من شئوننا الدينية والدنيوية إلا من غفلتنا عن متابعة المعصوم قولًا وفعلًا، وما جاءنا الخلاف بين قلوبنا إلا من عدم سدنا الخلل فى الصفوف؛ لما فى الحديث: «لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم»، وما حصل الغل فى القلوب إلا بسبب عدم المصافحة المذهبة للغل؛ فقد روى مالك فى موطئه «تصافحوا يذهب الغل وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء»؛ فالمصافحة السنية طب إلهى مذهب للضغائن والأحقاد.

وما من شيء يقطع عن الخير مثلَ ظلام المعاصي والمخالفات، وارتكاب النواهي الإلهية؛ فإنه بذلك تنسحب سرادقات من الظلام على المدركات الحسية والمعنوية، وتنسد المجاري التي يصل منها النور والعلم والعرفان، والخشية والمراقبة، والحضور والمعاينة، ويبقى العبد شاغرًا من النور والتوفيق، فلا يذوق لذة للعبادة، ولا حلاوة للطاعة، ولا يدرك معنى ولا أسرارًا للتعبُّدات التشريعية، بل يظل ينتقل من كون إلى كون، ومن واد إلى واد.

غير أن هناك أمورًا تعين العبد السالك إلى الله تعالى على اجتناء ثمرات العبادة والذكر، خاصة حصول الأثر منها على سلوكه وتحسين أخلاقه، ومن أهمها:

ملاحظة النور النبوي والبرزخية المحمدية واستحضار صورته فى الباطن حتى تستحكم فيه فيحفظ الباطن من الأكدار والأغيار ويحصل الأثر من العبادات مع استحضار مجالسته؛ لأنه صلى الله عليه وسلم جليس من صلى عليه مع التأكيد على الارتباط به فى كل الأحوال؛ لأنه الصراط المستقيم؛ قال تعالى: ﴿اِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[الفاتحة:٦]، قال أبو العالية والحسن البصرى: هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه عليه الصلاة والسلام (على صراط مستقيم) ويهدى إلى الصراط المستقيم﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:٥٢] فصح أن يكون هو الصراط المستقيم بهذا الاعتبار.

وآيات القرآن تربط الخلق به صلى الله عليه وآله وسلم مفصحة عن أنه السبب فى كل خير وأنه النعمة العظمى على بنى آدم وأنه مراد الله من العالم؛ قال تعالى: ﴿يَعۡرِفُوۡنَ نعمت اللّٰهِ ثُمَّ يُنۡكِرُوۡنَهَا﴾[النحل:٨٣] قال سيدنا عليٌّ عليه السلام: هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال بعض أهل العلم فى قوله تعالى ﴿وَاذۡكُرُوۡا نِعۡمَتَ اللّٰهِ عَلَيۡكُمۡ﴾ [آل عمران:١٠٣]: أى اذكروا محمدًا ﷺ ﴿اِذۡ كُنۡتُمۡ اَعۡدَآءً فَاَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوۡبِكُمۡ﴾[آل عمران:١٠٣] أى بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ﴿فَاَصۡبَحۡتُمۡ بِنِعۡمَتِهٖۤ اِخۡوَانًا﴾[آل عمران:١٠٣] أى بمحمد ﷺ.

وقال نافع بن الأزرق: سألت ابن عباس أخبرنى عن قوله تعالى: ﴿وَكُنۡتُمۡ عَلٰى شَفَا حُفۡرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَاَنۡقَذَكُمۡ مِّنۡهَا﴾ [آل عمران:103] قال: أنقذكم بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال الإمام الباقرفي قوله تعالى"ثم لتسألن يومئذ عن النعيم": النعيم هو محمد ﷺ.

بل ذكر القاضى عياض فى الشفا عن بعض تفسير قوله تعالى ﴿اَلَا بِذِكۡرِ اللّٰهِ تَطۡمَئِنُّ الۡقُلُوۡبُ﴾ [الرعد:٢٨] قال: ذِكْرُ الله، محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وما ذلك كله إلا لأنه ﷺ الواسطة العظمى فى وصول الكمالات إلينا الدينية والدنيوية، قال تعالى: ﴿ وَ الَّذِيۡنَ اٰمَنُوۡا وَ عَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ وَ اٰمَنُوۡا بِمَا نُزِّلَ عَلٰى مُحَمَّدٍ وَّ هُوَ الۡحَقُّ مِنۡ رَّبِّهِمۡ ۙ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّاٰتِهِمۡ وَ اَصۡلَحَ بَالَهُمۡ﴾[محمد:٢] فصلاح البال مكفول لمن دخل تحت قباب سيدنا محمد ﷺ.

وربما نسمع من ينكر الواسطة محتجًا بقوله تعالى: "وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ..." مدعيًا أن جواب الشرط خلا من "قل" لأنه لا واسطة بين الله وبين خلقه، نعم لا واسطة بمعنى المعبود من دون الله، ولكن الواسطة بمعنى السبب فهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

١ـ إدراك معانى الأحكام وفقه أسرار الشريعة وقال الإمام الكتانى: وإنما أتى على الخلق من جريان الأعمال على اللسان فقط وعلى الجوارح الظاهرة، وعدم تعقل معانيها وتفقهها الفقه النافع الذى هو الاطلاع على أسرار الشارع فى كل جزئية وكلية أمر بها، فبهذا يعظم موقع الشرع الكريم فى القلوب، وبعدمه يأخذه الإنسان أحكامًا مجردة وأقوالًا تعبدية، فلا يجد لها لذة ولا طعمًا ولا ذوقًا، ولا يحصل له ترق بسبب أخذها، كذلك "ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم".

وكان سيدنا علي عليه السلام إذا حضرت الصلاة يتزلزل ويرتعد بدنه ويتلون، فقيل له ما لك يا أمير المؤمنين؟ فقال: «جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها وأشفقن منها».

وكان الإمام زين العابدين إذا توضأ للصلاة تغير لونه وارتعد، فقيل له، فقال: «أتدرون على من أدخل، وبين يدى من أقف، ولمن أخاطب، وما يرد عليّ، فهذا حضور مع الله نشأ من الفقه عن الله عزوجل».

وإن جميع أسرار الشرع كلها يفقهها العلماء بالله تعالى، وليس عندهم شيء لا يعقل ولا يفقه، ولكن قديمًا قالوا: إذا عجز النحوى عن التعليل، قال هكذا: سمع، وإذا عجز الفقيه عن العلة والحكمة قال هذا تعبدى أمرنا الشارع به ولم يطلعنا على حكمته.(الرسائل ص:١٤١)

بل ذكر صلى الله عليه وعلى آله وسلم: أن من أوصاف الخوارج جريان الأعمال التعبدية على جوارحهم دون أن يعقلوا معانيها أو يستحضروا فقهها أو يتأثروا بأنوارها، وإنما مجرد جريان الأعمال منهم بحيث يحقر أحدنا صلاته إلى صلاتهم وصيامه إلى صيامهم غير أنه لا أثر للعبادات فى أخلاقهم وسلوكهم، ولذلك قال الإمام الشاطبى فى الاعتصام: «ألا ترى أن الخوارج كيف خرجوا عن الدين كما يخرج السهم من الصيد المرمى؛ لأن رسول الله ﷺ وصفهم بأنهم "يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم" يعنى أنهم لا يتفقهون به حتى يصل إلى قلوبهم؛ لأن الفهم راجع إلى القلب، فإذا لم يصل إلى القلب لم يحصل فيه فهم».

ومثل هذا الحديث ما رواه البزار فى مسنده وحسنه الهيثمى فى مجمع الزوائد وابن حبان فى صحيحه وأبو يعلى وقال ابن كثير عن سنده: إسناده جيد، عن حذيفة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن ما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن حتى رئيت عليه بهجته وكان ردءًا للإسلام غيره إلى ما شاء الله، فانسلخ منه ونبذه وراء ظهره، وسعى على جاره بالسيف ورماه بالشرك، قال: قالت يا نبي الله أيهما أولى بالشرك المرمى أم الرامى؟ قال: بل الرامى». (الشرح)

وقال الشيخ زكريا الأنصارى رحمه الله تعالى:

«الفقيه الذى لا يعرف التصوف كالخبز بلا إدام»

وليس مراده عندى سوى الفقه عن الله تعالى ومعرفة أسرار الشريعة، والوقوف على الحكمة الإلهية فى التشريع.

ولا شك أن ذلك كله يجعل العبد يجتنب الرذائل والمعاصى عن كشف وبصيرة، وتتمحور أخلاقه حول الهدى النبوى والشمائل النبوية والأخلاق المصطفوية.

ومن أمتع ما ذكر فى هذا الباب ما ذكر عن الإمام بن أبى جمرة، كان الشيخ عبد الله بن أبي جمرة دفين المقطم بالقاهرة من كبار العارفين من أهل الله وضريحه المبارك الآن أمام ضريح سيدنا الشيخ ابن عطاء الله

السكندري، وكان له تلميذ هو الشيخ محمد العبدري الفاسي المالكي الشهير بابن الحاج "صاحب كتاب المدخل" يقول ابن الحاج: «وقدجاء شيخه يومًا فقال: يا مولانا إن الناس يسيئون الظن بالفقهاء أصحاب العلم الظاهر يقولون: إن الفقهاء إذا أرادوا أن يحرِّموا شيئًا حرموه، وإذا أرادوا أن يحلوا شيئًا أحلُّوه، ويقولون: لو أن رجلًا وجد في الأرض درهمًا مكتوبًا عليه بقلم القدرة: من أخذ هذا الدرهم دخل النار لتركه كل الناس، وأخذه واحد من الفقهاء وقال هذا إذا كان سينفقه في حرام، أما إذا أنفقه في حلال فلا بأس. فقال الشيخ ابن أبي جمرة: لا يا ولدي! إنما الصواب أن يقال لو وجد رجل درهماً نزل من السماء مكتوبًا عليه بقلم القدرة: من أخذ هذا الدرهم دخل الجنة، الصواب أن لا يأخذه ، قال له ولماذا يا سيدي لا يأخذه؟ قال: لأن في أخذه شغلٌ لذمَّته والأصل براءة الذمة».

٢_ ومما يعين على حصول أثر العبادة والذكر، الاحتراس من تشتيت الخواطر وتوزيع الهمة حتى يتمكن العبد من جمعية قلبه على الله تعالى، وقد رأينا مولانا صلى الله عليه وآله وسلم كيف كان يحترس من تشتيت الخواطر وتوزيعه الهمة عندما صلى بخميصة لها أعلام فقال: «اذهبوا بخميصتى إلى أبى جهم وائتونى بأنبجانية أبى جهم فإن تصاويرها تعرض لي في صلاتي» فهذا مَثَلٌ ضربه صلى الله عليه وآله وسلم مثلًا للموجودات لترتاض وتحترس وتحرص على وحدة الوقت وحدة الصفاء والمناجاة، لتذوق لذة العبادات والقربات.

ولا يظنّ ظان أنه صلى الله عليه وآله وسلم تؤثر فيه صور الكائنات سواء العلوية أو السفلية، حاشاه وقد زفت له الحقائق العلوية ليلة الإسراء، ومع ذلك وصفه الله تعالى بقوله: ﴿ **مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ**﴾[النجم:١٨].

ومن هذا المعنى أيضًا قوله صلى الله عليه وآله وسلم: "من توضأ فأحسن الوضوء ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه بشيء غفر له ما تقدم من ذنبه .." رواه الشيخان وما ذلك إلا لحفظ الخواطر وجمع الهمة على الله تعالى.

٣_ لِيكُن قصدُك مِن العبادات: الامتثال، لا الالتذاذ بنتائج الأعمال، فتكون عبادتُك –في الحقيقة– لحظِّ نفسك لا لحقِّ ربك، بل تكونُ عبادتُك لربِّك تبَعًا لا أصْلا، وخسِرَتْ صفقةُ مَن هذه شِنشِنتُه.

فشتان بين مَن يخدُم الملِكَ لِنوالِه، ومَن يخدُمُه لكماله وعن شهود جَماله.

فإذا أتقن ا لعبد هذه الأبواب واحترس من غوائل النفس تحقق بمحاسن الأخلاق.

نحو تصوف إسلامي رشيد

إعداد: الدكتور: صلاح محمود العادلي[1]

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد...

فمن خلال حديث جبريل المشهور الذى رواه البخاري ومسلم وغيرهما الذى بين أن الدين يتكون من: (أ- إسلام، ب- إيمان، ج- إحسان)؛ «إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكمأقبل العلماء على تجلية الدين وبيان أحكامه فى هذه الجوانب الثلاثة:

١. فتناول علماء الشريعة: "الإسلام".

٢ .وعلماء العقيدة:"الإيمان".

٣. وعلماء التصوف والسلوك:"الإحسان" وهو أعلاها رتبة.

وظل التصوف الصحيح علامة بارزة فى العلماء الربانيين ومن احتذى بهم من آحاد المسلمين، وصار علماء الأزهر ينسبون أنفسهم حتى وقتنا هذا إلى الطريق الصوفي الذى سلكه كل واحد منهم، فيقول – مثلاً– فى كتابه: (كتبه فلان: الأشعرى عقيدة، الشافعى مذهبًا، الشاذلى طريقة..).

لكن التصوف –كغيره– تعرض لمحاولات تعكر صفوه:

أ- "نظريًا": كما نجده لدى نفرمن المستشرقين ومن تابعهم ممن جعلوا التصوف عبارة عن نظريات وأقوال فلسفية مثل وحدة الوجود، والحلول والاتحاد، والفناء.

ب- و"عمليًا تطبيقيًا": كما نجده –عن عمد– لدى الدخلاء على التصوف، أوعن غفلة وجهل لدى الجهلاء، والذين حصروه في بعض المظاهر والرسوم، وما صحب ذلك من تواكل وتكاسل

[1] أستاذ مساعد العقيدة والفلسفة بجامعة الأزهر الشريف.

وسوء فهم وتطبيق، ونحاول هنا أن نوقف القارئ الكريم على التصوف الرشيد، وكشف زيف ما ألصقه به الأدعياء والدخلاء والمغرضون.

أولًا :التصوفالسنىالعملي

اطَّلعت على كنه مقاصدهم العلمية أوحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعليم والسماع، فظهر لي أن أخص خواصهم ما لايمكن الوصول إليه بالتعلم، بل بالذوق والحال، وتبدل الصفات.[1]

هكذا قال الإمام الغزالي عن التصوف العملي أو التصوف السني الذى سمى بذلك لمتابعته وموافقته هدي وحياة وسنة النبي -صلي الله عليه وسلم- وهو "عملي" أي نتاج أعمال وأحوال ومذاقات-وليس نظريات وأقوال وفلسفات— وهذا التصوف العملى مثل تصوف الحارث المحاسبي(١٧٠-٢٤٣هـ) والسري السقطي (١٦٠-٢٥١هـ) والجنيد (٢٢١-٢٩٧هـ) وأبى حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ) وأضرابهم.

المرادبالتصوفالسني:

التصوف السني:هوالذى يعنى بتحقيقالزهد الإيجابى وتهذيب النفس وتقويم السلوك وتربية الأفراد ورسم الطريق للخلق للوصول إلى معرفةالله تعالى معرفة حقيقية ؛ ينتج عنها الرغبة والرهبة فى طريق يتدرج خلاله السالك فى مقامات وأحوال من التوبة والورع والزهد والتوكل والمحبة والقرب والرضا، مستحضرًا هدى النبى وحركاته وسكناته وأوامره وتوجيهاته، وكذلك أفعاله وأحواله، واستحضار الحياة العملية الواقعية للصحابة الأكارم ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعيهم، فى سلاسل نورانية تحمل مشاعل الهداية والقدوة بأفعالها وأقوالها ورحمة قلوبها واستنارة عقولها وتواضعها وخفضها لجناحها —مع رفعتها- والأخذ بأيدى الخلق إلى طريق الحق.

أشهررجالهوأئمته:

أهل الصفة بالمسجد النبوي والذين كانوا أربعمائة أويزيدون، وغيرهم من أعلام الصحابة كأبى ذر الغفارى، وسلمان الفارسى، وعبدالله بن مسعود،ومن التابعين ومن تلاهم: الحسن البصري (ت١١٠هـ) ومالك بن دينار (ت ١٣١هـ) والسيدة رابعةالعداوية (ت ١٨٥هـ) وبشر الحافى (٢٢٧هـ) والحارث بن أسد المحاسبي (٢٤٣هـ)وابن أخته الإمام الجنيد(٢٩٧هـ)وأبى اليزيد البسطامي (ت ٢٦١هـ).

دورالقشيريوالغزاليفيالتصوفالسني:

وفى القرنين الخامس والسادس الهجريين نجد الإمام القشيري (ت٤٦٥هـ)وحجة الإسلام أبا حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ)اللذين كان لهما كبير الأثر فى نشرالتصوف السني العملي:

---

[1] المنقذ من الضلال لحجة الإسلام الغزالي ص٣٧٣.

١- فما قدمه القشيري رسالته المسماة "الرسالةالقشيرية" يقول في مقدمتها:«فعلقت هذه الرسالة إليكم أكرمكم الله، وذكرت فيها بعض شيوخ هذه الطريقة –طريقة التصوف-في آدابهم، وأخلاقهم ومعاملاتهم وعقائدهم بقلوبهم وما أشاروا إليه من مواجيدهم وكيفية ترقيهم من بدايتهم إلى نهايتهم».[١]

٢- ومما قدمه أبو حامد الغزالي تجربته العملية الفكرية السلوكية في كتابه (المنقذ من الضلال) يقول فيه:«أقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل عملهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة،وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى و تحليته بذكرالله تعالى»[٢]

التربيةوضرورةالتذوقوالعمل:

فالتصوف ليس عملًاعلميًا ولا بحثًا نظريًا، إنه لايتعلم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية بل أن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لايستعمل إلا كحافز مقو للتأمل، والإنسان لايصير بمجرد قراءته متصوفًا.[٣]

بل هوتجربة تصل بك إلى التذوق والصفاء والمشاهدة والوصول إلى سر الذات، وتحقيق الخلافة على الأرض، وسبيله: العلم والعبادة، فلا يغنى عنك فيه سواك.[٤]

وهذه التجربة يسلك فيها السالكطريق الزهد ومجاهدة النفس وملازمة الشيخ وطلب العلم والتدرج في المقامات والأحوال في جزئيات متعددة ومتنوعة تلتقى عند الغاية والهدف، وهو الوصول إلى الله تعالى.

معالمالتصوفالعملي(السني)وشواهدهمنالقرآنوالسنةوالمرادبه:

هو التصوف الموافق لسنة النبي– صلى الله عليه وسلم – ويتجه نحو العمل، ومجاهدة النفس، وتصفية القلب، والضرب في الحياة لتحصيل المعاش.

معالمالتصوفالسني:

يمكن إجمال معالم التصوف السني في ثلاثة أشياء:

١-صفاء القلب. ٢-الزهد في الدنيا. ٣-الإقبال على الله بالعبادة.

أولًا:-صفاءالقلب:

صفاء القلب أساس أصيل في الإسلام، وهو كذلك في التصوف؛قال تعالى:﴿**يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَّ لَا بَنُوْنَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللّٰهَ بِقَلْبٍ سَلِيْمٍ**﴾[الشعراء٨٨-٨٩] وقال رسول الله -صلي الله عليه وسلم-:«ألا وإن

(١) الرسالة القشيرية ص٢١.
(٢) المنقذ من الضلال ص٣٧٢.
(٣) من مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود لكتاب المنقذ من الضلال ص١١٧.
(٤) الخطاب : للشيخ محمد زكي الدين إبراهيم ص٧.

الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1] وفي الحديث الصحيح المشهور:«يطلع عليكم رجل من أهل الجنة، وكانت الصفة التي أوصلته إلى هذه المنزلة قول الرجل غير أني أبيت وليس فى قلبي غش لأحد»[2]، وابتدأ الإمام البخاري صحيحه -وغيره من الأئمة- بحديث:«إنما الأعمال بالنيات» إشارة إلى صفاء القلب وحسن توجهه إلى الله، وختمه بحديث: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلي الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»إشارة إلى أن تغذية القلب وإعانته على الصفاء إنما يكون بذكر الله تعالى.

ثانيًا:-الزهدفيالدنيا:

١- بين القرآن الكريم فى كثير من الآيات منزلة الدنيا بالقياس إلى الآخرة؛ من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلٰى كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾[الكهف:٤٥] وقوله تعالى:﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]وقوله تعالى:﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجٰرَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرّٰزِقِينَ﴾[الجمعة:١١].

٢- سنة الرسول العملية:- كلها تعبير عن الزهد والقناعة المستغنية؛ فمن الثابت المشهور أنه سيقت له الدنيا تحت قدميه من ملك، وجاه، ومال، وسلطان، وغنائم ومغانم فكان يوزعها كلها حتى نصيبه منها -صلى الله عليه وسلم- و لم يشبع من طعام قط، وكان يمكث الهلال تلو الهلال -أى شهرين-ليس فى بيته الكريم سوى الأسودان -التمر والماء- وتلقى عنه أصحابه الأماجد هذا الخلق الكريم، فكانت الدنيا فى أيديهم ولم تكن فى قلوبهم.

فأبو بكر الصديق يتصدق بماله كله، وحينما يسأله رسول الله:ماأبقيت لأهلك؟ يقول: أبقيت لهم الله ورسوله.

والفاروق عمرلما طلبت منه ابنته السيدة حفصة أن يلبس لين الثياب ويأكل طيب الطعام بعد أن اتسعت الأرزاق؛ فيذكرها ما كان يلقى رسول الله من شدة العيش وكذلك أبو بكر أفلا يكون على نفس الدرب؟!

وأما ذو النورين عثمان فتجهيزه لجيش العسرة وغيره من النفقات معلوم مشهور، وكان يعطى عطاء من لايخشى الفقر، ويدخل فى بيته فيأكل الخل والزيت.

والإمام علي كرم الله وجهه يقول وهو قائم يصلي في جنح الليل: «يادنيا غرى غيري»[3].

---

[1] جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه بسنده عن النعمان بن بشير.

[2] جزء من حديث أورده المنذري في " الترغيب والترهيب" عن أنس بن مالك ، وإسناده على شرط البخاري ومسلم

[3] يراجع : التصوف في الإسلام - منابعه وأطواره للشيخ محمد الصادق عرجون ص١٨-٢٢ ، ومشكلات التصوف المعاصر للدكتور سعد الدين السيد صالح ص٤٨-٤٩ ط٢ دار المعارف ١٩٩٣م.

وأخبارأهل الصفة وأحوالهم مشهورة، وأخبار الصحابة الآخرين متداولة مشهورة ومنثورة،حتى ليذكر الغزالي فى "الإحياء" قول الحسن البصري "١١٠ت" للجيل الذي لم يدرك الصحابة:«لقد أدركت أناسا-الصحابة- لو رأيتموهم لقلتم مجانين -أى من شدة اليقين والزهد والتوكل-».

ثالثًا:-الإقبال على الله بالعبادة:

فهذا شامل لجميع أنشطة الحياة، في الحركات والسكنات، في الليل والنهار، وفي اليقظة والمنام، يكون بجسده مع الأكوان وبقلبه وروحه وفكره مع الرحمن جل فى علاه، فالآية القرآنية الكريمة ﴿اِقْرَاْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِیْ خَلَقَ﴾[العلق:١]حينما تقيد العلم والثقافة بأن يكونا باسم الله،حينما تصبغ دراسةالكون بصبغة التوجه إلى الله، فإنما تضعنا مباشرة أمام توجيه إلهى واضح لا لبس فيه يرشدنا إلى وجوب إعطاء جميعالأعمال التى نقوم بها صورة العبادة،ذلك أن ماكان باسم الله فهو عبادة[١].

ولقد وصل الأمر به صلوات الله وسلامه عليه أن جعل الأكل والشرب والمشى عبادة..وهكذا أصبحت الحياة كلها حركة وسكونًا لله سبحانه؛فأصبحت الحياة كلها عبادة:﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِیْ وَنُسُكِیْ وَ مَحْیَایَ وَ مَمَاتِیْ لِلّٰهِ رَبِّ الْعٰلَمِیْنَ لَا شَرِیْكَ لَهٗ وَ بِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِیْنَ﴾[الأنعام:١٦١-١٦٢]تلك هى حياة الصوفية [٢] وذلك هو التصوفالسنى العملى الواقعى ..فماذا عن التصوف النظرى الفلسفى فبضدها تتميز الأشياء؟

ثانيًا:-التصوفالنظري"الفلسفي":

التصوف النظري الذى وإن جاء فى بعض أحواله نتيجة فكر ونظر وفهم صحيح لكنه لم يمر بالتجربة ولم يدخل حيز التطبيق، فكان قولًا صحيحًا فقط دون ممارسة وتطبيق له، مثل تصوف الفارابي وابن سينا،هو تصوف نظري،[٣]فإن كانت المسائل فيها بعض الغموض والتعمق والبعد عن الذهن والفهم الواضح سمي "بالتصوف الفلسفي"مثل نظرية الاتحاد والحلول ووحدة الوجود.[٤]

---

(١)من تقديم الدكتور عبد الحليم محمود للرسالة القشيرية ص٩.

(٢) السابق ص١٢ .

(٣) روى الشيخ أبو سعيد أبو الخير فى كتابه "أسرار التوحيد" : أن ابن سينا التقى به فى الخلوة لمدة ثلاثة أيام ،لايخرجان إلا لصلاة الجمعة،فلما انصرف ابن سينا سأله التلامذة:كيف وجدت الشيخ؟ قال:كل ما أعرفه أنا يراه هو،وسأل المريدون الشيخ: كيف وجدت أبا على -ابن سينا- فأجاب:كل مانراه نحن يعلمه هو بنظر: تاريخ التصوف فى الإسلام ترجمة صادق نشأت ج٢ص٦٦٦ ط مكتبة النهضة المصرية ١٩٧٠م نقلا من كتاب "سبحان الله" للدكتور كامل سعفان ص٢٢-٢٣ ط دار المعارف١٩٨٠م.

(٤)يرى الدكتور عبد الحليم محمود – رحمه الله – أنه ليس هناك تصوف فلسفى وآخر غير فلسفى،ويرى أن التصوف إما عملى يشتمل على التجربة والتذوق وسلوك الطريق،وإما نظرى وهو الذى يقتصر على الفهم الصحيح لقضايا التصوف لكن دون تجربة وسلوك الطريق كتصوف ابن سينا. ينظر التصوف عند ابن سينا للدكتور عبد الحليم محمودص١٦ ط مكتبة الأنجلو المصرية -مصر دت،لكننا نرى الكثرة من العلماء والمؤرخين تواضعوا على تسمية بعض النظريات المتعلقة بالنصوف ب"التصوف الفلسفى"؛ فابن خلدون قسم الحياة الروحية فى الإسلام إلى ثلاثة اقسام: الزهد – التصوف – التصوف الفلسفى ينظر: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور على سامى النشار ج٣ص٣٠ ، والإمام السيوطى فرّق بين التصوف العملى التربوى وبين التصوف الممزوج بموضوعات الفلسفة وكتب الدكتور أبو الوفا التفتازانى مقالًا يؤيد ذلك تنظر مجلة الإسلام والتصوف عددأول يولية ١٩٥٨م ص٨٩.

وغيرها من النظريات التي ركز المستشرقون عليها عند دراستهم للتصوف الإسلامي وتركوا التصوف السني العملي المصفى.

المراد بالتصوف الفلسفي:

التصوف الفلسفي هو خلط القضايا الصوفية بتعبيرات فلسفية وألفاظ غامضة ومبهمة، يتوهم سامعها معانى غير صحيحة، مثل الاتحاد والحلول، ووحدة الوجود،والفناء المؤدى إلى اتحاد الخالق بالمخلوق

بداية ظهور التصوف الفلسفي:

كان ذلك بداية من القرن الرابع الهجري وما تلاه إذ ظهرت ألفاظ وتعبيرات ومصطلحات أشكل فهمها، ونسبت إلى بعض الأئمة: كأبي منصور الحلاج "ت:٣٠٩هـ"، والسهروردي صاحب"حكمة الإشراق" المتوفي:٥٤٩هـ، والشيخ الأكبر محي الدين بن عربي"ت:٦٣٨هـ"، وعبد الحق بن سبعين المرسى "ت٦٦٩هـ" وغيرهم، وبالرغم من أنهم قدموا نظريات عميقة فى النفس والأخلاق والمعرفة والوجود والحب الإلهى لها قيمتها؛ نسب إلى بعضهم أقوال سميت باسم "التصوف الفلسفي".

موقف علماء الإسلام من التصوف الفلسفي:

١- الموقف الأول:يرفض تلك الشطحات. ٢- الموقف الثاني: يلتمس الأعذار.

و بيان ذلك:-

الموقف الأول:-رفض تلك الشطحات:

١- يقول الإمام الغزالي "ت:505هـ"فى هذا المقام عن خبرة وتجربة:

«وعلى الجملة ينتهى الأمر إلى قرب يكاد أن يتخيل منه طائفة:الحلول، وطائفة: الاتحاد،وطائفة: الوصول، وكل ذلك خطأ، بل الذي لابسته الحالة لاينبغى أن يزيد على أن يقول: وكان ماكان مما لست أذكره، فظن خيرًا ولا تسأل عن الخبر». [١]

٢- والأستاذ الإمام محمد عبده –رحمه الله–"ت:١٣٢٣هـ- ١٩٠٥م"؛من خلال سلوكه لطريق التصوف قال: «إن ما يحصل للصوفية من الأحوال غير الطبيعية لايجوز ذكره لغير العارف به، ولاتجوز كتابته بحال، ولو كنت ملكًا لحكمت بقتل الذين يكتبون ذلك لأنهم يفتنون كثيرًا من الناس ولايفيدون به أحدًا». [٢]

---

[١] المنقذ من الضلال للإمام الغزالى ص٣٧٨-٣٧٩.

[٢] تاريخ الأستاذ الإمام تأليف الشيخ محمد رشيد رضا ج١ ص١٠٦ ط أولى مطبعة المنار بمصر١٣٥٠هـ- ١٩٣١م، وينظر الجانب الصوفى فى حياة الإمام محمد عبده للدكتور خالد عبدالعال أحمد نصر.

بل إنّ صاحب الرسالة القشيرية الإمام القشيري لايذكر الحلاج ولو بكلمة واحدة،وكذلك أبوطالب المكي لم يتعرض لذكره فى كتابه "قوت القلوب".[1]

الموقف الثاني:-يلتمس الأعذار

فأصحاب هذا الموقف يلتمسون الأعذار وتوجد التأويلات والمخارج لمن وقع من الأئمة فى هذا الاتجاه، وذلك على النحو الآتى:-

١- إما بالقول بأنها كانت فى لحظات من السكر والذهول دون الصحو واليقظة،وبرغم ذلك هم مخطئون؛ لكنهم لايؤاخذون لأنهم فى حالة سكر أسقط التمييز، شأنهم شأن الغافل والمجنون.[2]

٢- إما بتفسيرها تفسيرًا يتسع لأخذ الكلام على أحسن محامله ووجوهه الممكنة فقالوا المراد به"وحدة الوجود" وحدة الشهود؛أى إن المشهود على الحقيقة هو الله تعالى[3]على حد قول الشاعر:

وفى كل شىء له آية ❋ تدل على أنه الواحد

وقالوا:إن "الاتحاد والحلول" مجاز عن اتحاد ذات المحبوب بذات المحب اتحادًا عقليًا مجازيًا –وليس حسيًا ماديًا- يوجب غفلة المحب عن الشعور بنفسه اشتغالًا عنها بشهود محبوبه، وهى حالة يسمونها "الفناء عن الفناء".

وهذا كلام ظاهر التكلف والبعد عن الواقع والفهم المتزن السديد.[4]

وقالوا: إن "الفناء" يراد به تحقيق الإخلاص لله تعالى،بأن تفنى إرادة الإنسان – نية كانت أو عزمًا ،خطرة أو فكرة- فى سبيل الله.[5]

حقيقة ما نسب إلى بعض أئمة التصوف:

يقول شيخ الأزهر الأسبق الدكتور عبدالحليم محمود-رحمه الله- وهو من أئمة التصوف السني المعاصرين المتخصصين عن هذه العبارات: «هذه الكلمات التى تناثرت هنا وهناك مخترعة مزيفة ضالة فى معناها،تافهة فى قيمتها الفلسفية،غريبة على الجو الإسلامى، تنادى بصورتها ومعناها:أنها اخترعت تضليلًا وافتئاتًا،إنها هذه الكلمات التى يعزونها إلى الحلاج-رضوان الله عليه-،أو إلى غيره،لاتوجد فى كتاب من كتبه،ولم يخطها قلمه،لقد اخترعوها اختراعًا ثم وضعوها أساسًا تدور عليه أحكامهم بالكفر والضلال،[6]

---

(١) قارن:مشكلات التصوف المعاصر للكتور سعد الدين السيد صالح "رحمه الله" ص ٧٤.

(٢) يراجع :الدعوى والشطح عند الصوفية للدكتور حبيب الله حسن أحمد ص٤٤-٤٦ ط مصر للخدمات العلمية٢٠٠٤م .

(٣) يراجع:مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود لكتاب المنقذ من الضلال تحت عنوان "وحدة الوجود"ص١٦٠،١٦١.

(٤) ينظر: التصوف الاسلامى أصوله ومحاذيره ص٤١.

(٥) ينظر:السيد أحمد البدوى للدكتور عبدالحليم محمودص٨ ط دارالمعارف١٩٩٣م.

(٦) مقدمة الدكتور عبد الحليم محمود للمنقذ من الضلال ص١٥٦،ويراجع كذلك نفي فضيلته لما نسب لأبى يزيد البسطامى فى كتابه "سلطان العارفين"

ويضيف -رحمه الله-: كما أنه لايحكم على هذه القمم الشامخة من أمثال الحلاج"ت:٣٠٩هـ"، وابن الفارض "ت٦٣٢هـ"،وابن عربى"ت:٦٣٨هـ"، من لم يبلغ مداهم أويقاربه[١] لأن :-

١- **الحلاج:** كان قوة جارفة،ومركزًا للجاذبية لايضارع،يلتف حوله الناس أينما حل،ويسيرون حوله أينما ارتحل،وكان يحب آل البيت ويحب رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.[٢]

٢- **ابن عربي:**سمى بحق "الشيخ الأكبر"، ولقد كان فى كتابه "الفتوحات المكية" مفسرا خيرا من كثير من المفسرين،وفقيها خيرا من كثير من الفقهاء،وشارحا للحديث خيرا من كثير من شراحه، وفتوحاته كنز من المعرفة لاينفدن، ومعين من العلم لاينضب،إنه رشفة من بحار رسول -صلى الله عليه وسلم-».[٣]

موقف المسلم من شطحات التصوف الفلسفي:

وعلى فرض ثبوت صحة نسبة تلك الشطحات إليهم؛ فإنناقول مع الشيخ محمد زكى إبراهيم -رحمه الله-"ت١٩٩٨م":

«إن أخطئوا فوزرهم على أنفسهم،ولانسأل عنهم،ولانؤاخذ بما اجترحوا "ولاتزر وازرة وزر أخرى" ولكننا نعتقد أنهم أرادوا الخير،وكانت لهم ظروف وصروف وملابسات أجبرتهم على الرمز والإشارة، أو إلى الإلغاز والتحجية، وما دامت أقوالهم تقبل التأويل الإيمانى -ولو من وجه واحد من مائة وجه آخر- فإننا نحمله على هذا الوجه المؤمنالواحد،بحسن الظن وبحكم العلم،وندع ماوراء ذلك لله وحده، وإنما قلنا ذلك لأننا نعتقد أن لكلام القوم مفاتيح لمستغلقات مترامية الأبعاد،فهى لخاصة الخاصة، فمالم تفهمهم على مرادهم اليقينى فلتدع لله أمرهم، واستغفر الله لنا ولهم،ونقول: لعلهم تأولوا،أواجتهدوا فأخطئوا».[٤]

إذا: لابد من التفرقة بين القول والقائل؛ فالقول قد يكون خطأ أو خطيئة،لكن قائله قد يكون بريئًا من نسبة القول إليه، أو يكون قاصدًا لمعنى آخر غير مافهم من قوله ونحو ذلك، على أن الأفضل الابتعاد عن مثل تلك الألفاظ والكلمات،والإتيان بالواضح والتركيز على مايفيد الجمهرة وعموم الناس، من أقرب طريق،وما يأخذ بالأيدى نحو العمل الصالح والخلق السنى والسلوك القويم.

وبالله تعالى التوفيق

---

[١] مقدمة المنقذ ص١٦٢.

[٢] الصفحة نفسها.

[٣] ينظر: السيد أحمد البدوى للدكتور عبد إلحليم محمود ص١٧.

[٤] الخطاب : للإمام الرائد الشيخ محمد زكى ابراهيم ص٢٩- ٣١ بتصرف.

التبرك بالنبى صلى الله عليه وسلم والصالحين

إعداد: أ . د. جمال فاروق دقاق. [1]

س: هل يجوز التبرك بآثار النبى صلى الله عليه وسلم، وآل بيته والصالحين؟ وهل التبرك بآثاره مخصوص بحياته صلى الله عليه وسلم؟

الجواب:

التبرك لغة: طلب البركة، والبركة هى النماء والزيادة. وتبركت به تيمنت به. قال الراغب الأصفهانى: "البركة ثبوت الخير الإلهى فى الشىء".

قال ابن منظور:((البركة النماء والزيادة، والتبريك الدعاء للإنسان أو غيره بالبركة، يقال:بركت عليه تبريكاً، أى قلت له بارك الله عليكم، و بارك الله الشىء، وبارك فيه وعليه،وضع فيه البركة، وطعام بريك، كأنه مبارك))[2]

والمسلم يعتقد أن الله سبحانه وتعالى هو مصدر البركة. وهو الذى يبارك الأشياء، ولا بركة ذاتية للمخلوقات؛ إنما البركة من الله لمن شاء أن يباركه.

والله سبحانه بحكمته يختارمنالأزمان ماييباركها، قال تعالى:﴿إِنَّا أَنْزَلْنٰهُ فِىْ لَيْلَةٍ مُّبٰرَكَةٍ إِنَّا كنَّا مُنْذِرِيْنَ﴾[الدخان:٣].

ويختار سبحانه من الأماكن ماييباركها،قال سبحانه:﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِيْنَ كانُوْا يُسْتَضْعَفُوْنَ مَشٰرِقَ الْأَرْضِ وَ مَغٰرِبَهَا الَّتِىْ بٰرَكنَا فِيْهَا﴾[الأعراف:١٣٧].

(١) عميد كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر الشريف.

(٢) لسان العرب،لابن منظور٥٠٣٩/١٠ .

قال تعالى:﴿سُبْحٰنَ الَّذِيٓ أَسْرٰى بِعَبْدِهٖ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِيْ بٰرَكْنَا حَوْلَهٗ لِنُرِيَهٗ مِنْ آيٰتِنَا ۭ إِنَّهٗ هُوَ السَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ﴾[الإسراء:١].

وقال سبحانه:﴿وَ نَجَّيْنٰهُ وَلُوْطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِيْ بٰرَكْنَا فِيْهَا لِلْعٰلَمِيْنَ﴾[الأنبياء:71].

وقد بارك البيت الحرام، فقال تعالى:﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُّضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِيْ بِبَكَّةَ مُبٰرَكًا وَّهُدًى لِّلْعٰلَمِيْنَ﴾[آل عمران:٩٦].

ويختار سبحانه من الأشخاص من يباركهم،فبارك الأنبياء وأهل بيتهم،قال تعالى:﴿قَالُوْٓا أَتَعْجَبِيْنَ مِنْ أَمْرِ اللّٰهِ رَحْمَتُ اللّٰهِ وَبَرَكٰتُهٗ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۭ إِنَّهٗ حَمِيْدٌ مَّجِيْدٌ﴾[هود:٧٣].وبارك أتباع الأنبياءومن تبعهم، قال تعالى:﴿قِيْلَ يٰنُوْحُ اهْبِطْ بِسَلٰمٍ مِّنَّا وَ بَرَكٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلٰٓى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَّعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيْمٌ﴾[هود:٤٨]. وأثبت سبحانه أن أنبياءه عليهم السلام يصطحبون بركتهم أينما ذهبوا، فقال سبحانه: ﴿وَّ جَعَلَنِيْ مُبٰرَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ۪ وَ أَوْصٰنِيْ بِالصَّلٰوةِ وَ الزَّكٰوةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾[مريم:٣١] ويبارك الله المومنين المتبعين لمنهج الله،فيقول سبحانه:﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرٰٓى آمَنُوْا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلٰكِنْ كَذَّبُوْا فَأَخَذْنٰهُمْ بِمَا كَانُوْا يَكْسِبُوْنَ﴾[الأعراف:٩٦]. ويبارك الله الأقوال، فبارك كلامه سبحانه، قال تعالى:﴿وَهٰذَا ذِكْرٌ مُّبٰرَكٌ أَنْزَلْنٰهُ أَفَأَنْتُمْ لَهٗ مُنْكِرُوْنَ﴾[الأنبياء:٥٠].وبارك تحية المومنين: ﴿فَسَلِّمُوْا عَلٰٓى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللّٰهِ مُبٰرَكَةً طَيِّبَةً كَذٰلِكَ يُبَيِّنُ اللّٰهُ لَكُمُ الْآيٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُوْنَ﴾[النور:٦١]. ويستحب للمؤمن أن يلتمس بركة هذه الجهات التى ثبتت بركتها من عند الله سبحانه وتعالى، فيستحب للمؤمن التبرك بالنبى – ﷺ – وآثاره،وقد ثبت ذلك التبرك من صحابة سيدنا رسول الله ﷺ بحضرته الشريفة، ولم ينكر عليهم بل ورد عنه ﷺ إجابته بالتبريك لهم وعليهم.

أخرج البخارى بسنده عن عروة عن المسور وغيره يصدق كل واحد منهما صاحبه:«وإذا توضأ النبى – ﷺ – كادوا يقتتلون على وضوئه».(١)

وفي حديث صلح الحديبية في البخاري من حديث المسور بن مخرمة،بعد رجوع عروة بن مسعود إلى قريش: فرجع عروة إلى أصحابه،فقال أى قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر، وكسرى، والنجاشي، والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد ﷺ محمدا، والله! إن تنخّم نخامة إلا وقعت فى كف رجل منهم فدَلَك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون

(١) رواه البخارى فى صحيحه ١/٨١.

على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، ومايحدون إليه النظر تعظيماً له، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها.[1] وقد صح عنه – ﷺ – أنه كان:يؤتى بالصبيان فيبرك عليهم ويحنكهم.[2]

وعن أسماء:أنها حملت بعبد الله بن الزبير بمكةقالت:«فخرجت وأنا متم، فأتيت المدينة، فنزلت بقباء، فولدته بقباء، ثم أتيت رسول الله ﷺ، فوضعه فى حجره، ثم دعا بتمرة فمضغها،ثم تفل فى فيه،فكان أول شىء دخل جوفه ريق رسول الله ﷺ، ثم حنكه بالتمرة، ثم دعا له وبرك عليه، وكان أول مولود ولد فى الإسلام».[3]

وكانت أسماء بنت أبى بكر تقول للحجاج: «إن النبى – ﷺ – احتجم فدفع دمه إلى ابنى –تقصد عبد الله بن الزبير– فشربه فأتاه جبريل عليه السلام، فأخبره، فقال:ماصنعت؟ قال:كرهت أن أصب دمك، فقال النبي –ﷺ – : لاتمسك النار ومسح على رأسه، وقال:ويل للناس منك وويل لك من الناس».[4]

عن عميرة بنت مسعود رضى الله عنها: «أنها دخلت على النبي–ﷺ– هى وأخواتها يبايعنه وهن خمس، فوجدنه وهو يأكل قديدًا، فمضغ لهن قديدة، ثم ناولنى القديدة، فمضغتها كل واحدة منهن قطعة، فلقين الله وماوجدن لأفواههن خلوفًا».[5]

هذا مايخص التبرك بآثار النبي – ﷺ – فى حياته،وأما التبرك بآثار الصالحين، فقد ورد عن النبي ﷺ أنه تبرك بآثار أيدى المسلمين، فعن ابن عمر رضى الله عنه قال: «قيل:يارسول الله،الوضوء من جر مجمر أحب إليك أم من المطاهر؟ قال: لا بل من المطاهر إن دين الله الحنيفة السمحة، قال: وكان رسول الله ﷺ : يبعث إلى المطاهر فيؤتى بالماء فيشربه أو قال:فيشرب يرجو بركة أيدى المسلمين»[6].

عن حسان بن إبراهيم الكرمانى عن عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن ابن عمر قال:«قلت: يارسول الله، الوضوء من جر جديد مخمر أحب إليك، أم من المطاهر؟ قال:لا بل من المطاهر، إن دين الله يسر، الحنيفة السمحة». قال: فذكره، وقال: لم يروه عن عبد العزيز إلا حسان، قلت: وهو مختلف فيه والأكثرون على توثيقه، والذى يترجح عندى أنه وسط حسن الحديث، ولاسيما وقد خرج له البخارى فى"صحيحه"، وقال الحافظ: "صدوق يخطىء" والحديث قال الهيثمي(١/ ٢١٤): رواه الطبرانى فى

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (١/١٤٧) واللفظ له، ومسلم فى صحيحه (١/٣٤٠)

(٢) رواه مسلم فى صحيحه (١/٢٣٧) ط الحلبى

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣/١٤٢٢) ومسلم فى صحيحه (٣/١٤٩١) واللفظ له

(٤) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/٣٨)، والدارقطنى فى سننه (١/٢٢٨) واللفظ له، وذكره السيوطى فى الخصائص الكبرى (١/١٧١)، وأبو نعيم فى حلية الأولياء (١/٣٣)

(٥) رواه الطبرانى فى الكبير (٢٤/١٤٨) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٢/٧٠)

(٦) رواه الطبرانى فى الأوسط (٢/٣٠٥)، وفى الكبير (١١/١٤٨)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/٣٠٩)، وأبونعيم فى حلية الأولياء (٨/٢٠٣) قال الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٥/١٤٥) وأخرجه الطبرانى فى الأوسط (ص ٣٥) وأبونعيم فى الحلية (٨/٢٠٣)

"الأوسط"، ورجاله موثقون، وعبد العزيز بن أبي راود ثقة ينسب إلى الإرجاء، قلت: (واحتج به مسلم، وإرجاؤه لايضر حديثه كما هو مقرر فى مصطلح الحديث).

كما أن أدلة هذا الباب هى نفس أحاديث التبرك بآثار النبى - ﷺ -، ذلك لأن أصل عدم اختصاص تلك البركة بالنبى ﷺ وإن كانت مقامها من النبى ﷺ أعلى، وهذا مافهمه كبار شراح السنة النبوية المطهرة كالنووى وابن حجر- رحمهما الله- وغيرهما.

قال الإمام النووى - رحمه الله- عقب حديث الاستشفاء بجبة رسول الله ﷺ:«وفى هذا الحديث دليل على استحباب التبرك بآثار الصالحين وثيابهم».[1]

وقال عليه رحمة الله: قوله: «فخرج بلال بوضوء؛ فمن نائل بعد ذلك وناضح تبركاً بآثاره ﷺ»،وقد جاء مبيناً فى الحديث الآخر: «فرأيت الناس يأخذون من فضل وضوئه، ففيه التبرك بآثار الصالحين واستعمال فضل طهورهم وطعامهم وشرابهم ولباسهم».[2]

وقال كذلك الإمام النووى: «وفى هذا الحديث فوائد منها: تحنيك المولود عند ولادته وهو سنة بالإجماع كما سبق، ومنها أن يحنكه صالح من رجل أو امرأة، ومنها التبرك بآثار الصالحين وريقهم وكل شىء منهم».[3]

وقال رحمه الله:«أما أحكام الباب ففيه استحباب تحنيك المولود،وفيه التبرك بأهل الصلاح والفضل، وفيه استحباب حمل الأطفال إلى أهل الفضل للتبرك بهم،وسواء فى هذا الاستحباب المولود فى حال ولادته وبعدها».[4]

وقال فى باب قربه صلى الله عليه وسلم من الناس وتبركهم به وتواضعه لهم:«وفيه التبرك بآثار الصالحين، وبيان ما كانت الصحابة عليه من التبرك بآثاره - ﷺ -، وتبركهم بإدخال يده الكريمة فى الآنية، وتبركهم بشعره الكريم، وإكرامهم إياه أن يقع شىء منه إلا فى يد رجل سبق إليه»[5].

قال ابن حجر عقب حديث صلاته - ﷺ - لعتبان بن مالك فى بيته ليتخذ هذا الموضع مصلى له «وفيه التبرك بالمواضع التى صلى فيها النبي ﷺ أو وطيئها، ويستفاد منه أن من دعى من الصالحين ليتبرك به أنه يجيب إذا أمن الفتنة».[6]

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/٤٤)
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/٤٤)
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/١٢٤)
(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/١٩٤)
(٥) شرح النووي على صحيح مسلم (١٥/٨٢)
(٦) شرح النووى على صحيح مسلم (٤/٢١٩)

قال الحافظ عقب حديث الرجل الذى طلب البردة من النبي ﷺ ولامه أصحابه على ذلك:«وفيه جواز استحسان الإنسان مايراه على غيره من الملابس وغيرها، إما ليعرفه قدرها، وإما ليعرّض له بطلبه منه حيث يسوغ له ذلك، وفيه مشروعية الإنكار عند مخالفة الأدب ظاهرًا وإن لم يبلغ المنكر درجة التحريم، وفيه التبرك بآثار الصالحين».[1]

وقال رحمه الله:«قيل: الحكمة فى تأخير الإزار معه إلى أن يفرغ من الغسل ولم يناولهن إياه أولاً ليكون قريب العهد من جسده الكريم، حتى لايكون بين انتقاله من جسدهإلى جسدها فاصل، وهو أصل فى التبرك بآثار الصالحين، وفيه جواز تكفين المرأة فى ثوب الرجل،وسيأتى الكلام عليه فى باب مفرد».[2]

وقال الحافظ -رحمه الله- في حديث اللديغ: «وفى الحديث التبرك بالرجل الصالح وسائر أعضائه وخصوصاً اليد اليمنى».[3]

وقال فى حديث آخر: «وفيه استعمال آثار الصالحين ولباس ملابسهم على جهة التبرك والتيمن بها».[4]

وقد بوب الحافظ ابن حبان فى "صحيحه" باباً بعنوان: «باب ذكر مايستحب للمرء التبرك بالصالحين وأشباههم» وأورد تحته حديث« أخبرنا أحمد بن علي بن المثنى، قال: حدثنا أبو كريب، قال: حدثنا أبو أسامة عن بريد بن عبد الله عن أبى بردة عن أبي موسى قال: كنت عند رسول الله، نازلاً بالجعرانة، بين مكة والمدينة، ومعه بلال، فأتى رسول الله - ﷺ - رجل أعرابى، فقال: ألاتنجز لى يامحمد ما وعدتنى؟ فقال له رسول الله: «أبشر» فقال له الأعرابي: لقد أكثرت علي من البشرى، قال: فأقبل رسول الله على أبى موسى وبلال كهيئة الغضبان، فقال: «إن هذا قد رد البشرى فاقبلا أنتما» فقالا: قبلنا يارسول الله، قال: فدعا رسول الله بقدح فيه ماء ثم قال لهما «اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما أو نحوركما» فأخذا القدح ففعلا ما أمرهما به رسول الله، فنادتنا أم سلمة من وراء الستر، أن أفضِلا لأمكما فى إنائكما، فأفضلا لها منه طائفة».[5]

مما يشير إلى أنهم كانوا يستدلون بآحاديث التبرك بآثار النبى - ﷺ - على جواز التبرك بالصالحين، وقد ورد عن الإمام أحمد بن حنبل أنه تبرك بجبة يحيى بن يحيى نقل ذلك ابن مفلح، حيث قال: قال المروزى فى كتاب الورع:«سمعت أبا عبد الله يقول: قد كان يحيى بن يحيى أوصى لى بجبته فجاءنى بها

(١) فتح البارى (٣/١٤٤)
(٢) فتح البارى (٣/١٢٩)
(٣) فتح البارى (١٠/١٩٨)
(٤) فتح البارى (١٠/١٩٨)
(٥) صحيح ابن حبان (٢/٣١٧)

ابنه، فقال لي: فقلت رجل صالح قد أطاع الله فيها أتبرك بها»[1].

أما عن مسألة التبرك بالنبى -صلى الله عليه وسلم- وآثاره بعد انتقاله الشريف إلى ربه، فلم يفرق المسلمون بين التبرك به-ﷺ- وبآثاره الشريفة قبل انتقاله إلى ربه، وبعد انتقاله، فثبت عن كثير من الصحابة والسلف التبرك بآثاره بعد انتقاله إلى ربه سبحانه وتعالى:حينما حضرت عمر بن العزيز الوفاة، دعا بشعرمن شعر النبي -ﷺ- وأظفارمن أظفاره ،وقال: «إذا مت فخذوا الشعر والأظفار ثم اجعلوه فى كفني»[2].

عن سهل فى حديث المرأة التى قالت للنبي - ﷺ - «أعوذ بالله منك وهى لاتعرفه وفيه: فأقبل رسول الله ﷺ يومئذ حتى جلس فى سقيفة بنى ساعدة هو وأصحابه، ثم قال: اسقنا لسهل قال: فأخرجت لهم هذا القدح، فأسقيتهم فيه.قال أبو حازم: فأخرج لنا سهل ذلك القدح فشربنا فيه، قال: ثم استوهبه بعد ذلك عمر ابن عبد العزيز فوهبه له».[3]

قال النووي عقب هذا الحديث: «هذا فيه التبرك بآثار النبي - ﷺ - وما مسه أو لبسه أو كان منه فيه سبب، وهذا نحو ما أجمعوا عليه وأطبق السلف و الخلف عليه من التبرك بالصلاة فى مصلى رسول الله - ﷺ - فى الروضة الكريمة، ودخول الغار الذى دخله - ﷺ - وغير ذلك، من هذا إعطاؤه - ﷺ - أبا طلحة شعره ليقسمه بين الناس، وإعطاؤه - ﷺ - حقوة لتكفن فيه بنته رضى الله عنها، وجعله الجريدتين على القبرين، وجمعت بنت ملحان عرقه - ﷺ - ، وتمسحوا بوضوئه - ﷺ -، ودلكوا وجوههم بنخامته ، ـ ﷺ ـ وأشباه هذه كثيرة مشهورة فى الصحيح ، وكل ذلك واضح لاشك فيه».[4]

عن أسماء بنت أبى بكر-رضى الله عنها-: «أنها أخرجت جبة طيالسة كسرانية لها لبنة ديباج وفرجيها مكفوفين بالديباج، فقالت: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت، فلما قبضت قبضتها،وكان النبي ـ ﷺ ـ يلبسها، فنحن نغسلها للمرضى يستشفى بها».[5]

عن سهل بن سعد قال: «جاءت امرأة إلى النبي -ﷺ- ببردة، فقال سهل للقوم: أتدرون ما البردة؟ فقال القوم:هى شملة فقال سهل: هى شملة منسوجة فيها حاشيتها، فقالت: يارسول الله أكسوك هذه فأخذها النبى - ﷺ- محتاجاً إليها، فلبسها، فرآها عليه رجل من الصحابة، فقال: يا رسول الله، ما أحسن

(١) الآداب الشرعية لابن مفلح (٢/٢٣٥)

(٢) الطبقات: ترجمة عمر بن عبد العزيز (٥/٣٠٦)

(٣) رواه الترمذى فى سننه (٤/٣٠٦)، وابن ماجه فى سننه (٢/ ١١٣٢)

(٤) شرح النووى على صحيح مسلم (١٣/١٧٩،١٧٨) ط دار احياء التراث العربى

(٥) رواه مسلم فى صحيحه (٣/١٦٤١)

هذه! فاكسنيها، فقال: نعم، فلما قام النبي -ﷺ- لامه أصحابه، قالوا: ما أحسنت حين رأيت النبى -ﷺ- أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها، وقد عرفت أنه لايسأل شيئاً فيمنع، فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي - ﷺ - لعلى أكفن فيها»[1] وهو لايعلم إذا كان موته قبل انتقال النبي - ﷺ - أو بعده، ولم ينكر عليه الصحابة الكرام.

قال الإمام الذهبي: «وقد كان ثابت البنانى إذا رأى أنس بن مالك أخذ يده فقبلها ويقول:يد مست يد رسول الله - ﷺ -،فنقول: إذا فاتنا ذلك حجر معظم بمنزله يمين الله في الأرض مسته شفتا رأه - ﷺ - لاثما له، فإذا فاتك الحج، وتلقيت الوفد، فالتزم الحاج، وقبل فمه، وقل: فم مس بالتقبيل حجراً قبله خليلى - ﷺ -».[2]

وقال الإمام الذهبى أيضاً: «أخبرنا أحمد بن عبد المنعم، غيرمرة، أنا أبوجعفر الصيدلأنى كتابة أنا أبو على الحداد حضوراً أنا أبو نعيم الحافظ، أنا عبد الله بن جعفر ، ثنا محمد بن عاصم،أنا أبو أسامةعن عبيد بن نافع عن ابن عمر:أنه كان يكره مس قبر النبى - ﷺ-».

قلت: كره ذلك لأنه رآه إساء ة أدب، وقد سئل أحمد بن حنبل عن مس القبر النبوى وتقبيله،«فلم ير بذلك بأساً» رواه عنه ولده عبد الله بن أحمد.

فإن قيل: فهلا فعل ذلك الصحابة؟ قيل: لأنهم عاينوه حياً، وتملوا به، وقبلوا يده، وكادوا يقتتلون على وضوئه، واقتسموا شعره المطهر يوم الحج الأكبر، وكان إذا تنخم لاتكاد نخامته تقع فى يد رجل فيدلك بها وجهه، ونحن لما لم يصح لنا مثل هذا النصيب الأوفر ترامينا على قبره بالالتزام والتبجيل والاستلام والتقبيل [3].

مما ذكر من الآيات القرآنية، والآحاديث النبووية، والنقل عن الأئمة الأعلام من أئمة أهل السنة والجماعة، يتأكد لنا جواز التبرك بآثار النبى - ﷺ- وآل بيته، ولافرق فى ذلك بين حياته وانتقاله لربه، وكذلك جواز التبرك بآثار الصالحين لافرق فى ذلك بين حياتهم ومماتهم ، والله تعالى أعلم .

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥/٢٢٥٤)

(٢) سير أعلام النبلاء، ٤٤٣

(٣) معجم الشيوخ للذهبى (١/٧٣،٧٤)

شبهات حول البيعة الصوفية

دراسة علمية

إعداد: ذيشان أحمد المصباحي[1]

من المعلوم أن البيعة الصوفية بطريق خاص منذ قرون ماضية مقبولة بين الخاصة والعامة من المسلمين من غير رد ولانكير، وهي اليوم أيضا طريق أهل السنة والجماعة في البلاد والأمصار الإسلامية شرقاً وغرباً، ومنهج السادات الصوفية وأصحاب الطرق الروحانية عرباً وعجماً.

ومن المعلوم أن السادات الصوفية لهم فرق وطبقات ومناهج ودرجات، منهم الصوفية الصافية الخالية من المنكرات الظاهرة والكدورات الباطنة، ومنهم المتصوفة الصادقة الطالبة للحق تعالى ورضاه الخائفة سخطه وعذابه الملتزمة بالسلوك الصوفي الروحاني الموصل إلى الله تعالى، ومنهم المستصوفة الهالكة المهلكة، الذين هم قطاع الطريق الحق، لا علاقة لهم بالدين فضلًا عن التصوف، وليس لهم إلا كلمة قد اشتقت من مادة «ص و ف».

ومن المعلوم أن التصوف له رحلات وأدوار، فقد مر عليه زمان وهو كان بدون اسمه وقد وصل إلينا في زمان لم يبق منه إلا اسمه إلا ما شاء الله تعالى، وبينهما أدوار كثيرة، منها زمان بداية التصوف اصطلاحاً، ومنها زمان تربية النفوس للدين والتقوى، ومنها زمان إقامة الزوايا والمراكز الصوفية، ومنها زمان اتصال التصوف بالفلسفة، ومنها زمان تركيز المتصوفة على الأوراد والأشغال، ثم على الرسوم والمعاملات، ثم على البدعات والخرافات وغير ذلك من أدوار التصوف.

وبالنظر إلى هذه الطبقات والرحلات قد اختلف المسلمون في التصوف وأصبح لهم عنه مواقف ومطالب، وللناس فيما يعشقون مذاهب، فلم يزل التصوف يواجه الإصلاحات والانتقادات من بداية اصطلاح التصوف والصوفي، وكان المصلحون الأوائل هم الصوفية الصافية أنفسهم، وربما انتقد عليه من لم

(١) أستاذ بالجامعة العارفية.

يكن له علاقة بالتصوف وفهم عميق بالدين، ومن أشهر ناقديه وربما أكبرهم العلامة ابن تيمية الحراني، الذي حمل لواء التكفير ضد الصوفية الأكابر والمشايخ الأماثل مثل ابن سبعين وابن العربي والتلمساني وغيرهم قدس الله تعالى أرواحهم وأفاض علينا من بركاتهم، وكان الشيخ ابن تيمية مع تكفير الصوفية الفلاسفة وإنكار التصوف الفلسفى يعظم تعظيما بالغا الصوفية المتقدمين الذين شيدوا طرقهم بالكتاب والسنة ولم يخلطوا زهدهم بالكلام والفلسفة مثل المحاسبي والجنيد والجيلي رحمهم الله تعالى رحمة واسعة.

والأسف كل الأسف على أذناب ابن تيمية الجدد المتجددين الذين يردون التصوف كلية ويسمونه شجرة عجمية غرست في أرض الإسلام الطاهرة، وهم يستمدون لجميع ما يقولون من مؤلفات ابن تيمية مع الزيادة في النتيجة من رد التصوف كله، فليس عندهم في النقد أصالة وفي الجرح إصابة، ومن سماتهم الظاهرة خاصة في الهند رد التقليد وتسميته كفراً وشركاً، ومن العجب كل العجب أنهم المقلدون بمعنى الكلمة لابن تيمية وبعض أتباعه المتأخرين بل بعض الفقهاء السعوديين المعاصرين، ومن انتقاداتهم المشهورة الرد على البيعة الصوفية رداً شنيعاً.

وهنا نقدم بعض شبهاتهم حول البيعة الصوفية ثم نحللها تحليلًا علمياً ونجيب عنها ونرد عليها بتوفيق الله تعالى، وهذه هي الشبهات وجدتها في مختلف الكتب والجرائد والصحف هنا وهناك:

١. إن البيعة في الإسلام هي بيعة الإطاعة، وليست ببيعة التوبة المروجة في حلقات الصوفية، وبالنظر إلى هذا فالبيعة الصوفية هي بدعة، لا علاقة لها بالسنة، ومن المعلوم أن التزكية والتربية الإسلامية الروحانية لن تتم عن طريق البدعة، وقد قال عليه السلام: « كل بدعة ضلالة».

٢. لم تكن البيعة في زمن الرسول عليه السلام إلا بيعة واحدة، هي بيعة الطاعة والتسليم، فتقسيمها إلى بيعة الإرادة والتبرك وغير ذلك إحداث في الدين، والإحداث في الدين ممنوع ومحظور بلا خلاف.

٣. ولو نسلم وجود بيعة التوبة في عصر الرسالة، فلاشك في أن جميع البيعات في عصر الخلفاء الراشدين والصحابة والتابعين كانت للإطاعة والحكومة، فلماذا أحدثت الصوفية الأواخر الأمرالذي لم يكن في عصر الأوائل؟

٤. وفرضاً أن بيعة الرسول ﷺكانت بيعة التوبة والتقوى نقول: إنها كانت ساذجة، وأما بيعة الصوفية فلها ضوابط وقواعد، وأين هذا من ذاك؟ وبالتالي فإن البيعة الصوفية أشكالها وتفاصيلها بدعة محدثة بدون شك وارتياب، وكل بدعة حادثة في الدين موصلة إلى الجحيم.

٥. إن بيعة الإرادة هي ترك الإرادة واتباع الشيخ من غير شرط وقيد، فهي عقد الطاعة مطلقاً،

والطاعة مطلقاً هي حق الله جل جلاله وحق رسوله ﷺ، وجعل شيخ في محل الله ومحل رسوله إشراك في الألوهية والنبوة أعاذنا الله تعالى منه.

٦. إن بيعة الصوفية تؤدى إلى إطاعة الشيخ في جميع أحكامه، حتى ولوكان معصية، خلاف الدين والشريعة، ولاشك في أن هذا النظام يأباه الدين وتنكره الشريعة، فإنه ثابت عند العلماء جميعاً، أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وأن إطاعة الأمير مشروطة بهذا الشرط، فلو نسلم أن الشيخ الصوفي هو من أولي الأمر، ولو تسليماً مفروضاً، فمن أين يجيء الجواز لإطاعته في الثواب والمعصية مطلقاً.

٧. وبالتنزل لو سلم جواز البيعة الصوفية للتعليم والتربية فهذا إنما يكون في حق العوام، أما العلماء فلا حاجة لهم إليها، لأنهم يستفيدون من نور الكتاب والسنة مباشرة، والذي في يده الكتاب المبين والسنة الهادية فلا حاجة له بعد ذلك إلى أي نور مرشد، وهل نحتاج إلى الاهتداء بالنجوم بعد ما تطلع الشمس جهاراً؟

٨. غلا بعض الصوفية في مرشديهم غلواً شديداً حتى تعاملوا معهم كما تتعامل الأمة مع نبيها، أطاعوه كما إطاعة مطلقة وحتى يقول بعضهم: إنا نرى نبينا في صورة مرشدنا، ويقولون إنا نرى الله عز وجل في شكل مرشدنا المطاع. وقد قال الشاعر الهندي فهم:

موج و حباب دریا بس ایک ہی تو ہیں مرشد رسول مولی بس ایک دیکھتے ہیں

(الترجمة) البحر والموج والحباب كلها واحد فلذا لا نفرق بين الله والرسول والمرشد.

وهذه فكرة تخالف الدين والشريعة، وتفتح باب الفتنة في الأمة.

٩. نظام البيعة الصوفي يعطي للمرشد حق التحليل والتحريم، وهذه فكرة تضاد العقائد الإسلامية والشريعة القرآنية؛ ولذا فهذا نظام الكفر والشرك، ومن الظلم الشديد أن نسميه بنظام التزكية والتربية الإسلامية.

١٠. وأخيراً نجد في نظام البيعة الصوفية مرشداً عالماً بالغيب ومتصرفاً في الكون، وهذان من صفات الله تعالى، وهو الواحد الأحد الذى لا إله إلا هو، لا شريك له في ذاته ولا في صفاته.

والآن نبدأ في الجوابات على ترتيب الشبهات والله تعالى هو الوهاب، منه البداية وإليه النهاية.

(١) البيعة الصوفية سنة أو بدعة؟

قبل أن نخوض في الجواب عن السؤال ينبغي لنا أن نلفت أنظارنا إلى الحديث المعروف عن البدعة الذي يعرفه الخاص والعام، وذلك ما رواه ابن ماجه في سننه، قال رسول الله ﷺ: «كل بدعة ضلالة». هذا الحديث من الأحاديث التي قد جرت على ألسنة المسلمين جميعاً مثل الأوراد العامة، ومع ذلك تحقيق معنى البدعة أمر مختلف فيه، وفيه كثير من النقاش والجدال، وعندنا يتضح حديث البدعة عندما نقابله مع حديث

السنة، وذلك ما رواه مسلم في كتاب الزكاة عن جرير بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء».

والذي حصل لنا من دراسة الحديثين والمقارنة بينهما أن السنة والبدعة لهما إطلاقان: الإطلاق اللغوي، والإطلاق الشرعي، وبحسب الأول البدعة هي كل أمر حديث وجديد، والأمر الحديث قد يكون حسناً وقد يكون سيئاً، وبهذا الاعتبار البدعة بدعتان، حسنة وسيئة، وكذا السنة هي الطريق والطريق تكون حسنة وسيئة. والفقهاء قد اصطلحوا على هذا الاعتبار، فيقولون: «البدعة إما حسنة وإما سيئة»، أما بحسب الثاني فالبدعة هي كل أمر يضاف إلى الدين، ويكون خلاف الأصول الدينية والقواعد الشرعية، وربما تسمى هذه البدعة البدعة السيئة وكذا السنة السيئة، وأما الأمر الحديث الذي لا يكون خلافاً للدين وأصوله فلا يعد بدعة بل هو سنة، وقد يسمى سنة حسنة وبدعة حسنة؛ فالعموم في الحديث الشريف كل بدعة ضلالة، ليس للبدعة اللغوية التي اعتبرها الفقهاء بل هو البدعة الشرعية التي هي مصطلح لعامة المحدثين والمتكلمين.

والحاصل أن كل ما حدث أو اخترع بعد عصر النبي صلى الله عليه وسلم أو يحدث ويخترع في الزمن القادم، فذلك كله ليس بأمر محدث مذموم، وبدعة ضلالة داعية إلى النار بل بعضه سنة حسنة وبعضه بدعة سيئة، وإن الحسنات كلها في الجنة كما أن السيئات كلها في النار، إلا أن يغفر الله العفو الغفار.

قدمنا هذا البحث المفصَل عن مفهوم البدعة قبل أن نقطع بأن البيعة الصوفية سنة أو بدعة، لنتحقق أن البيعة الصوفية ولو كانت بدعة على سبيل الفرض، فلا يلزم منه أن تكون ضلالة وداعية إلى النار، كما ظهر بما سبق، أن البدعة بعمومها اللغوي ليست سيئة وضلالة بل ربما تكون بدعة حسنة أو سنة حسنة، فبعد ما فرضنا البيعة الصوفية بدعة، علينا أن نفكر قبل الحكم والقطع في أن دعوة التوبة والاستغفار حسنة أم سيئة، والجهود غير الحكومية لصلاح الناس وإصلاحهم أمر مرضي في الشرع أم مبغوض ومنكر فيه، وهذا على فرض أن البيعة هي بدعة. ولنشرع في تحقيق الأمر عن رؤية التاريخ والعلم.

يقول الفاضل العلامة محمد إرتضا علي (١٢٧٠/ ١٨٥٤) قاضي القضاة في ولاية مدراس في بداية رسالته الفارسية عن البيعة الصوفية المسماة بـ "رساله طريق بيعت":[1]

«البيعة خمس: بيعة الإسلام، وبيعة الهجرة، وبيعة الميثاق للجهاد، وبيعة الخلافة والحكومة، وبيعة التوبة من المعاصي والاجتناب من البدعة والتمسك بالسنة والحب للاستقامة، وكانت الأقسام الثلاثة الأولى في صدر

(١) هي مخزونة في مكتبة الإحسان مخطوطا عكسيا، الزاوية العارفية، الله آباد.

الإسلام والرابعة كانت فى الخلافة العباسية، وأما الخامسة فهي متوارثة منذ عصر الرسول ﷺ إلى زماننا هذا، وتستمر إلى نزول الإمام الهمام المهدي الموعود عليه السلام، ومع ذلك كانت الصوفية الأوائل قد تركوا بيعة التوبة حذراً من مشابهة بيعة الحكومة، واكتفوا بإعطاء الخرقة مريديهم ومحبيهم، وفي زماننا هذا، لما لم يبق هذا الشبه ولايوجد لها أي محذور، أحيا الصوفية الأواخر سنة بيعة التوبة من جديد».

ويقول العالم العارف الفقيه المحدث المقبول في جميع طبقات المسلمين ومسالكهم مسند الهند الشاه ولي الله المحدث الدهلوي رحمه الله تعالى في كتابه القول الجميل في بيان سواء السبيل:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِيْنَ يُبَايِعُوْنَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُوْنَ اللّٰهَ يَدُ اللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيْهِمْ فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلٰى نَفْسِهٖ وَمَنْ أَوْفٰى بِمَا عٰهَدَ عَلَيْهُ اللّٰهَ فَسَيُؤْتِيْهِ أَجْرًا عَظِيْمًا﴾[الفتح آية ١٠]

واستفاض عن رسول الله ﷺ أن الناس كانوا يبايعونه تارة على الهجرة والجهاد وتارة على إقامة أركان الإسلام وتارة على الثبات والقرار في معركة الكفار وتارة على التمسك بالسنة واجتناب البدعة والحرص على الطاعات كما صح أنه صلى الله عليه وسلم بايع النساء على أن لا ينُحن.

وروى ابن ماجه «أنه بايع ناساً من فقراء المهاجرين على أن لا يسأل الناس شيئاً فكان أحدهم يسقط سوطه فينزل عن فرسه فيأخذه ولا يسأل أحداً، ومما لاشك فيه ولا شبهة أنه إذا ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل على سبيل العبادة والاهتمام بشأنه فإنه لا ينزل عن كونه سنة في الدين».

بقي أنه ﷺ كان خليفة الله في أرضه وعالما بما أنزله الله تعالى من القرآن والحكمة ومعلما للكتاب والسنة ومزكيا للأمة، فما فعله على جهة الخلافة كان سنة للخلفاء وما فعله على جهة كونه معلما للكتاب والحكمة ومزكيا للأمة كان سنة للعلماء الراسخين.(١)

وبعد هذا البيان التاريخي عن رسم البيعة الصوفي نقتبس من أنوار الفيوض القدسية ولمعات السنة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام بحيث تتضح سنية بيعة التقوى للرجال والنساء بالوضوح والكمال. ولهذا الأمر الميمون نقدم إلى القارئ مثالين:

المثال الأول: أنزل الله تعالى في كتابه المبين عن بيعة النساء فقال:

﴿يٰٓاَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ الْمُؤْمِنٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلٰٓى أَنْ لَّا يُشْرِكْنَ بِاللّٰهِ شَيْئًا وَّ لَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِيْنَ وَ لَا يَقْتُلْنَ أَوْلٰدَهُنَّ وَ لَا يَأْتِيْنَ بِبُهْتٰنٍ يَّفْتَرِيْنَهٗ بَيْنَ أَيْدِيْهِنَّ وَ أَرْجُلِهِنَّ وَ لَا يَعْصِيْنَكَ فِيْ مَعْرُوْفٍ فَبَايِعْهُنَّ

(١) القول الجميل مع ترجمته في الأردية شفاء العليل، مكتبة رحمانيه، اردو بازار، لاهور، ص: ١٣-١٧.

وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[الممتحنة ١٢]

نزلت في النسوة اللاتي هاجرن من دار الكفر إلى دار الإسلام، أم كن في دار الإسلام ويردن التوبة وتجديد الإيمان والإسلام، فهذا الإمام البخاري يروى عن عروة أن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أخبرته: أن رسول الله ﷺ كان يمتحن من هاجر إليه من المؤمنات بهذه الآية بقول الله: "يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنٰتُ يُبَايِعْنَكَ ـ إلى قوله ـ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ". قال عروة: قالت عائشة: «فمن أقر بهذا الشرط من المؤمنات، قال لها رسول الله ﷺ: قد بايعتك كلاماً، ولا والله ما مست يده يد امرأة قط في المبايعة، ما يبايعهن إلا بقوله: قد بايعتك على ذلك».[1]

وروى النسائي عن أميمة بنت دقيقة أنها قالت:«أتيت النبي صلى الله عليه وسلم في نسوة من الأنصار نبايعه، فقلنا يا رسول الله، نبايعك على أن لا نشرك بالله شيئًا و لا نسرق ولا نزنى ولا نأتى ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصينك في معروف، قال: فيما استطعتن وأطقتن، قالت: قلنا الله ورسوله أرحم بنا، هلم نبايعك يا رسول الله».[2]

وإذا أمعنا النظر نجد أن في هذه البيعة بنوداً، منها:

١. التوبة من الشرك.	٢. التوبة من السرقة.
٣. التوبة من الزنا.	٤. التوبة من قتل الأولاد.
٥. التوبة من البهتان.	٦. العهد لإطاعة الرسول ﷺ.

والظاهرأن هذه البيعة لم تكن بيعة الإسلام، فإن الآية تصرح بأن النسوة اللاتى أتين للبيعة كن مؤمنات، والروايتان السابقتان أيضًا توكدان هذا المعنى، وهي لم تكن للهجرة، فإنهن لم يعاهدن للهجرة، بل كن مهاجرات، قد هاجرن من دار الكفر إلى دار الإسلام، فما معنى بيعة الهجرة للنساء المهاجرات؟ فإنه لاهجرة بعد الهجرة، وكذلك لم تكن هي بيعة الثبات على الجهاد، فإن الجهاد أمر لا يتعلق بالنسوة، وليس هناك ذكر الجهاد في قرارات البيعة المذكورة، وكذا من الواضح البين أنها لم تكن للخلافة والحكومة. والآن لم يبق إلا قسم من أقسام البيعة، ألا وهو بيعة التوبة والتقوى، بيعة تجديد الإسلام والإيمان، بيعة الاستغفار من المعاصي والاجتناب من البدعات، واتباع السنة والاستقامة على الشريعة. وهذه هي بيعة الصوفية، المروجة العامة في مختلف حلقاتهم. وهناك أمر مهم جدير بالذكر وهو أن في بيعة الصحابيات بنداً عن التوبة من الشرك، وهو في حق المؤمنات تجديد الإسلام والإيمان، والصوفية أيضاً يستتيبون من الكفر والشرك ويجددون إيمان المريدين وإسلامهم، فظهر من هذا كله أن

(١) البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات.
(٢) النسائي، السنن الصغرى، كتاب البيعة، بيعة النساء.

البيعة الصوفية ثابتة من السنة النبوية الكريمة مشهود عليها بالآيات القرآنية القدسية.

المثال الثاني:

يمكن أن يقول المجادل المعاند أن ما مثلته من بيعة التقوى على يدي النبي ﷺكان للنسوة فما الحامل على بيعة التقوى للرجال؟ وكيف تثبت سنيتها في حقهم؟ ويمكن الجواب بالاستدلال من بيعة النساء على بيعة الرجال، ولا شك في أن هذا الاستدلال كامل صحيح، ولكن يناسب هنا أن نقدم روايات أخرى تحكي عن بيعة التقوى في حق الرجال مع نفس البنود التي ذكرت في بيعة النساء. روى الإمام أحمد في مسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، قال: «كنت فيمن حضر العقبة الأولى وكنا اثنى عشر رجلا، فبايعنا رسول الله ﷺعلى بيعة النساء وذلك قبل أن يفترض الحرب على أن لا نشرك بالله شيئًا ولا نسرق ولا نزني ولانقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ولا نعصيه في معروف».[1]

فلو يعارض معاند بقوله: إن هذه البيعة ولو كانت للرجال ولكنها بيعة الإسلام وليست ببيعة التقوى التي كنا بصددها، أقول له:

أولاً: لبيعة التقوى أقسام، أعلاها بيعة الإسلام، لأن الكفر والشرك هما أكبر المعاصي وأشنعها، فالاجتناب والتوبة منهما أعظم الحسنات وأجمل التقوى.

ثانياً: إن البيعة المذكورة لا تشتمل على التوبة من الكفر والشرك فحسب، بل فيها التوبة من المعاصي الأخرى، فهي بيعة التوبة كما هي بيعة الإسلام في الوقت نفسه.

ثالثاً: لا شك في أن بيعة العقبة الأولى كانت بيعة التوبة والتجديد في بعض الأصحاب، فمن المحقق في التاريخ أن أسعد بن زرارة ورافع بن مالك بن عجلان وقطبة بن عامر من الخزرج قد كانوا اعتنقوا بديانة الإسلام قبل سنة كاملة من بيعة العقبة، فهذه البيعة في حقهم على الأقل إنما كانت بيعة التوبة والتجديد، والوفاء والاستقامة، وهذه هي بيعة الصوفية الصافية، فانسحب الغمام وطلعت الشمس بكمالها وظهر الحق بأن البيعة الصوفية هي بيعة التوبة والاستقامة وهي سنة مسنونة منسوبة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالاستناد العلمي الجيد.

وأختم هذا الجواب بنقل الروايتين من السنة الشريفة لمزيد التوضيح والتقرير لينكشف الحق وتهتك الحجب عن وجهه تماماً، وليطمئن الذين يتبعون اللفظ ويتمسكون به من غير تفكر في معنى كما يتمسك وثنى بحجر يزعمه إلهه ولا يتفكر ولايتدبر.

(١) مسند أحمد، باقي مسند الأنصار، حديث عبادة بن الصامت ﷺ

أ- عن جرير بن عبد الله، قال: «بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم».[1]

ب- عن أبى مسلم الخولانى، قال: حدثني الحبيب الأمين عوف بن مالك الأشجعي، قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال: «ألا تبايعون رسول الله ﷺ؟ فرددها ثلاث مرات، فقدمنا أيدينا، فبايعنا، فقلنا: يا رسول الله! قد بايعناك فعلام؟ قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، والصلوات الخمس، وأسر كلمة خفيفة: لا تسألوا الناس شيئًا».[2]

وبقي سوال: هل البيعة الصوفية، هي بيعة الإطاعة كما يدعى البعض أو غيرها كما يزعم الآخر؟ ومن الواضح الجلي أن بيعة الإطاعة تكون للأمير، فإن المطاع بعد الله سبحانه وتعالى وبعد رسوله صلى الله عليه وسلم هو الأمير الواجب إطاعته المذكور في الآية الكريمة:﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُوْلَ وَ أُولِى الْأَمْرِ مِنْكمْ**﴾[النساء ٥٩]فالجواب عن هذا السوال يعتمد على تفسير أولى الأمر وتحقيق معنى الأمير وتطبيقه على الشيخ المرشد الصوفي الذي يبايع المريدون على يديه عازمين على إطاعته. فذهب بعض الغلاة إلى أنه ليس في الدين أمير غير الخليفة والحاكم، فحصروا بيعة الإطاعة في الدين في بيعة زعماء السياسة، وزعم البعض أن أولى الأمر هم العلماء الفقهاء لا غير، وهؤلاء مثل الطبقة الأولى، يخرجون بيعة الصوفية التي من ميزاتها التسليم والإطاعة، من بيعة الإطاعة في الدين.

ونقدم إلى كلا الطبقتين مقتبسًا من تفسير الشيخ أبي الأعلى المودودي، يزيل الغمام ويوضح المرام إن شاء الله الرحمن، حتى يتبين أن بيعة الصوفية هي بيعة الإطاعة في الأمور الأخلاقية والتربية النفسية الدينية، كما أن بيعة الفقهاء بيعة الإطاعة في الفروع، وبيعة السلطان بيعة الإطاعة في الأمور السياسية السلطانية. كتب الشيخ المودودي في تفسير "تفهيم القرآن" تحت الآية: ٥٩ من سورة النساء:

«وبعد الإطاعتين المذكورتين وفي تبعهما هناك إطاعة ثالثة واجبة على المسلمين في النظام الإسلامي وهي إطاعة أولى الأمر وهم أيضًا من جماعة المسلمين».

ومفهوم "أولي الأمر" يشمل جميع المسلمين المسئولين عن أمور أهل الإسلام الاجتماعية، سواء أكانوا من العلماء الخبراء يرشدون ويهدون في الأمور الفكرية والشئون النظرية، أو من زعماء السياسة والحكومة، أو الحاكمين لهم المهتمين بنظم الدولة وشئون السلطنة، أو من القضاة يقضون ويفصلون القضايا المتنازع فيها، أو من شيوخ الشعوب ورؤساء القبائل يهتمون بالأمور المدنية والاجتماعية.

---

(١)السنن الكبرى للنسائي، كتاب البيعة، البيعة على إقام الصلاء وإيتاء الزكاة

(٢)السنن الكبرى للنسائي، كتاب البيعة، باب: البيعة على ترك مسألة الناس.

والحاصل أن كل من كان موكلًا إليه ومسؤلًا في الأمور الاجتماعية فهو أميرهم فيها، ويستحق الإطاعة في ذلك الباب، لا يجوز النزاع منه كى لا يفترق جمعهم ولا يمزق شملهم، بشرط أن يكون من جماعة المسلمين ومطيعًا لله تعالى ولرسوله ﷺ.

وكلنا يعلم أنه بعد الخلافة الراشدة انتقل أمر المسلمين إلى الملوكية، فمال حكام المسلمين وأمالوا عامتهم إلى الدنيا وزخرفها، فتزهد الصوفية في الحكومة والسياسة ومالوا عنها، وتجنبوها كل التجنب، وقاموا بنظام التعليم والتربية الذي يعتني بجميع الشئون الدينية والأخلاقية المهمة غير السياسة، وعليه فإن جانب الإطاعة في البيعة الصوفية أيضًا ثابت في الدين ومسنون كما يتضح لنا بأدنى تأمل في السطور السابقة آنفًا للشيخ المودودي الهندي،أحد العلماء المبرزين المتبوعين عند من يخالفون البيعة الصوفية ويعدونها بدعة.

(٢)تقسيم البيعة إلى بيعة الإرادة والتبرك:

هذه شبهة مبنية على البعد من التفقه والتدبر، فإن المقرر عند العلماء المحققين أن كل أمر أصله ثابت في الدين فهو من الدين، وهوصحيح ثابت مندوب على الأقل، وإن لم يكن بعض تفاصيلها في كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. فهذا الشيخ ابن تيمية سئل عن الصلاة بين الأذانين للجمعة، فأجاب قائلًا: «أما النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكن يصلي قبل الجمعة بعد الأذان شيئًا، ولا نقل هذا عنه أحد». ثم يقول بعد صفحات: «يتوجه أن يقال هذا الأذان لما سنه عثمان واتفق المسلمون عليه صار أذانًا شرعيًا، وحينئذ فتكون الصلاة بينه وبين الأذان الثاني جائزة حسنة وليست سنة راتبة كالصلاة قبل صلاة المغرب، وحينئذ فمن فعل ذلك لم ينكر عليه ومن ترك ذلك لم ينكر عليه، وهذا أعدل الأقوال».[1]

ومدار ما عدله ابن تيمية على أنه لا يلزم لمشروعية أمر، ولو كان من قبيل العبادة، أن يكون مسنونًا ومنقولًا من رسول الله ﷺ، إذا كان أصله موجودًا في الدين، وكذا سئل ابن تيمية عن صلاة الجمعة في جامع القلعة المسورة المغلقة أبوابها، فجوزها واستدل لذلك بتجويزها من العلماء وبتشبيهها من صلاة العيد التي كانت تقام في الصحراء في عهد الرسالة وخلافة أبى بكر وعمر وعثمان، ولما استخلف على بن أبى طالب رجلًا للصلاة بالناس في جامع الكوفة. [2]هذا ومثله كثير في فتاوى ابن تيمية وغيره من العلماء السلف والخلف، والحاصل أن مشروعية أمر لا تحتاج إلى مسنونيته من رسول الله ﷺ إذا كان أصله ثابتًا في الدين ولا يخالف أصول الشريعة والقواعد العامة.

(١) مجموع الفتاوى لإبن تيمية، ج:٢٤ ص: ١٨٨-١٩٣.

(٢)مجموع الفتاوى: ٢٠٨/٢٤

ثم أقول: إن البيعة أصلها مأثور من رسول الله ﷺ، وجميع أقسامها مسنونة منه، لم يسمها ﷺ بأي اسم، وهي كانت بيعة الإطاعة، لأن البيعة كانت ميثاقًا لإطاعته ﷺ، وهي كانت بيعة الإرادة، لأن المبايع على يديه صلى الله عليه وسلم كان لا يريد إلا وجه الله، وهي كانت علامة لاتباعه ﷺ ومخالفة الهوى، وهذه هي بيعة الإرادة في مصطلحات الصوفية وكانت تلك البيعة بيعة التبرك، لأن الصحابة كانوا يتبركون بالنبي ﷺو كان ﷺ رحمة وبركة لهم خاصة ولجميع المؤمنين وكافة الناس بل لجميع الخلق عامة، فبيعة الصحابة على يديه صلى الله عليه وسلم كانت بيعة التوبة، وبيعة الإطاعة، وبيعة الإرادة وبيعة التبرك جميعًا، فجميع أقسام البيعة الصوفية موجودة في بيعة رسول الله ﷺ وأصحابه وإن كانت الأسامى قد اصطلح عليها في الأزمنة التالية، فإذا كانت المعاني للبيعات الصوفية موجودة في بيعة الرسول صلى الله عليه وسلم فالنزاع في بيعة الصوفية على ألفاظها نزاع لفظي لا يليق بعاقل فضلًا عن عالم فقيه؛ ولذا قلت في بداية الجواب: إن هذه الشبهة مبنية على البعد من التفقه والتدبر.

(٣) بيعة التوبة لم تكن في عصر الخلفاء الراشدين المهديين:

ومن الناقدين من يقول: «إن بيعة التوبة ولوكانت في زمن الرسالة على صاحبها الصلاة والسلام ولكن انقطعت سلسلتها في زمن الخلافة الراشدة، فهي ليست بسنة متوارثة»، ولعلهم اهتموا بسنة الخلفاء الراشدين أكثر وأزيد من سنة سيد الأنبياء والمرسلين إمام الغر المحجلين قدوتنا ومولانا محمد رسول الله ﷺ، وكأنهم يزعمون أن مسنونية أمر واستحبابه ومشروعيته وجوازه لا يتم عن ثبوته عن النبي ﷺ حتى تعامل عليه الصحابة وتوارثوا به. يا عجباه! وهل نحن المسلمون بكريون وعمريون أو محمديون نؤمن إيمانًا بالغيب بمحمد ﷺ ورسالته العامة الكاملة، وليس هذا الإيمان مطلوبًا منا عن الصحابة والخلفاء، بل إنه ممنوع ومحرم، نعوذ بالله من ذلك.

وليعلم أن جواز أمر لايبتني على ثبوته ومسنونيته عن النبي ﷺفضلًا عن الخلفاء والصحابة بشرط أن لا يكون مخالفًا لأصول الدين ومضادًا لمقتضى الشريعة، وكذلك السنة أصلًا هي سنة الرسول عليه الصلاة والسلام، أما سنة الخلفاء والصحابة فهي تابعة لسنة الرسول وثابتة منها، كما قال عليه الصلاة والسلام: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين».[1] وإذا كان الأمر كذلك، وكانت سنة الخلفاء تابعة لسنة الرسول وثابتة منها، فما هو الموجب للسؤال عن أمر ثبت عن رسول الله- ﷺ- أن يكون ثابتًا

(١) ابن ماجه عن عرباض بن سارية

عن الخلفاء، فهل تبقى لنا حاجة القمر إذا طلعت الشمس؟! وما معنى طلب الصعيد الطيب للتيمم إذا كان الماء موجودًا متوفرًا للوضوء، وهذا النوع من السؤال لا يصدر إلا من رجلٍ غالٍ في عداوة التصوف، جحد العلم والمنطق وبعد عن الفكر والبصيرة، وانغمس في بحر العدوان والإنكار، ما أحرم وأشنع وما أبعد وأنكر أن يقول المرء إن هذا الأمر ولو كان ثابتًا من رسول الله- ﷺ - ولكنه إذا لم يثبت من خلفائه كان بدعة وليس بسنة، فلا يجوز التعامل عليه والتمسك به. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

نعم! بقى سؤال، وهو لماذا انقطعت هذه السنة في عصر الخلفاء الراشدين التابعين حقا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولقد أجاب وأجاد عن هذا السوال الشيخ المحدث الفقيه البصير الشاه ولي الله الدهلوي في رسالته القول الجميل، فقال:

«بيعة التمسك بحبل التقوى كانت متروكة، أما في زمان الخلفاء الراشدين فلكثرة الصحابة الذين استناروا بصحبة النبي ﷺ وتأدبوا في حضرته فكانوا لا يحتاجون إلى بيعة الخلفاء، وأما في زمن غيرهم فخوفًا من افتراق الكلمة وأن يظن بهم مبايعة الخلافة فتهيج الفتن، وكانت الصوفية يومئذ يقيمون الخرقة مقام البيعة، ثم لما اندرس هذا الرسم في الخلفاء انتهز الصوفية الفرصة وتمسكوا بسنة البيعة، والله أعلم».[1]

وقال الإمام أبو القاسم القشيري في بداية رسالته: «إن البدعات قد فشت والضلالات قد عمت بعد عصر الصحابة وتابعيهم، فسمى الزاهدون السنيون القائمون على منهج الصحابة أنفسهم صوفية، وإنما وقع هذا في القرن الثاني، ويبدو من هذا أن الفسق والفجور والبدعة والضلالة لم تخرج مخالبها في القرن الأول، وكان الناس أغلبهم متدينين متحلين بالأخلاق الدينية الإسلامية متزودين بالإنابة والتقوى»، ويشير إلى هذا كلام الإمام الدهلوي المذكور آنفًا، والحاصل أن الحركة الصوفية بدأت في القرن الثاني في بيئة مظلمة وثب فيها المسلمون على الدنيا والدنيا على المسلمين، وهذه الحركة الدينية لوكانت مع رسم البيعة لأوهمت إلى الأمويين والعباسيين الثورة ضد حكومتهم، فسعوا في ردها وإيقافها، مع أن رجوع الناس إلى الصوفية وحبهم إياهم حبًا جمًا كان لم يزل يشتد على السلاطين الفسقة والحكام الظلمة، ولهذا اكتفوا بالخرقة وأعرضوا عن سنة البيعة، لأن الصوفي هو المصلح، يصلح بين الناس ويجمع كلمتهم ولا يحب التشدد والتطرف، ويقول الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي في عوارف المعارف: «لبس الخرقة ارتباط بين الشيخ والمريد، وتحكيم من المريد الشيخ في نفسه، والتحكيم سايغ في الشرع لمصالح دنياوية».[2]

(١) القول الجميل مع ترجمته الأردية شفاء العليل، ص: ١٧

(٢)عوارف المعارف، الباب: ٨٢.

(٤) ابتداع القواعد للبيعة الصوفية وتفاصيلها:

هذا من المغالطات العامة الورود، تعرض الجميع المنكرين للعلوم الدينية جميعًا والمتشككين المتحيرين في الفنون الإسلامية كافة، والكثيرين من المحدثين الحائرين، فمثلًا:

رجل يزعم أن علم التصوف علم محدث وبدعة، لأن كتب الفقه ودواوين الشريعة خالية من تفاصيله.

ورجل يقول إن الأصول المدونة من الفقهاء والاجتهادات والاستنباطات الغريبة إحداث لهم وابتداع منهم، فهي محدثات دينية ومخترعات علمية، لا وجود لها في عصر النبي والصحابة والتابعين، حتى كتب الحديث التي هي أول تفسير القرآن و ثاني مأخذ الدين تضادها وتخالفها كلية، فأصحاب الفقه هم أصحاب الرأى وليسوا بأصحاب الأثر؛ ولذا أنكر المحدثَون الكرام عليهم، فكأن الفقهاء قاموا بنظام غير نظام القرآن والسنة، والحاصل أن الفقه والاجتهادات إحداث في الدين واجب الاحتراز منه والعدول إلى القرآن والسنة.

ورجل يظن أن المكتبة الضخمة باسم الحديث وأصوله عالم السحر وكون الطلسمات والخرافات، وهي صحراء لا يمكن الخروج منها، ما دخلها سالك إلا وقد غوى، أما أصول الحديث وضوابط الإسناد فهي بدعة بتمامها، وأما معاييرالجرح والتعديل وأقوال العلماء فيهما فيعارض ويناقض بعضها الآخر، فالمحدثون أحدثوا وجهًا آخر للإسلام يرد وجهه القرآني ويشوهه ويغيره.

ورجل يدعى أن التفاسير كلها مجموع الإسرائيليات والأكذوبات أو خلاصة أفكار الفلاسفة والصوفية وقياسات الفقهاء من المفسرين وضعوا هذا الفن لإثبات مذاهبهم ومزاعمهم من القرآن، والحق أن كتاب الله هو كتاب فصل وكتاب عربي مبين، يَحكم فيما يختلف فيه الناس ولا يُحكم عليه و يبين ما يشتبه عليهم ولا يحتاج إلى بيانه.

فهذا- يعني وصف أمر بدعة لو لم تكن تفاصيله في عصر النبي ﷺ مغالطة عامة الورود، تقطع جذور العلوم الإسلامية وتقلعها من أصولها جميعًا، يمكن إزالتها والكشف عن خطئها من الأصول العامة للشريعة والقواعد المحكمة للدين بأن كل أمر إذا كان أصله ثابتًا في الدين فهو من الدين، وكل أمر يعاضد الدين فهو مندوب في الشريعة، وكل أمر لا يخالف أصلًا من أصول الدين فهو مباح، وليس من لوازم الإباحة والندب أن يكون الأمر موجودًا في عصر النبي ﷺ مجملًا أو مفصلًا؛ لقوله ﷺ: من سن في الإسلام سنة حسنة، إلخ. فالسؤال عن أي علم وفن بأنه مجمل أو مفصل كان في زمن النبي ﷺ أو لم يكن، ليس بشيء، هذا سؤال مهمل لامعنى له، والمهم أن يسأل عن علوم أو أصول بأنها معاونة لنشر الدين في الأنفس والآفاق، نافعة له أو تخالفه وتعارضه؟ وتلك الأصول تبتنى على مقتضى الكتاب والسنة أو على

خلافه، فلو أمعنا النظر وتدبرنا في الدين على هذا النمط العلمي لنصل إلى فهم صحيح لمعنى الحديث "كل بدعة ضلالة" ونكون في مأمن من ظاهره الموهم أن الدين يخالف كل أمر حديث، حتى الابتكارات العلمية والمخترعات البديعة المعاصرة.

وبعد التعمق في هذا الأصل الديني العام ـ كل جديد يعين على الدين أو يوافقه فهو صحيح، وإن لم يكن في عصر الرسالة والصحابة ـ نلتفت إلى أصل السؤال. فنقول:

إن نظام التصوف كله من الفكر والعمل مبرهن ومشيد بالكتاب والسنة، وقد أشار الإمام الأجل للطائفتين، الفقهاء والصوفية، الجنيد البغدادي إلى هذه الحقيقة بقوله: "طريقنا مشيد بالكتاب والسنة." وليس في نظام التزكية والتربية إلا ما يؤيده الكتاب المبين وتوثقه السنة الطاهرة، وكل أمر رده كتاب الله وسنة رسوله فهو ممنوع الدخول كلية في منطقة التصوف؛ ولهذا نجد كتب التصوف كلها مملوءة برد المستصوفة المدعية المتلبسة خرقتهم، وإن المستصوفة إلا المخالفين للشريعة، والتابعين للهوى، فلو كان التصوف مخالف الشرع واتباع الهوي لم يذمه الصوفية الصافية ولم يرده المشايخ لهذا الطريق.

نعم! للصوفية إلهامات وكشوف تحتمل الصواب والخطأ، ولذا اختلفوا في الفروع، كما للفقهاء قياسات واجتهادات تحتمل الصواب والخطأ، ولذا اختلفوا فيها، فكما نحن نحسن الظن بالفقهاء، علينا أن لا نظن بالصوفية إلا خيرًا، ثم كما يجوز لنا أن نوافق أو نخالف فقيها من غير الطعن في فقهه ومن غير القطع في فهمنا، كذا يجوز لنا هذا في حق الصوفية حرفًا بحرف، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [حجرات :١٢] ولقوله ﷺ: «إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث». (متفق عليه)

والمستفاد من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المجتهد قد يخطى وقد يصيب، والصوفية المحققون أيضًا مجتهدون فيخطئون ويصيبون في قياساتهم وإلهاماتهم، فهذا هو شأن الفقهاء، وهذا هو مقام الصوفية الذين هم فقهاء الأمور الباطنة والأسرار القلبية، فعلينا أن نكرم الفريقين ولانصفهم بالعصمة أو بالضلالة، وكذا علينا إذا لم نتفق معهم في شيءٍ ما لا نطعن عليهم ولانسبهم ولانظن بهم السوء، وكذا علينا أن نبتعد ونتوب من عقيدة العصمة في أنفسنا، فكم من متشددين متعنتين إذا خالفوا السلف الصالح زعموا أن رأى السلف كان فقههم واجتهادهم وأن ما أرى فهو عين الكتاب وعين السنة، أعاذنا الله تعالى من هذا التطرف الفكري الذي هو أساس الإرهاب في رحاب الدين وبناء التكفير والتضليل لأمة محمد على صاحبها الصلاة والسلام، وهذا هو الغلو في الدين الذي قد أنزل فقه النص وتعبيره في موضع النص بعينه في العصر الحديث، فبدأ المتشددون يفكرون أنهم اليوم قد وصلوا إلى حقيقة الكتاب والسنة، وأما السلف من الفقهاء

والصوفية فقد أخطأوا بل ضلوا وأضلوا، والحق أنه ليس من الهين أن نصف مخالفنا في رأينا بأنه مخالف للكتاب والسنة، وأين الكتاب وفهمنا له وأين السنة الطاهرة وفقهنا عنها؟ شتان فيما بينهما، وإن هو إلا ضلال مبين أن ننزل فقهنا في منزل كتاب الله تعالى ومقام سنة نبيه عليه السلام، هدانا الله تعالى من زيغ وضلال وسوء مآل.

(٥) البيعة الصوفية عقد لإطاعة مطلقة في حق الشيخ:

هذه شبهة تنبعث من الخطأ الفكري عن البيعة الصوفية والفهم الناقص لعبارات القوم، وقد أثارت ثورة عنيفة في العصر الحديث حينما ضعفت الروحانية وقل الطالبون والمرشدون، وهناك سببان ظاهران لهذه الشبهة:

الأول: سوء الظن بالصوفية والتعجيل بالفتوى عليهم والتشديد فيهم.

الثاني: بعض العبارات لهؤلاء القوم توهم بأن البيعة هي عقد للإطاعة المطلقة بين المرشد والمسترشد، والحق أنها تعبيرات مجازية واصطلاحات صوفية من استعمال المطلق وإرادة المقيد، ولهم تصريحات وتنصيصات تصرح بأنهم يريدون الإطاعة المقيدة المشروطة بموافقة الشرع وإن كان ظاهر كلماتهم ربما يشعر بالطاعة المطلقة. فإنهم قوم لا يجوزون هذه الإطاعة إلا في حق الله تعالى وفي حق الرسول ﷺ، ولا يرون طاعة الخلق في معصية الخالق، وأما المرشد فهو مطاع مقيد اتباعه بمتابعة الله والرسول، وهو واجب اتباعه في المعروف لتربية النفس وتزكيتها، ولاسبيل إلى اتباعه في المنكر، والذي يرتكب الحرام أو يأمر به ليس بمرشد، إن هو إلا مضل، لا تجوز طاعته ولا تحل بيعته، ومن بايع على يديه تسقط بيعته بعد ظهور فسقه، نعم! إذا كان الأمر متجهدًا فيه غير منصوص، جوزه البعض وحرمه البعض، ففي مثل هذا وجب على المسترشد اتباع المرشد ، لا لأنه حرام، بل لأنه مختلف فيه، والمظنون أنه مباح في عين المرشد. وهذا كله مقرر ثابت محقق عند الصوفية الصافية والمشايخ المرشدين، ونقدم إليكم مقتبسين منورين من كتب الأكابر:

(١) يقول الشيخ العارف شهاب الدين عمرالسهروردي في عوارف المعارف:

«فقوم من المفتونين سموا أنفسهم ملامتية ولبسوا لبسة الصوفية لينسبوا بها إلى الصوفية، وما هم من الصوفية بشيءٍ، بل هم في غرور وغلط، يتسترون بلبسة الصوفية توقيةً تارة ودعوى أخرى، وينتهجون مناهج أهل الإباحة، ويزعمون أن ضمائرهم خلصت إلى الله تعالى، ويقولون هذا هو الظفر بالمراد و الارتسام بمراسم الشريعة رتبة العوام والقاصرين الأفهام المنحصرين في مضيق الاقتداء تقليدًا، وهذا هو عين الإلحاد والزندقة والإبعاد، فكل حقيقة ردتها الشريعة فهي زندقة.... من عرض نفسه للتهم فلا يلومن من أساء به الظن، فإذا رأينا متهاونًا بحدود الشرع مهملًا للصلوات المفروضات لا يعتد بحلاوة التلاوة والصوم

والصلاة ويدخل في المداخل المكروهة المحرمة نرده ولا نقبله ولا تقبل دعواه أن له سريرة صالحة».

أخبرنا شيخنا ضياء الدين أبو النجيب السهروردي إجازة عن عمر بن أحمد عن ابن خلف عن السلمي، قال: سمعت أبا بكر الرازي يقول: سمعت أبا محمد الجريري يقول: سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة، فقال الرجل: «أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقوى إلى الله تعالى»، فقال الجنيد: «إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال، وهذه عندي عظيمة، والذي يسرق ويزني أحسن حالًا من الذي يقول هذا».[1]

(٢) ويقول الشيخ سعد الدين الخيرآبادى الأنامى في شرح الرسالة المكية:

«إذا وصل المريد إلى الشيخ يحتاط ويجتهد في معرفة الشيخ أنه هل يصلح مسيئًا، ويجوز الاقتداء به، يعنى يرى هل يتوب المنغمسون في بحر المعصية والفجور في صحبته وتربيته أم لا ويتوجهون إلى الصلاح والتقوى ويميلون إلى الزهد والخير أم لا؟ وأعماله توافق الشريعة أم تخالفها؟ فإذا وجد الشيخ متصفًا بالوصفين المذكورين يدخل في إرادته ويجعل نفسه تابعًا ومحكومًا له كما يكون الميت في يد الغسال، يتابعه ويقتدى به في جميع أقواله وأفعاله حتى يوصله الشيخ إلى مقصوده، وأما الشيخ الذي لا يكون متحليًا بهذين الوصفين المتعلقين بالظاهر فيبتعد من صحبته ويتجنب منه؛ لأن الظاهر عنوان الباطن؛ فإن أكثر الطالبين هلكوا في هذا المنزل، بل هلاك عموم الناس كان بالاقتداء بالأئمة الضالة المضلة من الشيوخ والعلماء، والعلماء الضالة والمشايخ المضلة هم الذين لا يتبعون الشرع، ويصبحون منغمسين في الدنيا متبعين الهوى، طالبين الجاه والرئاسة، مُبتَلَينَ بالكبر والعجب».[2]

ونكتفي بالمقتبسين المنورين فقط خوفًا من التطويل، وكتب التصوف كلها منورة مملوءة بمثل هذه العبارات، وفي المقتبس الثاني المذكور جملة "يكون المريد في حضرة الشيخ كالمريد في يد الغسال" لوجردناها من السياق لتوهم أن المرشد هو المطاع المطلق عند المتصوفة، وهذا التجريد هو منشأ هذه الشبهة، فإن الذين في قلوبهم زيغ وعداوة من التصوف وأهله يستعملون هذا التجريد مصيدة لكيدهم، هدانا الله وإياهم إلى صراط مستقيم ووصلنا إلى منازل السائرين المنعمين.

(٦) المرشد يُمتَثَلُ لأوامره جميعًا ولو كانت خلاف الشريعة:

هذه شبهة ضعيفة تزول بما حققناه في الجواب عن الشبهة الخامسة، ولمزيد التوضيح نقدم إلى القاري

(١) عوارف المعارف، الباب التاسع في ذكر من انتمى إلى الصوفية وليس منهم

(٢) مجمع السلوك: ١/٤٨٠،اكادمية شاه صفي، سيد سراوان، اله آباد، ٢٠١٦

قول الشيخ أبي بكر الدقاق من الرسالة القشيرية؛ يقول:

«كنت مارا في تيه بنى إسرائيل فخطر ببالي أن علم الحقيقة مباين للشريعة، فهتف لي هاتف من تحت شجرة: كل حقيقة لا تتبعها الشريعة فهي كفر».[1]

والعارف الصوفي الشيخ قطب الدين الدمشقي عرَّفَ الشيخ المرشد بقوله:

«الشيخ هو الذي يقرر الدين والشرع في قلوب المريدين».[2]

وبهذا التعريف، قد ظهر أن من يأمر بخلاف الشرع ويعارض الدين ليس بمرشد، بل ويتبين بما قاله أبو بكر الدقاق أنه ليس بمؤمن حقًا، فضلًا عن أن يكون مرشدًا ومطاعًا، وقال الشيخ المحقق الفقيه الصوفي سعد الدين الخيرآبادي: «ينبغي للمريد أن يعظم شيخه كما يعظم الابن أباه وكما يطيع العبد مولاه».[3]

وقال العارف الصوفي المعاصر الداعية الإسلامي الشيخ أبو سعيد شاه إحسان الله المحمدي الصفوي حفظه الله تعالى ورعاه تعليقًا على قوله: «معنى تعظيم المريد شيخه كتعظيم الابن أباه أنه كما يجب علينا إكرام الأب ولو نجد منه نوعًا من الظلم مثلًا يتصرف في أموالنا من غير إذننا أو يفضل بعض إخواننا على البعض ولا يساوي فيهم، كذا لو كان أمر الشيخ ظاهره خلاف الشرع و العدل، أو كان بعض أعماله في بادئ النظر لا يوافقه الشرع والعدل، وكان صدوره ببشريته أو لحكمته، فحينئذ يجب إكرامه وأدبه، نعم! في مثل هذه الأمور الصادرة من الشيخ لبشريته، أو غلبة حاله أو خطئه أو نسيانه، لا يطاع الشيخ ولا يقتدى به، مع عدم التقصير في أدبه وحسن الظن به وتعامل الخير معه».

ومعنى إرادة الشيخ وطاعته وخدمته كإرادة العبد تجاه مولاه وخدمته وطاعته: أنه ينبغي للمريد أن يوجب طاعة شيخه على نفسه في كل حال في المسائل التي اختلف فيها العلماء، ويرى مخالفته في حقه سمًا قاتلًا، كما لا يأبى العبد إطاعة مولاه في شيءً من أوامره، ومن يجترئ على ذلك يقع في خطر وهلاك، وذلك لأنه من الواجب أن نحسن الظن بشيخنا بأنه أعلم منا بالمصالح الشرعية، ولا معنى للإرادة والتربية بدون هذ الظن، فإنه لا فائدة في جعل مثل هذا الرجل الذي لا يعرف عن الأحكام الشرعية و المصالح الدينية شيخًا مرشدًا وأميرًا مطاعًا.

نعم! إن اتباع الشيخ ملحوظ بأنه لا يكون في محرم قطعي، لأن المرشد الحقيقي بمعنى الكلمة لن يأمر بمحرم قطعي ولن يقترفه بنفسه، ثم إذا رأيناه مبتلى بأمر خلاف الشرع، ظننا فيه أنه مغلوب في حالة خاصة، والمغلوب حال كونه مغلوبًا لا يكون مرشدًا ومطاعًاز.....[4]

(١)الرسالة القشيرية،٢/٥٣٤، دار المعارف، القاهرة، باب الصمت

(٢) الرسالة المكية، الإحسان، ط ١، ١٢١، ٢٠١٤ء

(٣)مجمع السلوك: ٢/٤١١

(٤)مجمع السلوك، ١/٤١١-الهامش

ولقائل أن يقول: لماذا نحسن الظن بالشيخ بعد ما وجدناه يرتكب الكبائر ويخالف الشرع، ونقول في الجواب: إنه كان علينا أولًا أن نحتاط تمامًا في اختيار المرشد، فما اخترناه لتربيتنا إلا إذا رأيناه مؤمنا، وعالمًا عاملًا، ومأذونًا مسلسلًا إذنه إلى النبي ﷺ، و صالحًا مصلحًا، ومزكيًا ومربيًا، ماهرًا في فن التربية والتزكية وعارفًا ومعرِّفًا على المسترشد، ثم بعد هذا إذا وجدناه يقترف بجناية شرعية، لا ينبغي لنا التعجيل في تكفيره أو تفسيقه، فإذا كان هذا في أمر خلافي و اجتهادي، نرى أن عنده دليلًا لانعرفه، وإذا كان في أمر منصوص نظن به خيرًا، ونقول لعله أخطأ من غير عمده سهوًا أو نسيانًا أو غلبة للحال حبا لله أو بغضًا له، حتى يتبين لنا أنه مرق من الدين وخلع قلادته ومزق رداءه وتعود على مخالفة الشرع المتين. فحينئذ تتم الحجة ويتجلى الحق ويجب الاجتناب والابتعاد من هذا الشيخ الذي هو ولي الشيطان وعابده وعدوالله وجاحد دينه الحق. ولاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم.

(٧)احتياج العلماء إلى المرشدين:

هذه من أكبر الشبهات حول البيعة الصوفية، وفي العهد الأوسط من التاريخ الماضي، نجد العلماء كلهم ربطوا أنفسهم بالطرق الصوفية وتشرفوا بالمبايعة على أيدى المشايخ في وقتهم، ولكن في أيامنا هذه إذا ضعف الدين واضمحلت الروحانية، وتغيرت المبادئ والقيم، وأصبحت البيعة الصوفية تجارة المتصوفة يشترون بها ثمنًا بخسًا، وقامت الوهابية بثورة عنيفة تجاه التصوف وبيعته، وجنحت العلماء إلى الدنيا وزخارفها وتبعدوا من الدين والتقوى، قويت هذه الشبهة، وأخذ يزعم العلماء أن لاحاجة لهم إلى مرشد، متأثرين بالوهابية زاهدين في الدين وراغبين عن التقوى.

وهذه الشبهة نشأت من الفهم السقيم عن العالم والعامل، والمرشد ليس بمعلم الحقائق والمعارف فحسب، بل إنه مثبتها يقرر الدين في القلوب والبواطن، ويقوم بتربية المسترشد على نهج يرغب له الدين ويسهل له العمل به، حتى يتلون به ويتصبغ في صبغة الله شوقا و رغبة وقد قال تعالى: ﴿**صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً**﴾ [البقرة:١٣٨]فمثلًا السرقة جريمة والكذب معصية، يعلمها العالم والعامي، ويعرف الكل أن هذا العلم لا يكفي لتجنب المعاصي والجرائم، بل يحتاج المرء إلى تربية النفس وتزكيتها حيث يدخل في طبعها النفور من المعاصي، فثبت أن الجاهل يحتاج إلى العالم لتحصيل العلم، والعالم إلى المرشد للتربية والتزكية، وانكشف أن العالم بعد تحصيل مختلف العلوم والفنون تمسه الحاجة إلى مرشد يربى نفسه ويزكى خلقه ويحسن تعامله مع الخلق والخالق، ثم هذه هي سنة الله تعالى ولن تجد في سنته تبديلا.

وإشارة إلى هذا يقول العارف الفقيه النحوي سعد الدين الخيرآبادي في شرح الرسالة المكية:

«إن الله تعالى قادرعلى أن يهدي امرأ بغير الاقتداء بالشيخ، بل وإنه قادر على أن يبلغه منزلًا عليًا فائقًا بغير وسيلة الكتاب والسنة، هو مالك الملك، يقدر على التصرف في ملكه كيف يشاء، ولكن هذا من النوادر، ولا يخلو من الخطر، ولوكان في نفسه ممكنًا، ثم مثل هذا المهتدي لايكون هاديًا مرشدًا، فالسنة المتوارثة والطريق المسلوك في عالم الحكمة كابرًا عن كابر أن كل سالك قد اختار شيخًا كاملًا، ثم إنه لايمكن الحصول على التوحيد اليقيني، والعرفان الشهودي، والعلم الباطن، وعلم الأحوال، والمكاشفة والمشاهدة إلا بالاقتداء بشيخ كامل عارف للطريق سالك لها. فإن هذا كله يتعلق بصحبة الشيخ وتربيته وإرشاده.

يا بني! علم التصوف ليس علمًا بالمحسوسات، يتأتى بتلاوة الآيات والأحاديث، فإنه لا يصل السالك إلى مقام الكاملين حتى يقتدى بشيخ كامل بصير عارف بالطريق».[1]

نعم! قال بعضهم، من يهتدي بالكتاب والسنة لا حاجة له إلى الإقتداء بمرشد، فلو اكتفى بذلك لكفى، وقول الصوفية: من لا شيخ له فا لشيطان شيخه، فيمن لم يبلغ لطائف الكتاب والسنة وأسرارهما.[2]

وإلى هذا تشير مقالة الشيخ العارف قطب الدين الدمشقي في الرسالة المكية، قال:

«هذا العلم الراجح الذي به يصح اعتقاده ومعارفه وعمله الصالح هو في كتاب الله تعالى، فإن القرآن هو الإمام في الاعتقاد والإيمان والتوحيد والمعرفة والأعمال والأحوال، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾[فاطر:٣١] وقال الله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [الأعراف:٣] وكذا الأخبار، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي»ومن لم يبلغ هذه الرتبة فلا بدله من شيخ كامل يدله على الطريق ويرشده إلى الله تعالى، ولذلك قالوا: «من لا شيخ له فالشيطان شيخه».[3]

(٨) الغلو الشديد في تكريم المرشد ومنه قول الشاعر:

موج وحباب ودريا بس ايک ہی تو ہیں مرشد، رسول، مولیٰ، بس ایک دیکھتے ہیں

(يعنى) لا فرق بين البحر والموج والحباب، فلذا لا نفرق بين الله والرسول والمرشد.

وهناك أمران مهمان للغاية:

---

(١) مجمع السلوك (١/٣٥٤)

(٢) مجمع السلوك (١/٣٥٥)

(٣)مجلة الإحسان، الرسالة المكية: ٥٨،٥٩

الأول: لنعلم جيدًا أن الصوفية الصافية هم قوم يتعاملون مع الدين بطريق كامل، ويتبعون الرسول اتباعًا أحسن، ويعيشون حياة إسلامية بمعنى الكلمة، غايتهم رضوان الله تعالى ومنهجهم سنة نبيه صلى الله تعالى عليه وسلم، وللسلوك على ذلك المنهج والحصول على تلك الغاية يقتدون بالشيخ ويرون هذا لازمًا دينيًا لتربية أنفسهم وتزكية أخلاقهم، كما قال الإمام الغزالي وصفًا لهم:

«إن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وإن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا إليه سبيلًا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به».[1]

نعم! يجب أن نذكر أن الصوفية الذين وصفهم الغزالي كبريت أحمر وفي زماننا هذا فقد الطالب والمطلوب، إلا ما شاء الله تعالى.

والثاني: أن إكرام المرشد وتعظيمه إلى الغاية واجب عند الصوفية الكرام، ولكن هذا ليس بواجب شرعي، يوجب الكسل فيه فسقًا والإنكار عليه كفرًا، هذا واجب أخلاقي، إذ البيعة نفسها ليست بواحب شرعي، نعم! إذا بايع سالك على يد مرشد للتربية والتزكية، فعليه أن يبالغ في إكرام المرشد، فإن التربية من المرشد لا تتأتى بدون الإكرام البالغ من المسترشد، فإن المرشد هو المربي، يربى الطالبين على مخالفة النفس والهوى تربية تدريجية، ولايمكن هذا إلا إذا كان المريد طالبًا مؤدبًا مستسلمًا.

وليعلم، أن قبل المرحلة التربوية مرحلة انتخابية، يعنى مرحلة انتخاب المرشد، وكما سبق في السطور السابقة، أنه يجب على المريد في هذه المرحلة أن يحتاط تمامًا في اختيار المرشد، فلينظر هل هو عالم، زاهد، مُتَّقٍ، ومتبع للشريعة أم لا؟ وكذا ينظر إلى مريديه وطالبيه الذين حوله هل هم مائلون إلى التصوف والزهد أم لا؟ فإذا كان الجواب في الإثبات، فليختره مرشدًا له وليكن في حضرته كالميت في يد الغسال، ويوجب إكرامه وتعظيمه على نفسه كاملًا، حتى يتربى ويتزكى في صحبته ولا ينفر من حضرته و لا يكدر صفو حياته، وهذا بما قاله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥] وقال النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني»[2] ومن أمارات

(١) المنقذ من الضلال.

(٢) البخاري، حديث: ٧١٧٣

الإطاعة الكاملة، الحب البالغ والإكرام الشديد للمطاع المقتدى.

ولنبدأ في شرح الشعر المذكور أعلاه:

وكما أن البحر والموج والحباب مع كونها مختلفة مربوط بعضها من البعض، فكذلك الله سبحانه وتعالى، ورسوله ﷺ والشيخ المرشد المتبع لهما تختلف ذواتهم كليًا، مع هذا طاعاتهم جميعًا واحدة من جهة، لأن الله تبارك وتعالى مالك حقيقي ومطلوب حقيقي، و ما ينطق الرسول ﷺ إلا بوحيه، حتى «من يطع الرسول فقد أطاع الله» ، وكذا المرشد والأمير في الحقيقة رجل كسر أصنام هواه، وأفنى نفسه في مرضاة الله سبحانه، واتباع الرسول ﷺ، فلا يعمل ولا يأمر إلا بما كان فيه رضى الله واتباع رسوله، وحينئذ من أطاع الأمير فقد أطاع الرسول ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فثبت أن طاعة الله وطاعة الرسول وطاعة الأمير المرشد طاعة واحدة، وبهذا الاعتبار قال من قال: لا فرق بين البحر والموج والحباب، فلذا لا نفرق بين الله والرسول والمرشد، وقد قيل: لولا الاعتبارات لبطلت الحكمة.

(٩) نظام البيعة الصوفية يسمح للمرشد حق التحليل والتحريم:

مما كتب وفصل عن الشبهات الأخرى في الصفحات السابقة تزول هذه الشبهة، ولا حاجة لردها إلى مزيد من التوضيح والتقرير.

(١٠) دعوى التصرف والعلم بالغيب في حق المرشد:

وهذه شبهة قوية في بادئ النظر، وكأنها لا يمكن الرد عليها في زعم المبتدئين و الناقصين، ولكن البصير العارف يعلم جيدًا أن مثل هذه الشبهات ليس إلا كمثل الحباب في البحر والسراب في الشمس!!

ونرد هذه الشبهة بمقدمات مرتبة علمية لتنكشف الظلمة في الليل المظلم وترفع الشمس في منتصف السماء، ويظهر الحق ويزهق الباطل، وتتضح القضية لكل عالم وعامي، ولا يبقى العذر للمنكر والمداهن. فأقول:

أ- الصوفية الكرام هم أشد الناس توحيدًا وأعلاهم وأعظمهم معرفة، فإنه كلما تزداد المعرفة يحكم التوحيد ويرسخ الإيمان، فهم لاينسبون شيئًا إلا إلى الله ومن الله وبالله ولله، حتى أن نفي نفسهم وإنكار وجودهم لازم ديني في اعتقاد توحيدهم، ويستدلون على هذا بالفرقان الحكيم من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُوْنَ إِلَّآ أَنْ يَّشَآءَ اللّٰهُ﴾[التكوير:٢٩] وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللّٰهَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيْرٌ﴾ [البقرة:٢٠] وبقوله تعالى: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج:١٨]﴿إِنَّ اللّٰهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيْدُ﴾[المائدة:١] وبقوله: ﴿لَا تَبْدِيْلَ لِكَلِمٰتِ اللّٰهِ﴾ [يونس:٦٤]

ب – مع الإيمان بعلمه الواسع وقدرته المحيطة وإيقانهم بأن الله سبحانه وتعالى وحده يملك القضاء والقدر؛ يعرفون معرفة الإيمان أن العليم القدير جل مجده وعز شأنه يرزق العلم والقدرة لمن يشاء وكما يشاء، فإن معنى العليم هو أنه تعالى عالم يعطي العلم كما أن معنى القدير أنه قادر يجود بالقدرة.

ج– إن الصوفية الكرام يذعنون بأن النبوة قد انقطعت، ولكن سلسلة الإلهام والرؤيا لم تزل قائمة في هذه الأمة، ويقولون إن قلب البشر يصبح مهبط الأنوار الإلهية، والفيوض الصمدية، ويكون المؤمن ملهما ومحدثا على قدر تزكية قلبه وتصفية صدره، وتجلية باطنه، فإن جود الفيض بحسب الجهد والكسب.

د– الصوفية يمشون على قدم النبي ﷺ ويتبعونه، ويقتدون به في أحكامه وأحواله ﷺ ويبذلون فيه غاية جهدهم ونهاية مسعاهم على قدر ممكن، وكذا هم يمثلون مثالًا أعلى لحسن الظن بالناس وتحقير أنفسهم، فيفضلون كل واحد على أنفسهم، وأقصى وأشد ما يكون فيهم من حسن الظن يكون في حق شيخهم، فلا يفضلونه عليهم فحسب بل يرونه أفضل الزمان وأوحد الدهر، وهذا لما تقرر عندهم من ضرورة التربية واحتياج السلوك إليه.

ه– المريد يختار صحبة شيخه ويلزمها على نفسه لتتزكى نفسه من الرذائل ويتحلى قلبه بالفضائل، ويتربى ويتخلق، ولذا يختار لهذا شخصًا أفضل منه وأعلى من أهل زمانه متصفًا بالتزكية والتصفية في ظنه، فيحسن ظنه به بأنه ليكونن ملهمًا بالإلهام الصمداني بصيرًا بالنور الرباني، وهذه صفات ثابتة في الصحاح للمؤمنين الصادقين المتقين، فالمرشد الصادق الذي اختاره المريد ظنًا منه أنه أتقى زمانه وأزهد أوانه، هو أحق للاتصاف بهذه، وإمكان هذا أشد فيه في ظن المريد الصادق والطالب الحق.

و– ظن المريدين في حق مرشديهم بأنهم محدثون وملهمون له أهمية خاصة من جهة التربية والسلوك أيضًا، لأن المرشد يكون أميرًا والمريد مأمورًا في مصطلح هؤلاء القوم، كما ذكر في بداية الأمر مسئولا عنه في حضرة المرشد لأفعاله وأحواله، وهذا لأن نفسه تكون مطوعة وتابعة للحق ونافرة من الهوى، وهكذا عن طريق اتباع المرشد يتخلص من أغلال الهوى وعبادة النفس، ويستعد لاتباع الرسول واتباع الحق، فالمرء الذي تجره نفسه إلى ما تشاء لايمكن له سلوك الطريق واتباع الحق.

ز– أما الإلهام والتحديث فلا تخفى علاقتهما بالمغيبات على من له إلمام بالمشاهدات وفهم وإدراك، فإذا تحدث صوفي صفي عن بعض المغيبات بعد التحديث من الحق والإلهام منه، فما لنا أن نرد عليه من غير وجه شرعي، وهل نحن من المصيطرين في الدين يجب على الحق أن يستأذن منا قبل أن يلهم عبدًا خالصًا ومخلصًا، والعياذ بالله تعالى. فما لنا أن نسلم إمكان الإلهام ونرد وجوده قطعًا، وقد قال إمام السلفية العلامة ابن تيمية:

«الأمور لا يجب أن تعلم بالأدلة الشرعية العامة بل تعلم بأدلة خاصة تدل عليها، ومن طرق ذلك الإلهام، فقد يلهم الله بعض عباده حال هذا المال المعين وحال هذا الشخص المعين وإن لم يكن هناك دليل ظاهر يشركه فيه غيره، وقصة موسى مع الخضر هي من هذا الباب».[1]

٨- ثم لا معنى لكون صالح محدثًا وملهمًا أنه عالم بجميع المغيبات ومتصرف مطلقًا، وكيف! وهذا هو شأن الله تبارك وتعالى وحده. ثم الذين يقرون بحقيقة الإلهام وإمكانه ووجوده، يحدونه محددًا مشروطًا، وليس من قائل يدعى العلم المطلق والتصرف غير المحدد في أهل الصفا، وأما الأشعار التي توهم إلى هذا فهي من باب التجوز، وقد قيل: إن في الشعر يجوز ما لا يجوز في غيره.

٩- ثم إن الإلهام لا يوجب اليقين حتمًا، فهو لا يساوي الوحي قطعًا؛ ولذا هومشروط بموافقه الكتاب والسنة، وما يخالف منه الكتاب أو السنة فهو رد ووسوسة شيطانية، وليس بإلهام حقًا.

١٠- وأخيرًا، الإلهام رزق إلهي وفضل رباني، يتشرف به العبد بعد اتباع الدين كاملًا وتربية خلقه وتزكية نفسه وتجلية روحه، ولا معنى لكون العبد ملهمًا أنه متصرف قدير مطلقًا، بل لو كان له التصرف جزئيًا فهو من تكريمٍ منه تعالى، على عبده المخلص التقي، وقد قال تعالى:

«وما تقرب عبدي بشيء، أحب إلي مما افترضت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته».[2]

خلاصة البحث:

ظهر مما حققت أن البيعة الصوفية عمل مأثور ومسنون ومستحب، وليست من الواجبات الشرعية الدينية التي يفسّق تاركها ويكفر منكرها، نعم هي واجبة من جهة الأخلاق وتربيتها، والظاهر أن المرشد في نظام البيعة الصوفية هو رجل صالح تقي مصلح ومربٍّ، وأن اتباعه مشروط باتباع الشريعة، فهو أمير في أمور التربية الأخلاقية، وأما الذين لا يهتمون بالدين ولا يعملون على متقضى الشريعة فهم صوفية الأرزاق وقطاع الدين والشريعة، أعاذنا الله تعالى منهم وهدانا إلى الحق واتباع صوفية الحقائق وعرفاء الدقائق، رزقنا الله تعالى صحبتهم والاستفادة من فيوضهم.

(١)مجموع الفتاوى: ١٠/٤٧٩

(٢) رواه البخاري في صحيحه، في كتاب الرقاق، باب التواضع.

في لغة التصوف

إعداد : د.حسن نجار محمد [1]

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، ورحمة الله للعالمين سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحابه وسلم. وبعد:

فإن اللغة أهم وسيلة للتواصل بين الناس؛ ذلك بأن الألفاظ تحمل المعاني، فاللفظ حامل والمعني محمول والألفاظ تكون الجمل، والألفاظ والجمل تكون الأساليب والتعابير، واللفظ له معنى حقيقي وقد يخرج عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي وفقا للسياق؛ فالمعنى الحقيقي مايسميه العلماء معنى اللغوي -أي مفهوم الكلمة في معاجم اللغة - والمعنى المجازي يتلبس باللفظ عندما يأتي في سياق ما مع وجود علاقة وقرينة تدل على المعنى الحقيقي للفظ، فيظل المعنى الحقيقي في سياق المعنى المجازي، فلفظ "الأسد" معناه الحقيقي الحيوان المفترس المعروف، لكن عندما يقول إنسان ما: سلمت على أسد، يخرج لفظ الأسد عن معناه الحقيقي إلى معنى مجازي مستصحبا معه المعنى الحقيقي، عن طريق الاستعارة؛ فالمراد بالأسد هنا الرجل الشجاع القوي كالأسد، والدليل على ذلك لفظ "سلمت"؛ فإن الأسد لا يسلم عليه، إنما يكون هذا للإنسان.

يزداد الأمر اتساعًا وإيحاءً عندما يأتي اللفظ في سياق أدبي؛ فاللغة الأدبية – ولا سيما الشعر - لغة إيحائية تحتمل تأويلات مختلفة، وأكبر دليل على ذلك وحدة النص وتعدد القراءات.

ويزداد الأمر بعدًا إذا كان الكلام كلام أهل التصوف؛ فإن كلامهم مستوى خاصٌّ جدًّا في اللغة لا يفهم المراد منه إلا من أجاد السباحة في بحار أشواقهم وصفت روحه؛ فعرف ما عرفوا، وذاق ما ذاقوا، وغاب عن العالم الحسي لحلوله في الحضرة العلوية التي تدرك الأبصار!! ولا تدركها الأبصار.

إن لغة التصوف -بهذا الشكل- مَثَّلَت مشكلة كبرى باعدت -في أحيان كثيرة- بين الناس والتصوف؛ فالناس يقرءون كلاما ظاهره خروج واضح على الدين، وقد راح ضحية تلك اللغة الخاصة التي لايفهمها إلا الخواص كثير من أقطاب التصوف، ورمي بعضهم بالكفر والزندقة، وأدى ذلك إلى الدعوة إلى هجره تراثهم، وما إلى ذلك إلا لعدم فهم لغتهم، وعدم الوقوف على حقيقة المراد بها.

من هنا كان الخطأ أوالخلاف عندما حكم هؤلاء الذين يجهلون رموز الصوفية بما يفهمونه هم وما ألفوه من معاني الكلمات، أو خيل إليهم وليس بما أراده الصوفية؛ فخالف الحكم حقيقة القضية.

---

[1] المدرس بجامعة الأزهر الشريف القاهرة.

ولو رجعنا لأقوال الصوفية؛ فإننا سنجد صورًا غريبة ومعاني بعيدة يصعب فهمها للوهلة الأولى ويحتاج بعضها إلى الشرح. ولكننا لو أمعنا النظر، وفهمنا الألفاظ عندهم لأدركنا جوهر الصوفية ولأيقنا أنها بنت الإسلام وربيبته. فلننظر إلى ابن عربي عندما يقول:

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني

إننا لو نظرنا لكلمة "لا يراني"على ظاهرها لاستبشعنا جرمًا متوهمًا، ولكننا عندما نفهم هذه الكلمة فهمًا صوفيًا ندرك مدى إيمان ابن عربي.

لقد سأله بعض إخوانه عندما سمعوا قوله هذا: كيف تقول إنه لا يراك وأنت تعلم أنه يراك؟!!! فقال:

يا من يراني مجرما ولا أراه آخذا

كم ذا أراه مانعا ولا يراني لائذا

ولقد وقف المقري عند هذا القول لابن عربي فقال: «إن كلام الشيخ -رحمه الله- مؤول وإنه لا يقصد ظاهره وإنما له محامل تليق به، فأحسن الظن ولا تنقد بل اعتقد، وللناس في هذا المعنى كلام كثير، والتسليم أسلم، والله بكلام أوليائه أعلم».

ومثل هذا القول كثير في كلام الصوفية وهو في حاجة إلى من يفسره مثل هذا التفسير.

إن للصوفية مع اللغة حالًا ليس كحال عامة الناس، ومما يدعو إلى العجب الذي لا يكاد ينقضي- أنك ترى بعضهم يسقط لغتهم هذه على علم كعلم النحو؛ فها هو ذا الإمام القشيري - رحمه الله- يؤلف كتابًا في النحو يسميه "نحو القلوب" يصوغه بلغة التصوف بعد لغة النحويين، ومنه قوله: «الاسم المبتدأ شرطه أن يكون مصدرًا للإخبار عنه مجردًا عن العوامل اللفظية، وإنما يكون الاسم مبتدأ إذا لم يعمل فيه عامل ظاهر، فإذا سلم من العوامل الظاهرة سلم له صدر الخطاب، فكذلك من سلم من تأثير الأطماع فيه ولم تعمل فيه الشهوات والإرادات سلم له التقدم، ومن أسرته المنى والمطالبات تسفل في الأعقاب ووقع في صف النعال».

إن كلام الصوفية في معظمهم يميل للرمزية وعدم التصريح، ولعل السبب في ذلك أنهم يحومون حول الحضرة الإلهية، وهذا ما لا يمكن وصفه بأي كلام أو الوقوف على حقيقته؛ إنهم كالواقع تحت أثر الحمى، فهو يهذي بالحقيقة، وقد يكون كلامه غير مفهوم لكن شفاءه في هذا الهذيان.

لقد أحسن بعض العلماء عندما تنبه إلى خصوصية لغة الصوفية فصنع معاجم خاصة بلغتهم تنير الطريق للسارين، وترفع عن أعلام التصوف ما يتهمون به.

تحقيق منهج السادة الصوفية

في قبول الأحاديث النبوية

إعداد:غلام مصطفى الأزهري[1]

لقد تثرثر السلفية المعاصرة بأن الصوفية لايحتجون إلا بأحاديث موضوعة واهية لا أصل لها، وكذلك يستدلون على دعواهم وعلى مذهبهم بإلهاماتهم وكشوفهم التي لا أساس لها في الإسلام. والخلاصة أن ما تقوله الصوفية ليس إلا من خرافات وهراء، فقد أثبت الشيخ غلام مصطفى الأزهري المدرس بالجامعة العارفية بالهند في هذا البحث العلمي أن هذه الطائفة المتشددة هي أيضا تقبل الحديث الموضوع إذا ما عضَّدَ عقيدتهم ونزعاتهم، ثم ناقش الموضوع تحت مصطلح الحديث وبيّن موقف الصوفية في الحديث الموضوع ثم أثبت بدلائل دامغة، أن الإلهامات والكشوف ليست مرفوضة بأسرها، وإنما هي مقبولة ولها أساس في الأحاديث وتلقتها الأمة الإسلامية؛ لذلك لايرفضها بأسرها إلا جاحد ومتعنت، ومن ليس لديه أدنى ذرة من المعرفة بالإسلام ومبادئه.

الإدارة .

إن لعلماء الإسلام طبقات شتى ومجالات متنوعة فنًا وذوقًا، بحثًا ومنهجًا، منهم المحدثون والفقهاء والمتكلمون والصوفية، ولكن إذا خضنا في سيرهم وطالعنا كتبهم وجدناهم متحدين في المقصد والغاية، وكل منهم في آن واحد صوفي ومتكلم وفقيه ومحدث، وإن اشتهروا بفن، فهذا على حسب خدماتهم في مجال معين.

فإن المحدث لولم يكن صوفيًا ومتكلمًا وفقيهًا لما كان محدثًا حقيقيًا بل يكون فاسقًا معُجْبًا بنفسه وظاهريًا غير مدرك لمقاصد الشريعة وجوهرها، وكذا المتكلم إذا لم يكن محدّثًا وفقيهًا وصوفيًا كان ضالًا

[1] أستاذبالجامعة العارفية.

ومضلًا بعدم خبرته في الرواية والدراية متعصبًا لمذهبه ورأيه، أما الفقيه فاجتهاده موقوف على التبحر في الحديث وعلومه، و هو بدون تصحيح اعتقاده والإخلاص في أعماله مختال وجهده يضيع هباء، وأما الصوفي فهو مخدوع كالكرة في يد الشياطين إذا لم تبن أخلاقه على علوم التوحيد والشريعة.

قال الداعية الإسلامي شيخنا أبو سعيد إحسان الله أطال الله بقاه:

«إن الصوفي هو العارف بذات الله وصفاته وهو المحقق للعلوم الإسلامية والزاهد عما سوى الله ولسانه وقلبه رطب بذكر الله، وله خمسة أنواع: الصوفي المحدث كالإمام البخاري، الصوفي الفقيه كأئمة المذاهب الفقهية، الصوفي الفلسفي كالإمام الغزالي، الصوفي صاحب الكشوف والمعارف كمحي الدين بن عربي، الصوفي الزاهد والفقير كسيدنا إبراهيم بن أدهم قدس الله أسرارهم، أمثال هولاء كلهم صوفية وعارفون بالله لكنهم اشتهروا بفن وذوق غلب عليهم، وبخدمتهم للعلوم التي خصوا بها غير أنهم متفقون تماماحول نقطة واحدة على الأقل وهي اجتنابهم للمعاصي وإمساكهم لزمام نفوسهم وصبرهم على طاعة الله ومداومتهم على ذكر الله فإنه تعالى يقول:﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَدْعُوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَدٰوةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيْدُوْنَ وَجْهَهٗ وَ لَا تَعْدُ عَيْنٰكَ عَنْهُمْ ۚ تُرِيْدُ زِيْنَةَ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا ۚ وَ لَا تُطِعْ مَنْ اَغْفَلْنَا قَلْبَهٗ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوٰىهُ وَكَانَ اَمْرُهٗ فُرُطًا**﴾وجميع علماء الأمة شيوخًا وقادة وهداة بذلوا المجهود في طلب المقصود وهو مرضاة الله».

والمقصود أن علماء الإسلام كان لكل منهم مجاله الخاص، ولكنه قد استفاد بجميع العلوم الإسلامية تدعيمًا لمنهجه؛ لأن العلوم الإسلامية مثل سلسلة يشد بعضها بعضًا، فالفقيه المجتهد متخصص بالأحكام الدينية، وهو أيضًا ينهل من ينبوع علوم الحديث، ولكنه يسلك منهجًا خاصًا في جملته لا يخرج عن الشريعة، وقد يخالف منهجه منهج المحدثين مخالفة تنوع لا تعارض، وكذلك الصوفي صاحب الكشوف والمعارف إذا بلغ أقصى الغاية وفاز بالوصول إلى المعرفة الربانية كما شاء الله وكان له ذوق خاص به ومنهل ممتاز لا يفوز به إلا العارفون؛ فينطلق في المجالات العلمية الإسلامية كلها كالحديث، والفقه، والكلام، على حسب منهجه ومعرفته، فينكر أهل الظاهر كلامه لأنه في ظاهره قد يكون مخالفًا، ولكن بعد فهم وتدقيق يفهم المعنى المراد من هذا الكلام؛ لأن هذا الكلام وهذه المعاني العالية جاءت نتيجة اتصال وقرب وفهم وذوق ربما لا يدركه الآخرون باشتغالهم بعلم الظاهر.

وقد تعامل الصوفية مع الأحاديث النبوية تعاملًا روحيًا وعقليًا في آن واحد وهم في قبول الحديث ورده، لهم مناهج مختلفة، منها المتفق عليه ومنها المختلف فيه، وإليكم بيان مذاهبهم في هذا الأمر:

قبول الحديث ورده عن طريق القواعد المتداولة بين المحدثين:

التصحيح أو التضعيف عن طريق القواعد الاصطلاحية المقررة في كتب أهل الحديث المتداولة بين الخاص والعام، والتي بها أغلب الأحاديث محكوم عليها صحة وضعفًا، إنما هو باعتبار موازين تلك القواعد التي قعدها وأصلها علماء الأمة المختصون في هذا الشأن حتى صار هذا العلم من خصائص الأمة المحمدية، وأصبح درعًا واقيًا للسنة النبوية، فلم تعرف أمة اعتنت بأقوال نبيها وأفعاله وأحواله كماوقع لهذه الأمة.

يقول الشيخ الشعراني- قدس الله سره- في كتابه "العهود المحمدية" بيانا لمنهج الصوفية في قبول الحديث.

«أخذ علينا العهد العام من رسول الله -ﷺ- أن لا نتهوّر في رواية الحديث بل نتثبت في كل حديث نرويه عن رسول الله -ﷺ-، ولا نرويه عنه إلا إن كان لنا به رواية صحيحة».

وكان سيدي علي الخواص- رحمه الله تعالى-يقول: «لا ينبغي لفقيه أن يروي عن رسول الله-ﷺ- حديثا إلا إن كان له به علامة يعرف بها أن ذلك من كل أمر سول الله-ﷺ - إما من طريق النقل وإما من طريق سؤال هل لنبي-ﷺ- عن ذلك الحديث، وقوله هو من كلامي يقظة ومشافهة، هذا كله فيما كان ضعيفا من طريق النقل أما ما صح من طريق المحدثين واستحسن فلا يحتاج إلى سؤاله- ﷺ- فيه».[1]

قد تبين من كلام سيدي علي الخواص أن الخلاف في تصحيح الحديث وتضعيفه بين العارفين والمحدثين في بعض المواضع القليلة وهم متفقون في الباقي.

ومن ثم نقسم كلامنا إلى قسمين: قسم نتكلم فيه عن منهج المحدثين والاختلاف بينهم حتى تتضح مناهجهم المعتدلة؛ وقسم نتكلم فيه عن منهج العارفين في تعاملهم مع الأحاديث واختلافهم عن المحدثين وإن قبلها بعض أهل الحديث أيضًا.

اختلاف المحدثين في التصحيح والتضعيف:

اختلف المحدثون وأصحاب الجرح والتعديل في كثير من القواعد الحديثية ولم يجمعوا على قول واحد لحكمة أرادها الله، فاختلفت أحكامهم على الأخبار تصحيحًا وتضعيفًا في كثير من المواضع، وتضاربت أقوالهم في نقد الرجال، حتى قسموا المجرِّحين أقسامًا فكان منهم المعتدل والمتشدد والمتساهل.

وإن اتفقوا على قول من الأقوال أو قاعدة من القواعد؛ اختلفت طرقهم في تطبيقها، وبعضهم وضع القواعد الاصطلاحية من التخريج والجرح والتعديل، وقد خالفها ولم يعمل بها في بعض الأحكام، وكذلك

[1] لواقح الانوار القدسيه فى بيان العهود المحمدية ، قسم المناهي (ص: ٥٠٨) ط: دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥.

إن اتحد المحدثون في تصحيح رواية، فاختلف الفقهاء في إدراك معانيها وفهم مطالبها.

وهذا يُشعر بأن هذا العلم الشريف ــ وإن كان من أعظم علوم الشريعة وأشرفها ــ فليس القول فيه واحدًا؛ ولذلك ظهرت مناهج غير هذا وطرق أخرى لتصحيح الأخبار وتضعيفها، نذكر منها فيما يلي:

التصحيح والتضعيف بناء على الموافقة أو المخالفة للأصول الشرعية:

التصحيح والتضعيف بناء عليالموافقة أوالمخالفة للأصول العامة التي جاءت بها الشريعة الإسلامية أو قررتها الأصول العامة، وهو من الطرق المستخدمة عند المحدثين بحيث ضعف جمع من الحفاظ أحاديث في أعلى درجات الصحة سندًا لمخالفتها ومعارضتها أصلًا قويًا معلومًا من الدين بالضرورة، كما حصل في حديث خلق التربة للأرض يوم السبت المروي في صحيح مسلم عن رسول الله – ﷺ– أنه قال:

«خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ التُّرْبَةَ يَوْمَ السَّبْتِ، وَخَلَقَ فِيهَا الْجِبَالَ يَوْمَ الْأَحَدِ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَوْمَ الِاثْنَيْنِ، وَخَلَقَ الْمَكْرُوهَ يَوْمَ الثُّلَاثَاءِ، وَخَلَقَ النُّورَ يَوْمَ الْأَرْبِعَاءِ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوَابَّ يَوْمَ الْخَمِيسِ، وَخَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ الْعَصْرِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فِي آخِرِ الْخَلْقِ، فِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْ سَاعَاتِ الْجُمُعَةِ، فِيمَا بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَى اللَّيْلِ».[1]

هذا الحديث معارض بنص القران فقد جاء في النص القرآني أن عدد أيام خلق السماوات والأرض ستة أيام، وقد أعله البخاري في "التاريخ الكبير" بأنه وهم بكونه من رواية الإسرائيليات[2]، وكذا قال ابن القيم الجوزية:

«ولكن وقع الغلط في رفعه وإنما هو من قول كعب الأحبار كذلك قال إمام أهل الحديث محمد بن إسماعيل البخاري في "تاريخه الكبير"، وقاله غيره من علماء المسلمين أيضًا وهو كما قالوا: لأن الله أخبر أنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وهذا الحديث يقتضي أن مدة التخليق سبعة أيام والله تعالى أعلم». [3]

وكذا رد كثير من العلماء حديثًا رواه مسلم أو أوّلوه وهو ما رواه عن ابن عباس أنه قال:«كَانَ الطَّلَاقُ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَسَنَتَيْنِ مِنْ خِلَافَةِ عُمَرَ، طَلَاقُ الثَّلَاثِ وَاحِدَةً، فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: إِنَّ النَّاسَ قَدِ اسْتَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ كَانَتْ لَهُمْ فِيهِ أَنَاةٌ، فَلَوْ أَمْضَيْنَاهُ عَلَيْهِمْ، فَأَمْضَاهُ عَلَيْهِم».[4]

وأيضًا حديث فترة الوحي فيما رواه البخاري: «وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً حَتَّى حَزِنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِيمَا بَلَغَنَا، حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ مِنْهُ نَفْسَهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيَسْكُنُ لِذَلِكَ جَأْشُهُ، وَتَقِرُّ نَفْسُهُ»[5]

---

[1] صحيح مسلم ، كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب ابتداء الخلق وخلق آدم عليه السلام (٢٧٨٩)

[2] التاريخ الكبير للبخاري (١/ ٤١٣)دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن.

[3] المنار المنيف في الصحيح والضعيف والمقبول، فصل: ١٩ (ص: ٨٤)مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب ، ١٩٧٠م.

[4] صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب طلاق الثلاث (١٤٧٢).

[5] صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة (٦٩٨٢).

هكذا العديد من الأحاديث صحيح الإسناد وتكلم الناس في متنه فعلم بذلك أن مدار الحديث ليس على الإسناد فقط.

هل الحديث الضعيف لا يعمل به مطلقًا؟

هذا سؤال تردد في صدري كثيرًا، بعد خير القرون كان الناس يضعون الأحاديث ويدسونها في دين الله تشكيكًا لعوام المسلمين وتخليطًا عليهم رامين بهذا ضياع سنة رسول الله- ﷺ- وتضعيفها، ولكن اليوم تغير الأمر وأصبح الناس يحكمون على الأحاديث بالضعف والوضع لإضلال الناس عن الدين ولإبعادهم عن السنة فهم يرفعون أصواتهم بقولهم "هذا حديث ضعيف، هذا حديث ضعيف" كأن العمل بالأحاديث الضعيفة حرام بل أشد الحرام، ويا للعجب ما هذا! فالسلف من الفقهاء والمحدثين يعملون الأحاديث الضعيفة في فضائل الأعمال، وفي الترغيب والترهيب، وفي الأخلاق والآداب، وفي السير والتفسير بل وفي الحلال والحرام وذلك من باب الاحتياط. وإليك التفصيل:

والأخذ بالحديث الضعيف عند السلف من الفقهاء والمحدثين على ثلاثة مذاهب:

الأول: لا يعمل به مطلقًا لا في الأحكام ولا في الفضائل، حكاها ابن سيد الناس في عيون الأثر عن يحيى بن معين، ونسبه في فتح المغيث لأبي بكر ابن العربي، والظاهر أنه مذهب البخاري ومسلم وابن حزم.

الثاني: أن يعمل به مطلقًا، وعزي ذلك إلى الإمام أبي حنيفة والإمام مالك والإمام أحمد لأنهم يرون ذلك أقوى من رأي الرجال.

الثالث: يعمل به في فضائل الأعمال، وهذا هو المعتمد عند الائمة، وذلك بشروط ثلاثة ذكرها السيوطي عن ابن حجر، وهي:

١. أن يكون الضعف غير شديد، فيخرج بذلك من انفرد من الكذابين والمتهمين بالكذب ومن فحش غلطه.
٢. وأن يندرج تحت أصل معمول به. [إذا كان الضعف شديدا].
٣. ألا يعتقد ثبوته عند العمل به [كدليل شرعي] بل يعتقد الاحتياط، [وهو يحسن الظن بالله راجيا ثوابه وخائفا عقابه].

وعند التأمل في المسألة وجدت أن الحديث الضعيف معناه أن نسبته إلى الرسول- ﷺ- محتملة ومشكوك فيها؛ أى لا نجزم بصحته لتخلف شروط الصحيح، وأيضًا لا نجزم بوضعه لعدم وجود وضاع فى سنده ولعدم المخالفة الصريحة للقرآن، وللمعنى الذي سيق له الحديث.

وواضح أن هناك فرقًا بينه و بين الموضوع، فالموضوع نجزم بعدم نسبته إلى الرسول -ﷺ- لذا يجب أن يكون الضعيف أقل من ذلك و هو ما يحتمل أن الرسول- ﷺ- قاله، و يحتمل أنه -ﷺ- لم يقله، لأننا لو قلنا:إن الضعيف أيضًا لا يحتمل نسبته للرسول لما كان هناك فرق بينه و بين الموضوع.

والخلاصة أن الحديث الضعيف كما أفهمه هو ما كان محتملًا أن الرسول قاله أو لا، أي هناك احتمال أن الرسول قاله وهناك احتمال آخر أنه لم يقله؛ ولذلك ترى الأئمة من أهل الحديث قبلوا الأحاديث الضعيفة في الفضائل. ولكن في حقبة معاصرة اعتمدت طائفة على القول الأول بشكل مكثف خلافًا لجمهور علماء الإسلام ويرغبون أن يطبقوا رأي بعض المحدثين على المسلمين جميعًا، وإضافة إلى ذلكفإن هذه العقلية الخارجية الحديثة لا تفرق بين الأحاديث الضعيفة والموضوعة، والعجب من ذلك أن الأحاديث التي صححوها أو أدخلوها في السلسلة الصحيحة، فهي صحيحة، والتي عدوها في السلسلة الضعيفة فلاقيمة لها ولا وزن لها عندهم على الرغم من أن أصحاب الجرح والتعديل قبلوها وعملوا بها.

القول الثالث هو القول الحقيقي، وأما القول الثاني فليس له وجود بل هو افتراء على الأئمة؛ لأنهم أخذوا المراسيل والبلاغات بشروطهم الخاصة، ولم يقبل أحد منهم الأحاديث الضعيفة على الإطلاق، بل لهم مسار خاص في زمنهم، والذين جاؤوا من بعدهم من متبعي هولاء الأئمة لم يعملوا بالأحاديث الضعيفة في الحلال والحرام إلا إذا قبلها إمامهم فإنهم يقولون: أي حديث إذا وصل إلينا بشكل ضعيف فلا يعنى ذلك أنه كان ضعيفًا عند هولاء الأئمة أيضًا فهم قريبو العهد من الصحابة والرسول عليه السلام.

وإليك بعض أقوال العلماء في قبول الأحاديث الضعيفة في الفضائل:

يقول الإمام النووي الشافعي في المجموع:

«قدمنا اتفاق العلماء على العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال دون الحلال والحرام»[1]

وقال ابن مفلح الحنبلي في الآداب الشرعية: «والذي قطع به غير واحد ممن صنف في علوم الحديث حكاية عن العلماء أنه يعمل بالحديث الضعيف في ما ليس فيه تحليل ولا تحريم كالفضائل، وعن الإمام أحمد ما يوافق هذا».[2]

وقال أبو عبد الله محمد بن محمد الحطاب المالكي في مواهب الجليل في شرح مختصر خليل: «اتفق العلماء على جواز العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال».[3]

---

[1] المجموع شرح المهذب، كتاب الصلاة، باب استقبال القبلة (٣/ ٢٤٨) دار الفكر.

[2] الآداب الشرعية والمنح المرعية، فصل في العمل بالحديث الضعيف وروايته ... (٢/ ٣٠١) عالم الكتب.

[3] مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (١/ ١٧) دار الفكر.

وقال شهاب الدين الرملي في فتاواه مجيباً على مسألة وجهت إليه بشأن العمل بالحديث الضعيف وهل يثبت به حكم، فقال: «قد حكى النووي في عدة من تصانيفه إجماع أهل الحديث على العمل بالحديث الضعيف في الفضائل ونحوها خاصة». وقال ابن عبد البر: «أحاديث الفضائل لا يحتاج فيها إلى من يحتج به». وقال الحاكم: «سمعت أبا زكريا العنبري يقول: الخبر إذا ورد ولم يحرم حلالًا ولم يحلل حرامًا ولم يوجب حكماً، وكان فيه ترغيب أو ترهيب أغمض عنه وتسوهل في روايته». ولفظ ابن مهدي فيما أخرجه البيهقي في المدخل: «إذا روينا عن النبي -ﷺ- في الحلال والحرام والأحكام شددنا في الأسانيد وانتقدنا في الرجال، وإذا روينا في الفضائل والثواب والعقاب سهلنا في الأسانيد وتسامحنا في الرجال». ولفظ الإمام أحمد في رواية الميموني عنه: «الأحاديث الرقائق يحتمل أن يتساهل فيها حتى يجيء شيء فيه حكم. وقال في رواية عياش عن ابن إسحاق: رجل نكتب عنه هذه الأحاديث يعني المغازي ونحوها، وإذا جاء الحلال والحرام أردنا قومًا هكذا وقبض أصابع يديه الأربع». [1]

وقال الخطيب الشربيني في مغني المحتاج: «فائدة: شرط العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال أن لا يكون شديد الضعف، وأن يدخل تحت أصل عام، وأن لا يعتقد سنيته بذلك الحديث». [2]

ما المراد من العمل بالحديث الضعيف؟

قال العلامة علي القاري:«إن الحديث الضعيف يعمل به في الفضائل وإن لم يعتضد إجماعًا كما قال النووي: محله الفضائل الثابتة من كتاب أو سنة». [3]

وكذا بينه ابن تيمية في الفتاوى؛ إذ قال:«ما عليه العلماء من العمل بالحديث الضعيف ليس معناه إثبات الاستحباب بالحديث الذي لا يحتج به، فإن الاستحباب حكم شرعي فلا يثبت إلا بدليل شرعي، ومن أخبر عن الله أنه يحب عملاً من الأعمال من غير دليل شرعي فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، كما لو أثبت الإيجاب والتحريم..... وإنما مرادهم بذلك: أن يكون العمل مما قد ثبت أنه مما يحبه الله أو مما يكرهه بنص أو إجماع، كتلاوة القرآن والتسبيح والدعاء والصدقة والعتق والإحسان إلى الناس وكراهة الكذب والخيانة ونحو ذلك».

فإذا روي حديث في فضل بعض الأعمال المستحبة وثوابها وكراهة بعض الأعمال وعقابها فمقادير الثواب والعقاب وأنواعه إذا روي فيها حديث لا نعلم أنه موضوع جازت روايته والعمل به، بمعنى أن

---

[1] فتاوى الرملي، باب في مسائل شتى (٤/ ٣٨٣) المكتبة الإسلامية.

[2] مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، كتاب الطهارة، باب الوضوء (١/ ١٩٤) دار الكتب العلمية، ١٩٩٤م.

[3] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣/ ١٢٢٧) دار الفكر، بيروت.

النفس ترجو ذلك الثواب أو تخاف ذلك العقاب، كرجل يعلم أن التجارة تربح لكن بلغه أنها تربح ربحاً كثيراً، فهذا إن صدق نفعه وإن كذب لم يضره، ومثال ذلك الترغيب والترهيب بالإسرائيليات والمنامات وكلمات السلف والعلماء ووقائع العلماء ونحو ذلك مما لا يجوز بمجرده إثبات حكم شرعي لا استحباب ولا غيره، ولكن يجوز أن يذكر في الترغيب والترهيب والترجية والتخويف.

فإذا تضمنت أحاديث الفضائل الضعيفة تقديراً وتحديداً مثل صلاة في وقت معين بقراءة معينة أوعلى صفة معينة لم يجز ذلك؛ لأن استحباب هذا الوصف المعين لم يثبت بدليل شرعي، بخلاف ما لو روي فيه من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله... كان له كذا وكذا، فإن ذكر الله في السوق مستحب لما فيه من ذكر الله بين الغافلين...

فأما تقدير الثواب المروي فيه فلا يضر ثبوته ولا عدم ثبوته...

فالحاصل أن هذا الباب يروى ويعمل به في الترغيب والترهيب لا في الاستحباب، ثم اعتقاد موجبه وهو مقادير الثواب والعقاب يتوقف على الدليل الشرعي.[1]

فتأمل هذا الكلام فإنه نفيس جداً.

وهنا فائدة مهمة: إن كثيرًا من الفقهاء والمحدثين هم الراسخون في العلم احتجوا بالأحاديث الضعيفة في الحلال والحرام، فإن إدراك عطر صحة الحديث في السند الضعيف أسهل من فهم معاني الآيات المتشابهات، وقال الله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[آل عمران:٧]

قال معظم المفسرين: إن الله أعطى الراسخين في العلم علم المتشابهات كالمحكمات ومنهم الفقهاء والمحدثون والصوفية.

كيف نحكم على الحديث بالوضع؟

كان بعض الناس غير واع حول الحديث الموضوع، فإنهم تحاملوا على الرواية بالحكم عليها وضعًا وضعفًا كأن الوحي نزل عليه، وحكمهم على الرواية بأنها موضوعة قطعي لا ظني، ولا يجوز لأحد أن يبحث ويحكم بعد بحثهم وحكمهم،وقد وضع العلماء العلامات التي يُعرف بها الحديث الموضوع وهي:

---

[1] مجموع الفتاوى (١٨/ ٦٨) مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦م.

- ركاكة الألفاظ والمعاني، أي إنّ كلّ حديثٍ يتضمّن ألفاظاً أو معانىَ ركيكةً يُعلَم أنه حديثٌ موضوعٌ.
- مخالفة الحديث للعقل، بحيث لا يقبل التأويل، وكذا مخالفته لدلالة الكتاب القطعيّة، ولدلالة السنّة المتواترة، أو الإجماع القطعي مع عدم إمكان الجمع.
- أن يكون إخباراً عن أمرٍ جسيم تتوفَّر فيه الدواعي على نقله بمحضر من الجمع ثم لا ينقله منهم إلا واحدٌ.
- الإفراط بالوعيد الشديد على الأمر الصغير والوعد بالثواب العظيم على الفعل الحقير.
- إقرار الراوي بوضعه،أو ما يتنزل منزلة الإقرار كرواية المبتدعة على وفق بدعته.

وقد اختلف المحدثون في الحكم على الحديث بأنه موضوع بمجرد أن يكون فيه من علامات الوضع، واكتفوا بالحكم على إسناد الحديث بأنه موضوع لا على متن الحديث، وهذا الحكم أيضًا ظني ليس فيه دلالة قطعية فربما يصدق الكذوب.

الرواية الموضوعة بسبب كذب الراوي:

إذا كان في سلسلة الحديث كذاب أو وضاع فيحكم النقاد والمجرحون بوضع هذه الأحاديث والصواب أن هناك وجهات نظر مختلفة في هذا الصدد، وبيانه كما يلي:

(١) قد ذهب بعض العلماء إلى أنه إذا لم يكن نص الحديث ضد القواعد العامة، لا يقال إنه موضوع وإن كان في الرواية وضاع أو كذاب؛ لأن الراوي يمكن أن يكون كاذبًا في نفس هذا البيان أيضًا: أني وضعت وافتريت هذه الأحاديث من قبل نفسي ورفعتها إلى رسو ل الله صلى الله عليه وسلم.

وكذا إن ثبت الكذب في حديث واحد أو في محادثة الناس من الراوي يسمى أنه كذاب أو متهم بالكذب وتُعدّ جميع روايته موضوعة أو متروكة، فربما يتحدث الكذاب أيضًا صدقًا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة عن الشيطان:«صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ»[1] يعني أن الشيطان يكذب دائمًا لكنه تكلم هذه المرة صدقًا.

ويعضد الداعية الإسلاميّ أبوسعيد إحسان الله المحمدي الصفوي هذا الرأي بقوله:«هذه النظرة من المحدثين مستمدة من آيةقرآنية وهي أن الله تعالى يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾(الحجرات:٦) هذه الآية تبين أن رواية الفاجر لا ترفض تمامًا بل يبحث في روايته ومعناها، وبعد البحث إذا وجدت أدلة على صحة هذه الرواية من طرق مختلفة، وكانت مساندة للكتاب والسنة، فيحتج بهذه الرواية وإلا فتترك ويتوقف عنها».

[1] صحيح البخارى، كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس وجنوده (١٢٣/٤، ح: ٣٢٧٥).

هذه النظرة أيضًا من المحدثين كالإمام عبد الرحمن السخاوي أن رواية الكاذب ستكون مقبولة عندما يتحقق الأمر أنها ليست ضد الآيات المحكمات والأحاديث الصحيحة يقول:«هذا مع أن مجرد تفرد الكذاب بل الوضاع، ولو كان بعد الاستقصاء في التفتيش من حافظ متبحر تام الاستقراء – غير مستلزم لذلك، بل لا بد معه من انضمام شيء مما سيأتي(علامات الوضع) ولذا كان الحكم به من المتأخرين عسيرًا جدا، وللنظر فيه مجال، بخلاف الأئمة المتقدمين الذين منحهم الله التبحر في علم الحديث والتوسع في حفظه؛ كشعبة والقطان، وابن مهدي ونحوهم، وأصحابهم مثل أحمد وابن المديني، وابن معين، وابن راهويه، وطائفة، ثم أصحابهم مثل البخاري(٢٥٦هـ)، ومسلم(٢٦١هـ)، وأبي داود(٢٧٥هـ)، والترمذي (٢٧٩هـ)، والنسائي(٣٠٣هـ)، وهكذا إلى زمن الدارقطني (٣٨٥هـ) والبيهقي (٤٥٨هـ)، ولم يجئ بعدهم مساو لهم، ولا مقارب. أفاده العلائي، وقال: (فمتى وجدنا في كلام أحد من المتقدمين الحكم به، كان معتمدًا؛ لما أعطاهم الله من الحفظ الغزير، وإن اختلف النقل عنهم، عدل إلى الترجيح) انتهى. وفي جزمه باعتمادهم في جميع ما حكموا به من ذلك توقف». [1]

قد تبين من هذا النص أنه ليس من السهل على العلماء بعد القرن الخامس أن يصدروا حكمًا بالوضع على أي حديث، وتسليم أحكامهم بدون بحث واعتبار لا شيء سوى تقليد أعمى.

و أشار الشيخ ابن تيمية أيضًا إلى أن الحديث لا يكون موضوعًا إلا بالعلامة؛ وهو يقول:«وكما أن على الحديث أدلة يعلم بها أنه صدق وقد يقطع بذلك، فعليه أدلة يعلم بها أنه كذب ويقطع بذلك».[2]

يقول الشيخ محمد بن عمر بن سالم بازمول أستاذ جامعة أم القرى في شرح هذه العبارة:

«هذا تنبيه على قاعدة أخرى في الحديث، العلماء – رحمهم الله – يقولون: الحكم على الحديث لا يتوقف على مجرد السند، إذ هناك علامات وأمارات تدل على كذب الحديث ووضعه.ولهذا تجدهم يفرقون بين الحكم على السند والحكم على المتن، فإذا جاء في السند راوٍ كذاب أو وضاع، فلك أن تقول: هذا إسناد موضوع، لكن ليس لك أن تقول: هذا حديث موضوع، حتى يجتمع في المتن مع الرجل الوضاع في السند علامة من علامات الوضع في المتن، أما مجرد وجود رجل وضاع في السند، أو كذَّاب في السند، لا يبرر لك أن تقول: هذا حديث موضوع، إنما تقول: هذا إسناده موضوع، ..... وقد يأتي السند فيه راوٍ ضعيف، أو سند ظاهره الصحة، وتكون لديك أمارات في المتن تجزم فيها بكذب الحديث، فنقول : هذا حديث موضوع، فآل الأمر في الحكم على الحديث بالوضع إلى نقد المتن ، من أجل هذا اهتم العلماء – رحمهم الله –

[1] فتح المغيث بشرح ألفية الحديث (١/ ٣١٣) مكتبة السنة – مصر، ٢٠٠٣.
[2] مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية (ص: ٣٠) دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، ١٩٨٠م.

بوضع الأمارات التي يستدل بها على وضع الحديث، والأمارات التي يُعرف بها أن الحديث موضوع، أفردها بالذكر ابن قيم الجوزية في كتابه: (المنار المُنيف) ذكر هذه العلامات».[1]

التوضيح بالمثال: جاءت رواية عن زراعة الغنم والدجاجة

أَمَرَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الأَغْنِيَاءَ بِاتِّخَاذِ الْغَنَمِ، وَأَمَرَ الْفُقَرَاءَ بِاتِّخَاذِ الدَّجَاجِ»[2]

أخرجه ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة وأخرجه ابن عدي في الكامل والعقيلي في الضعفاء عن ابن عباس وفى طريقه الأول علي بن عروة الدمشقي، وفي الثاني غياث بن إبراهيم، وكلاهما كان يضع الحديث، ومع هذا الجرح الشديد يقول علي القاري:«أقول: والظاهر أن الحديث ضعيف لا موضوع، وقد شرحت معناه في بهجة الإنسان في مهجة الحيوان». [3]

والظاهر أن السبب في عدم كون الحديث موضوعًا على الرغم من وجود الكذاب والوضاع في أثناء سند الرواية المذكورة، هو أن نصه ليس مخالفًا للقواعد الشرعية العامة؛ لذلك لا يمكن أن يحكم على أي حديث بالوضع بل يقال سنده موضوع.

(٢) هناك طائفة أخرى من النقاد تقول: إن كان في الرواية وضاع أو كذاب فهي موضوعة لكنهم اشترطوا أن كذبه وافتراءه ثابت في الرواية عن النبي -ﷺ- ومع ذلك هذا الحكم بالوضع ظني لا قطعي، وإذا لم يكن كذبه ثابتًا في الحديث المرفوع فروايته ضعيفة وليست موضوعة.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني:«لأن الطعن إما أن يكون: لكذب الراوي في الحديث النبوي بأن يروي عنه ﷺ ما لم يقله متعمدًا لذلك أو تُهمتِهِ بذلكَ؛ بأن لا يروى ذلك الحديث إلا من جهته، ويكون مخالفًا للقواعد المعلومة، وكذا من عرف بالكذب في كلامه، وإن لم يظهر منه وقوع ذلك في الحديث النبوي، وهذا دون الأول».

فالقسم الأول، الطعن بكذب الراوي في الحديث النبوي هو الموضوع، والحكم عليه بالوضع إنما هو بطريق الظن الغالب لا بالقطع، إذ قد يصدق الكذوب، لكن لأهل العلم بالحديث ملكة قوية يميزون بها بين ذلك، وإنما يقوم بذلك منهم من يكون إطلاعه تامًا، وذهنه ثاقبًا، وفهمه قويًا، ومعرفته بالقرائن الدالةعلى ذلك متمكنة.

والقسم الثاني من أقسام المردود، وهو ما يكون بسبب تهمة الراوي بالكذب، وهو المتروك. [4]

---

[1] شرح كتاب "مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية" (ص:٦٧).

[2] سنن ابن ماجه، كتاب التجارات، باب اتخاذ الماشية (٢٣٠٧).

[3] الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (ص: ٤٧١) مؤسسة الرسالة – بيروت.

[4] نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، بحث الطعن ملخصًا (ص: ٨٨) مطبعة الصباح، دمشق، ٢٠٠٠ م.

لمحة عامة:

انظر إلى رأي الطائفتين فيما يتعلق بحكم الوضع وعدمه على الحديث بسبب كذب الراوي، فالطائفة الأولى أعني الفقهاء والصوفية هم أصحاب الاحتياط في العمل وأرباب التقوى وأهل ترجيح الأحاديث على الرأى والقياس، وهم يحاولون أن يدافعوا عن الدين حتى لا يتلاعب أحد بالأحاديث ويعمل بهواه وإن كانت نسبتها إلى الرسول ضعيفة، والثانية أعني المحدثين وأهل الظاهر هم يحتاطون في الرواية والنقل ويخشون التقول على رسول الله، وهم أيضًا يدافعون عن الدين حتى لا يضاف فيه مفهوم غريب لا علاقة له به.

فوظيفة كلتا الطائفين من العلماء السعي على الجبهتين معًا، فلا يصحّ أن يتصوّر أن الدفاع عن الدين ضدّ المتلاعبين بالأحاديث ولو كانت ضعيفة، أقدس وأهم من الدفاع عنه ضدّ بعض المتحمّسين لتطهير الأحاديث من كل شوب لئلا يضاف إليه شيء، فالزيادة في الدين خطرها كالنقص منه، والأحاديث الموضوعة زيادةٌ في الدين أحيانًا وذلك عندما ثبت منها مفهوم محدث في الدين، وإنما هي نقصٌ منه أحيانًا أخرى وذلك عندما نفت مفهومًا موجودًا فيه واقعًا.

جواز بيان رواية الحديث الموضوع بين المجيزين والمعارضين:

والروايات الموضوعة و إن اختلف العلماء في وضعها وضعفها فحكمها على حسب زعمهم ولكن روايتها جائزة؛ فإن الاختلاف يوسع المجال، والخلاف بين أهل الحق سائغ بدون ضيق الصدر.

إذا اختلف المحدثون في الحكم بالوضع على أي رواية فلا ريب في ضعفها وجواز روايتها في الفضائل، ولكن إذا اختلف في وضع رواية بين المحدثين وبين الفقهاء والصوفية فالتوقف في روايتها وحكمها أولى، فإن المحدثين حكموا بالوضع على بعض الروايات التي ذكرها أئمة الفقهاء ومشايخ الصوفية في كتبهم؛ لأنهم لم يجدوها في متون الحديث ومجامعها أو وجدوا في أسانيدها مجاهيل على زعمهم أعني أحوال هؤلاء الرواة غير مدرجة في كتب التراجم والطبقات التي صنفها المحدثون وإن كانوا معروفين عند أهلهم.

ومع ذلك، فمن الأفضل بيان الروايات الصحيحة أو الحسنة بدلًا من هذه الروايات، نعم إذا حدثت هذه الروايات الضعيفة مع الروايات الصحيحة أو الحسنة فلا حرج في أبواب الخيرات والحسنات فإن وضعها غير متيقن.

وإن اتفق العلماء على وضع الرواية فهي ثلاثة أنواع من حيث المفاهيم والمعاني، أعني هل هذه الرواية موافقة للدين أم لا؟

١. خلاف القواعد العامة. ٢. مؤيد للدين وأحكامه. ٣. مشتمل على أمر مباح.

أما القسم الأول فقد اتفق العلماء على حرمة رواية الحديث الموضوع لمن يعلم بأنه موضوع أو قامت عنده الحجّة على كونه كذلك، ولو كان هذا الحديث في الفضائل والخيرات إلا أن يبين الراوي أو المحدث أنه موضوع.

أما القسمان الأخيران فقد ذهب جمهور العماء إلى حرمة روايتهما أيضًا، ولكن هناك إشارات في كتب التخريج والأحكام إلى جواز روايتهما إذا كانت معانيهما مدعومة من قبل القرآن أو السنة كما قال الحافظ ابن حجر العسقلاني:«يستفاد من هذا أنه تجوز رواية الحديث الموضوع، إن كان بهذين الشرطين:

ألا يكون فيه حكم، وأن تشهد له الأصول، وهو خلاف ما نقلوه من الاتفاق على عدم جواز ذلك، ويمكن أن يقال: ذكر هذا الشرط من جملة البيان».[1]

بعض الأمثلة لتصحيح الأحاديث الموضوعة بناء على موافقتها للأصول:

نذكر فيما يلي بعض الأمثلة من الروايات التي نقدها بعض الحفاظ ومع ذلك أيد معناها الآخرون المقسطون بالقرآن والسنة الصحيحة:

الإمام السخاوي وتصحيح الروايات الموضوعة:

« اختلاف أمتي الرحمة »

أخرجه الألباني في السلسلة الضعيفة وقال: «لا أصل له».

وقال:«إن معنى هذا الحديث مستنكر عند المحققين من العلماء»، فقال العلامة ابن حزم في " الإحكام في أصول الأحكام" (٥ / ٦٤) بعد أن أشار إلى أنه ليس بحديث:«وهذا من أفسد قول يكون، لأنه لوكان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق سخطًا، وهذا ما لا يقوله مسلم؛لأنه ليس إلا اتفاق أو اختلاف، وليس إلا رحمة أوسخط».

وقال في مكان آخر: «باطل مكذوب، كما سيأتي في كلامه المذكور عند الحديث».[2]

وإلى خلاف ذلك ذهب الإمام جلال الدين السيوطي فقال: «أخرجه نصر المقدسي في الحجة، والبيهقي في الرسالة بغير سند، ورواه القاضي حسين، وإمام الحرمين وغيرهم، ولعله خُرج في بعض كتب الحفاظ التي لم تصل إلينا».[3]

---

[1] الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٥١٢).

[2] سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١/ ١٤١، رقم: ٥٧) دار المعارف، الرياض – السعودية.

[3] الجامع الصغير وزيادته (رقم: ١٢٤٣).

والإمام السخاوي أوضح معناه وأيده بالروايات الأخرى وهو يقول:«رويالْبَيْهَقِيُّ فِي الْمَدْخَلِ مِنْ حَدِيثِ سُلَيْمَانَ ابن أَبِي كَرِيمَةَ عَنْ جُوَيْبِرٍ عَنِ الضَّحَّاكِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ -ﷺ-: مَهْمَا أُوتِيتُمْ مِنْ كِتَابِ الله فَالْعَمَلُ بِهِ لا عُذْرَ لأَحَدٍ فِي تَرْكِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي كِتَابِ اللهِ فَسُنَّةٌ مِنِّي مَاضِيَةٌ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ سُنَّةً مِنِّي فَمَا قَالَ أَصْحَابِي، إِنَّ أَصْحَابِي بِمَنْزِلَةِ النُّجُومِ فِي السَّمَاءِ، فَأَيُّمَا أَخَذْتُمْ بِهِ اهْتَدَيْتُمْ، وَاخْتِلافُ أَصْحَابِي لَكُمْ رَحْمَةٌ» ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني، والديلمي في مسنده بلفظه سواء، وجويبر ضعيف جدا، والضحاك عن ابن عباس منقطع، وقد عزاه الزركشي إلى كتاب الحجة لنصر المقدسي مرفوعًا من غير بيان لسنده، ولأصحابه، وكذا عزاه العراقي لآدم بن أبي إياس في كتاب العلم والحكم بدون بيان بلفظ: اختلاف أصحابي رحمة لأمتي، قال: وهو مرسل ضعيف،وبهذا اللفظ ذكره البيهقي في رسالته الأشعرية بغير إسناد، وفي المدخل له من حديث سفيان عن أفلح بن حميد عن القاسم بن محمد قال: اختلاف أصحاب محمد -ﷺ- رحمة لعباد اللهَّ، ومن حديث قتادة أن عمر بن عبد العزيز كان يقول: ما سرني لو أن أصحاب محمد -ﷺ- لم يختلفوا؛ لأنهم لو لم يختلفوا لم تكن رخصة، ومن حديث الليث بن سعد عن يحيى بن سعيد قال: أهل العلم أهل توسعة. وما برح المفتون يختلفون فيحل ويحرم فلا يعيب هذا على هذا إذا علم هذا، وقد قرأت بخط شيخنا: إنه - يعني هذا الحديث- حديث مشهور على الألسنة، وقد أورده ابن الحاجب في المختصر في مباحث القياس بلفظ: اختلاف أمتي رحمة للناس، وكثر السؤال عنه، وزعم كثير من الأئمة أنه لا أصل له، لكن ذكره الخطابي في غريب الحديث مستطردًا، وقال: اعترض على هذا الحديث رجلان، أحدهما ماجن، والآخر ملحد، وهما إسحاق الموصلي وعمرو بن بحر الجاحظ، وقالا جميعًا: لو كان الاختلاف رحمة لكان الاتفاق عذابًا، ثم تشاغل الخطابي برد هذا الكلام، ولم يقع في كلامه شفاء في عزو الحديث، ولكنه أشعر بأن له أصلًا عنده، ثم ذكر شيخنا شيئًا مما تقدم في عزوه».[1]

الشيخ ابن تيمية وتصحيح الأحاديث الموضوعة:

وقد ذكر الشيخ ابن تيمية الرواية الموضوعة في دعم بعض آرائه، موضحًا أنها موضوعة، ومع ذلك صحح معناها وقال: «إن الكلمة التي يوافق معناها بالقرآن والحديث، ليس من الضروري أنها من القرآن والسنة».

ولكن هنا السؤال: هل من الصواب أن تذكر الرواية الموضوعة كدليل يحتج به على الرغم من أن يبين أنها موضوعة؟

---

[1] المقاصد الحسنة (ص: ٦٩، رقم: ٣٩) دار الكتاب العربي – بيروت، ١٤٠٥م.

انظر إلى صنيعه هل هو يريد إثبات رأيه بالحديث الموضوع أو يحاول أن يوهم الناس بأن رأيه ثابت بذلك الحديث الموضوع الثابت معناه بالقرآن والحديث؟

ومن صنيعه في ذلك الحديث الموضوع يستنتج بأن ابن التيمية يعتقد أن رواية الحديث الموضوع تجوز إذا كان معناها صحيحًا.

من معتقدات الشيخ ابن تيمية أن الله تعالى مستو على العرش بنفسه وينزل إلى السماء الأولى بنفسه وبذاته، خلافًا لجمهور أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية، وأيضًا لإمام أهل السنة أحمد بن حنبل.[1] وقد كتب مفصلًا فيما يتعلق بهذا الموضوع في عديد من كتبه ، ومنها قوله فيما يلي: «روى حديثًا مرفوعًا من طريق نعيم بن حماد عن جرير عن ليث عن بشر عن أنس: أن النبي ﷺ قال: «إذا أراد الله أن ينزل عن عرشه نزل بذاته». قلت: ضعف أبو القاسم إسماعيل التيمي وغيره من الحفاظ هذا اللفظ مرفوعًا، ورواه ابن الجوزي في "الموضوعات" وقال أبو القاسم التيمي: "ينزل" معناه صحيح أنا أقر به لكن لم يثبت مرفوعًا إلى النبي ﷺ، وقد يكون المعنى صحيحًا، وإن كان اللفظ نفسه ليس بمأثور؛ كما لو قيل: إن الله هو بنفسه وبذاته خلق السموات والأرض، وهو بنفسه وذاته كلم موسى تكليمًا، وهو بنفسه وذاته استوى على العرش؛ ونحو ذلك من أفعاله التي فعلها هو بنفسه وهو نفسه فعلها. فالمعنى صحيح؛ وليس كل ما بين به معنى القرآن والحديث من اللفظ يكون من القرآن ومرفوعًا. فهذا تلخيص ما ذكره عبد الرحمن بن منده مع أنه استوعب طرق هذا الحديث».[2]

قد اعتقد الشيخ ابن تيمية نزول الله تعالى مقيدًا بذاته وحاول أن يثبته من الحديث الموضوع بناء على أن معناه موافق بالقرآن والسنة، وإن لم يوجد فيهما لفظه، وهذا أكبر الخطايا والتحكم والافتراء منه على الدين فإن القرآن والسنة سكتًا عن هذه المسألة العقدية، أعني أنهما خاليان عن كيفية النزول والاستواء مقيدًا بذاته أو مطلقًا، هذا ولا نذهب هنا إلى التفصيل، لأنه لا مجال للمناقشة هنا.

وكذا سئل الشيخ ابن تيمية:عن أحاديث يرويها القصاص وغيرهم بالطرق وغيرها عن النبي ﷺ ، منها ما يروون أنه قال:«أدبني ربي فأحسن تأديبي» فأجاب:«الحمد لله، المعنى صحيح لكن لا يعرف له إسناد ثابت».[3]

---

[1] سئل الإمام أحمد ﷺ عن الاستواء فقال :"استوى كما أخبر لا كما يخطر للبشر." ذكره الإمام أحمد الرفاعي في "البرهان المؤيد." (ص ٢٤) والإمام الحصني في "دفع شبه من شبه وتمرد ونسب ذلك على السيد الجليل أحمد" (ص:١٧)، وغيرهما.

[2] مجموع الفتاوى (٥/ ٣٩٤) المدينة النبوية، المملكة العربية، السعودية.

[3] مجموع الفتاوى(١٨/٣٧٥) المدينة النبوية، المملكة العربية، السعودية.

الشيخ الألباني وتصحيح الأحاديث الموضوعة:

روى البيهقي والدار القطني عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أنها قَالَتْ:«قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهَّ أَسْتَدِينُ وَأُضَحِّي؟ قَالَ: «نَعَمْ فَإِنَّهُ دَيْنٌ مَقْضِيٌّ».[1]

إن الشيخ الألباني بحث على أن هذه الرواية بالاستيعاب وقال إنها منكرة وواهية، والمنكر والواهي لدي الألباني في حكم الموضوع، ومع ذلك صحح معنى هذه الرواية فقال:قلت«من الواضح جداً أن هذا الحديث واه من حيث الرواية، ولكن يبدو لي أن معناه صحيح من حيث الدراية؛ فقد ثبت عن عائشة نفسها أنها قالت: قال رسول الله – ﷺ-: «من حمل من أمتي ديناً، ثم جهد في قضائه، فمات ولم يقضه؛ فأنا وليه»[2].

لتصحيح هذه الرواية قدم الشيخ الألباني عديدًا من الأحاديث الصحيحة غير هذه الرواية.

لقد تبين من هذه الأمثلة أن الروايات التي لا أصل لها يعني لم نجد لها سندًا جيدًا في كتب المتون ولكن معنى هذه الروايات صحيح وثابت ومؤيد بآيات القرآن والروايات الصحيحة فينبغي للباحث عند المناقشة والبحث أن يسكت عن حكم الوضع مع دعم معناه، كما فعل الإمامان العراقي والسخاوي في العديد من الأماكن عند تخريج الروايات لكي لا تبتلى الأمة الإسلامية خوضًا بسوء في حق علماء الأمة من المحدثين والفقهاء والصوفية مع الرغم أنهم أعلم بهذه الروايات، نعم، إذا كانت الرواية مخالفة وضد القواعد العامة الدينية، فينبغي إنكارها ورفضها فإن العلماء هم أيضًا بشر ليسوا ملائكة.

وأيضًا قد تبين منها أن الحديث يرد إذا كان مخالفًا للنصوص المحكمة مع صحة إسناده فلم لا يسوغ لنا أن نقبل الأحاديث المروية بأسانيد ضعيفة أو مبهمة لموافقتها القرآن والسنة الصحيحة؟

ولذلك من المناسب لنا أن ننقل هنا كلامًا بارعًا دقيقًا للشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى: منها أن يقبل على العمل بأحاديث الفضائل كلها، ولو قيل بضعف سندها فإنها لا تخرج عن الشريعة، حتى الأحاديث الموضوعة فإنه لولا شعاع الشريعة يشهد لها ما اهتدى الواضع لمعرفة اسم ذلك الحكم الذي وضع فيه الحديث فضلًا عن دليله، وتأمل قوله-ﷺ-: لا سبق إلا في خف أو حافر ــ الحديث ــ كيف زاد الواضع لبعض الخلفاء "أو جناح" حين كان يسابق بالطيور، فلولا ذكر الخف والحافر ما اهتدى لذكر الجناح.

وكذلك لولا ما ورد من فضائل السور والأدعية ما وضع الواضعون في ذلك شيئًا لعدم شيء يقيسون عليه، أما الموضوع المفضول فضلًا عما دونه فلا يعبأ به، فما بقي عليه ــ أي الواضع للفاضل من

---

[1] سنن الدارقطني (٥١٠/١٠، ح:٤٧٥٥) السنن الكبرى للبيهقي (٤٤٠/٩، ح:١٩٠٢١)

[2] سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيء في الأمة (١٧٠/٩) دار المعارف، الرياض – المملكة العربية السعودية.

الأعمال ـــ من لوم إلا في عزو ذلك اللفظ بخصوصه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا غير، فحكم الحديث الموضوع في العمل وحكم أقوال المجتهدين المأخوذة من شعاع الشريعة سواء.[1]

ما حكم رواية الأحاديث التي ليس لها سند؟

ذكر العلماء في باب الفضائل الروايات التي لا سند لها ولاوجود لها في المتون والمسانيد والمجاميع ثم من جاء بعدهم نسخ ونقل عنهم في كتبه؛ لأنه أراد لذكر الأحاديث في باب الفضائل أن يكتفي بنقل عالم معتمد في كتابه، واعتبر صحيحًا، لاحظ أيضا مثالًا على ذلك:

قال القاضي عياض: «عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في كلام بكى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عند الله أن بعثك آخر الأنبياء وذكرك في أولهم فقال: ﴿وَ إِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيّٖنَ مِيْثٰقَهُمْ وَمِنْك وَ مِنْ نُّوْحٍ وَّ إِبْرٰهِيْمَ وَ مُوْسٰى وَ عِيْسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۪ وَ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِّيْثٰقًا غَلِيْظًا﴾(الأحزاب:٧) بأبي أنت وأمي يا رسول الله لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول».[2]

وقال الخفاجي في نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض عند تخريج الحديث:

«قال السيوطي في تخريجه: لكن صاحب اقتباس الأنوار وابن الحاج في مدخله، ذكراه في ضمن حديث طويل، وكفى بذلك سندًا لمثله، فإنه ليس مما يتعلق بالأحكام».[3]

انظر إلى القاضي عياض (٥٤٤هـ)، وعبد الله بن علي الرشاطي (٥٤٢هـ) وابن الحاج المكي (٧٣٣هـ) فقد ذكروا في كتبهم هذه الرواية بدون سند، ثم نقلها من الرشاطي أبو العباس القصار في شرح قصيدة البردة للبوصيري، والإمام أحمد القسطلاني في المواهب اللدنية، والشيخ عبد الحق الدهلوي في مدارج النبوة.

وبهذه المناقشة الطويلة والمفصلة يتضح أن حكم الوضع على الرواية لم يكن سهلًا للعلماء، ومن ثم نقدم تعليقًا جميلًا للعلامة الزركشي (٧٩٤هـ) فيما يلي:

«قد حكم جمع من المتقدمين على أحاديث بأنه: لا أصل لها، ثم وجد الأمر بخلاف ذلك،وفوق كل ذي علم عليم، فينبغي أن يقال:إنه يبحث عن ذلك ويراجع من له عناية بهذا الشأن، فإن لم يوجد عندهم ما يخالف ذلك اعتمد حينئذ ».[4]

---

[1] إرشاد الطالبين إلى مراتب علماء العاملين، ص: ١٠٨، دار الكرز، مصر.

[2] كتاب الشفا،القسم الأول، الباب الأول ، الفصل السابع (٤٥/١) دار الفكر الطباعة والنشر والتوزيع.

[3] نسيم الرياض فى شرح شفاء القاضى عياض، القسم الأول،الباب الأول ، الفصل السابع (٣٩٠/١) دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م.

[4] النكت على مقدمة ابن الصلاح، النوع الحادي والعشرون معرفة الموضوع (٢٦٧/٢) أضواء السلف – الرياض، ١٩٩٨.

تصحيح حديث: «الْفَقْرُ فَخْرِي وَبِهِ أَفْتَخِرُ»

في هذا المقام لن يكون فارغًا من الفائدة أن نبحث عن هذه الرواية المشهورة عند الصوفية الصافية.

قال الصنعاني وابن تيمية وابن حجر وغيرهم من المحدثين: «إن هذه الرواية لا أصل لها، وهي موضوعة و مختلقة».

والسبب في ذلك أنهم لم يجدوا سندًا لها ولم يدركوا معانيها الصحيحة بل رجعوا إلى التاويلات الفاسدة فزلوا وحكموا بأنها موضوعة.

إن الاحتياج إلى الدنيا ومافيها شيء لا يفتخر به؛ لأن النبي -ﷺ- كما استعاذ من فتنة الغنى استعاذ من فتنة الفقر أيضًا؛ فقد روى الشيخان عن عائشة -رضي الله عنها-، قالت: كان النبي ﷺيقول:«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَفِتْنَةِ القَبْرِ وَعَذَابِ القَبْرِ، وَشَرِّ فِتْنَةِ الغِنَى وَشَرِّ فِتْنَةِ الفَقْرِ»[1]

وقال ﷺ أيضًا: «عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي لِيَجْعَلَ لِي بَطْحَاءَ مَكَّةَ ذَهَبًا، قُلْتُ: لاَ يَا رَبِّ وَلَكِنْ أَشْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا، أَوْ قَالَ ثَلاَثًا أَوْ نَحْوَ هَذَا، فَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ، وَإِذَا شَبِعْتُ شَكَرْتُكَ وَحَمِدْتُكَ»[2]

فبهذا السبب نقد العلماء هذه الرواية و أنكروها لكن شيخنا الفاضل الداعية الإسلامي الشيخ أبا سعيد إحسان الله المحمدي يقول:«أولًا وقبل كل شيء، اعلم أن المحدثين قالوا: إنها موضوعة باطلة بسبب عدم وجود سند، ولكن إذا تفكروا في معناها فهو صحيح، فإن الافتقار والاحتياج إلى الدنيا و ما فيها شيء مذموم، وضده الغنى عن الدنيا و ما فيها فهو محمود، ولكن الافتقار إلى خالق الكون رب العلمين مطلوب وصاحبه محبوب؛ فإن الله يقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ ۚ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيْدُ﴾ [فاطر:١٥] وقال أيضًا: ﴿وَ اللهُ الْغَنِيُّ وَ أَنْتُمُ الْفُقَرَآءُ﴾ [محمد:٣٨] فالتوكل على الله وحده والاحتياج إليه والغنى عما سواه كمال للعبودية، وأودع الله في رسوله جميع كمالات العبودية، وصفة الفقر منها؛ فهي أيضًا صفة يفتخر بها متبعوه».

إن المحدثين يزعمون أن رسول الله -ﷺ- طلب الاستعاذة من فتنة الفقر وهذا صحيح في جانب، فإن معظم الصحابة كانوا أغنياء، ورسول الله- ﷺ - و الخلفاء الراشدين عملوا للتكافل الاجتماعي، وبعد زمن عسير وضيق، فتح الله أبواب الخيرات على أخيار هذه الأمة، وفي جانب آخر بعض الصحابة لم يجتهدوا في كسب الأموال لا كسلًا وإنما زهد منهم كسيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وأصحاب الصفة، ووجهوا هممهم وعزائمهم لتحصيل العلوم الدينية، والمعرفة الإلهية، وإعلاء كلمة الحق، فإنهم أحبوا الفقر

[1] صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب الاستعاذة...، (٦٣٧٧) صحيح مسلم ،كتاب الذكر...، باب التعوذ من شر الفتن (٥٨٩).

[2] سنن الترمذي،أبواب الزهد، باب ما جاء في الكفاف والصبر عليه (٢٣٤٧)، مسند أحمد (٢٢١٩٠).

والقناعة اتباعًا للسنة النبوية، هذا تأويلي وفهمي والعلم عند الله.

تصحيح الخبر لتلقي الأمة له بالقبول:

وهذه طريقة معروفة في تطبيقات واختيارات أهل العلم قديمًا، ومنها الحديث المشهور: «لا وصية لوارث» وهو ضعيف من كل طرقه، لكنه معمول به ومقبول لدى علماء الأمة قديمًا وحديثًا؛كما قال الإمام الشافعي:«إنه لا يثبته أهل الحديث، ولكن العامة تلقته بالقبول، وعملوا به؛ حتى جعلوه ناسخًا لآية الوصية له».[1]

ويقول العلامة ابن عبد البر تعليقًا على الرواية الضعيفة:«لما حكي عن الترمذي أن البخاري صحح حديث البحر: "هو الطهور ماؤه" وأهل الحديث لا يصححون مثل إسناده، لكن الحديث عندي صحيح؛ لأن العلماء تلقوه بالقبول».[2]

وكذا قال العلامة الكمال ابن الهمام:«ومما يصحح الحديث أيضًا عمل العلماء على وفقه، وقال الترمذي عقب روايته: حديث غريب، والعمل عليه عند أهل العلم من أصحاب رسول الله- ﷺ- وغيرهم. وفي الدارقطني، قال القاسم وسالم: عمل به المسلمون، وقال مالك: شهرة الحديث بالمدينة تغني عن صحة سنده».[3]

وههنا سؤال، وهوأنه إذا تلقت الأمة حديثًا يُعدّ مقبولًا ويعمل به، ولكن الشخص الذي تلقت الأمة شخصيته وعلمه وديانته وعدالته، إذا نقل رواية في فضائل الأعمال على أساس قرينة دالة على صحته أو إسناد لم يصل إلينا أو من كشفه لماذا لا تقبل روايته؟

قبول الحديث ورده عن طريق التجربة:

التصحيح والتضعيف عن طريق التجربة والواقع، هو أيضًا مذهب جماعة من أهل العلم وكثير من الصوفية، وقد اعتمده الإمام الحاكم والطبراني والمنذري والنووي والسخاوي.

فقد روى الإمام الطبراني بإسناده عن النبي ﷺ قال:«إذا أضل أحدكم شيئًا أو أراد أحدكم عونًا وهو بأرض ليس بها أنيس، فليقل: يا عباد الله، أغيثوني، يا عباد الله، أغيثوني، فإن لله عبادًا لا نراهم».[1]

وعلق عليه بقوله: «وقد جُرب ذلك».

---

[1] فتح المغيث بشرح ألفية الحديث للسخاوي (١/ ٣٥٠)مكتبة السنة – مصر، ٢٠٠٣م.

[2] تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (١/ ٦٦) دار طيبة.

[3] فتح القدير، لكمال بن الهمام، كتاب الطلاق (٣/ ٤٩٣) دار الفكر.

[1] المعجم الكبير (١٧/ ١١٧رقم: ٢٩٠) مكتبة ابن تيمية – القاهرة.

وقال العلامة عبد الرحمن السخاوي: «وسنده ضعيف»، لكن قال النووي: «إنه جرّبه هو وبعض أكابر شيوخه».[1]

وقال العلامة محمد بن إدريس القادري (١٣٥٠ هـ) عن صحة حديث «ماء زمزم لما شرب له».

هذا الحديث صحيح متنًا وسندًا وتجربة وكشفًا.[2]

قال المحدث الألمعي سيدي عبد العزيز بن الصديق الغماري: «قد أذكر في هذه الأربعين بعض الأحاديث التي لا تبلغ درجة الصحيح والحسن، ولكنها لا تنزل مع ذلك عن درجة الضعيف المنجبر، إما بورودها من طرق تعضدها وترفعها إلى درجة الحسن لغيره، كما هو مقرر في علم الحديث، وإما بكون خبرها مطابقًا للواقع، وذلك شاهد قوي لصدق راويها وإن لم يكن لها طريق آخر يشهد لها، وقد حكم الحفاظ على كثير من أحاديث الضعفاء بالثبوت لمطابقتها للواقع، وهذا معلوم عندهم ومقرر في كتبهم، بل إنهم ربما يعتمدون على التجربة في ثبوت الخبر وجواز العمل به، كما وقع منهم ذلك في حديث ابن مسعود في صلاة الحاجة: "اثنتا عشرة ركعة تصليهن من ليل أو نهار". الحديث رواه الحاكم في "المائة" له وغيرها، ومن طريقه البيهقي، وذكر الحاكم أن جمعًا من رواته جربوه فوجدوه حقًا. قال الحاكم: قد جربته فوجدته حقًا، وذكره الحافظ المنذري- رحمه الله - في الترغيب والترهيبفقال بعد أن ضعّف سنده: والاعتماد في مثل هذا على التجربة لا على الإسناد، وهذا العمل منهم موافق للمقرر عندهم في المصطلح وعلوم الحديث، وذلك أنهم قرروا أن الراوي الضعيف الواهي قد يصدق ويأتي بالحديث على وجهه، فإذا ثبت ما يدل على صدقه ورواية الحديث على وجهه صُحّح حديثه وعمل به».[3]

كانت هذه أقوال العلماء والمحدثين في ثبوت الروايات بالتجربة، وإليك الآن قصة الذي ابتلي بترك العمل بالأحاديث الضعيفة أو الموضوعة استخفافًا بها لتكون عبرة ووعيدًا.

وجاء في رواية :«من احْتَجَمَ يَوْمَ السَّبْتِ وَيَوْمَ الأَرْبَعَاءِ فَأَصَابَه وَضَحٌ فَلا يَلُوْمَنَّ إلا نَفْسَه »

ذكر ابن الجوزي هذه الرواية في الموضوعات، ولكن السيوطي رد عليه وبحث على رواة إسناده مفصلًا مع بيان متابعاته وشواهده، وفي نهاية البحث أورد قصتين استدلالًا من حيث التجربة على صحة هذه الرواية فقال:«قال الديلمي: قد روى هذا الحديث ابن عباس وابن عمر وابن عمرو وعبد الله بن جراد وأنس وجابر وعمران ومعقل ثم قال: سمعت أبي يقول سمعت أبا عمر ومحمد بن جعفر بن مطر

---

[1] الابتهاج بأذكار المسافر والحاج (ص: ٣٩) دار الكتاب العربي، مصر، ١٩٥٢م.

[2] إزالة الدهش والوله عن المتحير في صحة حديث ماء زمزم لما شرب له (ص: ١٨٨) المكتب الإسلامي – بيروت.

[3] الأربعين العزيزية (ص: ١٨) واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم، فلسطين.

النيسابوري قال: قلت: يومًا إن هذا الحديث ليس بصحيح، فافتصدت يوم الأربعاء فأصابني البرص فرأيت رسول الله في النوم فشكوت إليه حالي فقال:إياك والاستهانة بحديثي، فقلت: تبت يا رسول الله، فانتبهت وقد عافاني الله وذهب ذلك عني».

وأخرج ابن عساكر في تاريخه من طريق أبي علي مهران بن هرو الحافظ الهازي قال سمعت أبا معين الحسين بن الحسن الطبري يقول: «أردت الحجامة يوم السبت فقلت للغلام: ادع لي الحجام، فلما ولي الغلام ذكرت خبر النبي:" من احتجم يوم السبت ويوم الأربعاء فأصابه وضح فلا يلومن إلا نفسه».

قال: «فدعوت الغلام ثم تفكرت فقلت هذا حديث في إسناده بعض الضعف فقلت للغلام ادع الحجام لي فدعاه فاحتجمت فأصابني البرص فرأيت رسول الله في النوم فشكوت إليه حالي فقال إياك والاستهانة بحديثي. ونذرت لله نذرا لئن أذهب الله ما بي من البرص لم أتهاون في خبر النبي صحيحًا كان أو سقيمًا؛ فأذهب الله عني ذلك البرص».[1]

عدة من الأحداث مذكورة في الكتب المعتمدة ولكن تركتها حتى لا يكون سببًا للإطالة والملالة فإن الآية الواحدة كافية للهداية.

ولكن طائفة من المحدثين قد أنكروا ثبوت صحة الحديث بسبب التجربة، ومن بينهم المحدث الناقد المتعنت الشيخ ناصر الدين الألباني،فإنه قال بحثًا عن حديث الاستغاثة في الفلاة:

«العبادات لا تؤخذ من التجار، لا سيما ما كان منها في أمر غيبي كهذا الحديث، فلا يجوز الميل إلى تصحيحه بالتجربة! كيف وقد تمسّك به بعضهم في جواز الاستغاثة بالموتى عند الشدائد، وهو شرك خالص، والله المستعان».[2]

بغض النظر عن العقيدة الفاسدة التي حفزته على عدم قبول الحديث بالتجربة وهي الاستغاثة بالموتى عند الشدائد، سؤالي من هذه الطائفة أن الأحاديث التي رواها الرواة الثقات المتقنون ولكن متنها مخالف للقواعد الثابتة والتواريخ الصادقة والبدهيات المسلمة ردت بسبب الوهم الطاريء من الراوي الثقة فلِمَاذا لم تقبل الروايات التي وافقتها التجربة وإن كان الرواة كذابين؟

هل يجوز العمل بالرواية الموضوعة؟

إذا اتفق المحدثون والحفاظ على أن رواية ماموضوعة وكان الأمر من باب المباحات فالعمل بها جائز؛ وإذا كان العمل بها بنية حسنة يكون العمل مستحسنًا فإن العادة تصير عبادة بنية حسنة.

---

[1] اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة (٣٤١/٢) دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٩٦م.

[2] سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة (١٠٩/٢) دار المعارف، الرياض.

قال صاحب "الدر المختار" محمد بن علي الحنفي الحصكفي (١٠٨٨ هـ):«وأما الموضوع فلا يجوز العمل به بحال. أي ولو في فضائل الأعمال». [١]

فعقّب عليه الشيخ أحمد الطحطاوي (١٢٣١هـ) في "حاشيته": «أي حيث كان مخالِفاً لقواعد الشريعة. وأما لو كان داخلاً في أصلٍ عام، فلا مانع منه! لا بجَعْلِه حديثاً، بل لدخولِه تحت أصلٍ عام». [٢]

وأما السؤالفما هي الفائدة من العمل بالأحاديث الموضوعة؟ وهل يثاب العامل بها؟ قلت: أحسب أنه يجزى و يعطى الأجر إذا عمل العبد بنية الخير وإن لم يكن فيه رواية فإن الله تعالى يقول: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي». [٣]

وقد كتب الشيخ علي القاري الهروي بحثًا عن مرويات الأدعية الخاصة بكل عضو في الوضوء: «ثم اعلم أنه لا يلزم من كون أذكار الوضوء غير ثابتة عنه -صلى الله عليه وسلم- أن تكون مكروهة أو بدعة مذمومة بل إنها مستحبة استحبها العلماء الأعلام والمشايخ الكرام لمناسبة كل عضو بدعاء يليق في المقام». [٤]

افتراء المعاصرين على الأئمة المحدثين بأنهم تساهلوا في قبول الحديث من المبتدعة

في عصرنا الراهن أناس يرغبون في أن يُعدّ كلامهم نصًا محكمًا كالقرآن الكريم بل أعلى منه، فإن في القرآن تأويلًا ولكن في كلامهم لا مجال للتأويل ولا الريب، وهذه الطائفة تقول وتعتقد أن الأئمة المحدثين تساهلوا وتسامحوا في تلقى الحديث عن الرواة المبتدعة، ولو أنهم شددوا في الرواة لم يكن لدى أهل البدعة حجة لسوء فهمهم واعتقادهم.

إن هذه التهمةلأعلام المحدثين ليست نتيجة لفكر إيجابي بل عندما لم يحصلوا أي حجة لأن يتهموا جميع الأمة بالشرك حاولوا تدمير عماد الأمة وأسسها، وهم المحدثون والفقهاء والصوفية الذين صانوا الشريعة الإسلامية كتابة وحفظًا، وبلغوها إلى أقصى العالم بأبلغ جهد، وغرسوا العقيدة الصحيحة في قلوب الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، واعتمد الناس عليهم بدون تفريق بين طائفة أهل السنة والجماعة وهم المحدثون والفقهاء والصوفية كما قلت ولكن الطائفة المحدثة تقول: إن الصوفية مبتدعة ضالة، وأما المحدثون فقد أعانوا على نشر بدع الصوفية بالتساهل، فأين الأمانة؟ هل تلقوا الدين مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أو بواسطة هؤلاء العلماء الخائنين؟

---

[١] الدر المختار شرح تنوير الأبصار، كتاب الطهارة (ص:٢٣) دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢م.

[٢] حاشية الطحطاوي على الدر المختار(ص:٧٥).

[٣] مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الذكر والدعاء والتقرب إلى الله تعالى (٢٦٧٥).

[٤] الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة (٤٨٠/١) مؤسسة الرسالة – بيروت.

في هذا البحث نستعرض بين أيديكم واحدًا من اعتداءاتهم على المحدثين وهم يعتقدون أن هؤلاء الأئمة المحدثين تسامحوا وتساهلوا في أخذ الرواية عن المبتدعة، لا سيما الشيعة والروافض، فبهذا السبيل وصلت الحجج إلى الصوفية على اعتقادهم الفاسد.

فنقدم إليكم أولًا تاريخ بداية الشيعة والروافض، فقد بحث عن هذه القضية بحثًا جامعًا الأستاذ الدكتور راغب السرجاني وهو يقول فيما يلي:

إن القضية ليست قضية قوم يعيشون في بلد من البلاد، لها بعض المشاكل مع الدول المجاورة، إنما للقضية جذورٌ عقائدية وفقهية وتاريخية لا بُدَّ من العودة إليها.

يختلف كثير من المؤرخين حول البداية الحقيقية للشيعة، والذي يشتهر عند الناس أن الشيعة هم الذين تشيعوا لعلي بن أبي طالب في خلافه مع معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنهما- ولكن هذا يعني أن أتباع علي بن أبي طالب هم الشيعة، وأتباع معاوية بن أبي سفيان هم السُّنَّة. وهذا لم يقبل به أحد، فالسُّنَّة يعتقدون أن الحق في الخلاف الذي دار بين الصحابيين كان في جانب علي،وأن معاوية أخطأ ولم يصل إلى الصواب في المسألة، وعليه فانحياز فكر السُّنة إلى علي بن أبي طالب واضح. كما أن الأفكار والمبادئ والعقائد التي يقول بها الشيعة لم تكن من أفكار ومبادئ علي بن أبي طالب أبدًا؛ ولذلك فلا يصح أن يقال: إن بداية الشيعة كانت في هذا الزمن.

ومن المؤرخين من يقول: «إن بداية الشيعة كانت بعد استشهاد سيدنا الإمام الحسين -عليه السلام- وهذا رأي وجيه جدًّا، فقد خرج سيدنا الإمام الحسين على خلافة يزيد بن معاوية، واتجه إلى العراق بعد أن دعاه فريق من أهلها إليها، ووعدوه بالنصرة، ولكنهم تخلَّوْا عنه في اللحظات الأخيرة، وكان الأمر أن استُشهد الحسين في كربلاء، فندمت المجموعة التي قامت باستدعائه، وقرروا التكفير عن ذنوبهم بالخروج على الدولة الأموية، وحدث هذا الخروج بالفعل، وقُتل منهم عددٌ، وعُرف هؤلاء بالشيعة. وهذا يفسِّر لنا شدة ارتباط الشيعة بالحسين بن علي أكثر من علي بن أبي طالب نفسه، وهم – كما نشاهد جميعًا – يحتفلون بذكرى استشهاد الحسين- رضي الله عنهما- ولا يحتفلون بذكرى استشهاد علي بن أبي طالب ».

ومع ذلك، فنشأة هذه الفِرقة لم تكن تعني إلا نشوء فرقة سياسية تعترض على الحكم الأموي، وتناصر فكرة الخروج عليه، ولم يكن لها مبادئ عقائدية، أو مذاهب فقهية مختلفة عن أهل السُّنَّة، بل إننا سنرى أن القادة الأوائل الذين يزعم الشيعة أنهم الأئمة الشيعيَّة الأوائل ما هم إلا رجال من السُّنَّة يتكلمون بكل عقائد ومبادئ السُّنة.

استقرت الأوضاع نسبيًّا بعد شهور من استشهاد الحسين، وظهر في هذه الحقبة علي زين العابدين بن الحسين، وكان من خِيار الناس، ومن العلماء الزهَّاد، ولم يكن يُؤثَر عنه – رحمه الله – أيُّ مخالفات عقائدية أو فكرية لما كان عليه الصحابة أو التابعون..

وكان من أبناء علي زين العابدين رجلان عظيمان على درجة عالية من الورع والتقوى، هما محمد الباقر وزيد.. وكانا يتوافقان تمامًا مع ما يقوله علماء السُّنة من الصحابة والتابعين، غير أن زيد بن علي – رحمه الله – كان يختلف في أنه يرى أن علي بن أبي طالب كان أولى بالخلافة من أبي بكر الصديق، غير أن هذا الاختلاف ليس اختلافًا عقائديًّا، فهو يرى الفضل للخلفاء الراشدين الثلاثة الأوَائل، لكنه يرى عليًّا أفضل. كما أنه يقول بجواز إمامة المفضول، وهو بذلك لا ينكر إمامة الصديق وعمر وعثمان أما غير هذه النقطة فهو يتفق مع أهل السُّنة في كل عقائدهم ومبادئهم وفقههم.

ولقد قام زيد بن علي بالخروج على الخلافة الأموية مكرِّرًا تجرِبة جَدِّه الحسين بن علي- رضي الله عنهما-، وذلك في زمان هشام بن عبد الملك، وانتهى الأمر بقتله سنة (١٢٢هـ)، وقام أتباعه بتأسيس مذهب على أفكاره عُرف في التاريخ بالزيديَّة نسبة إليه (زيد بن علي)، وهذا المذهب وإن كان محسوبًا على الشيعة إلا أنه يتفق مع السُّنَّة في كل شيء إلا في تفضيل عليٍّ على الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل، وأتباع هذا المذهب منتشرون في اليمن، وهم أقرب الشيعة للسُّنَّة، وتكاد لا تفرِّقهم عن السنة في معظم الأحوال.

ومن الجدير بالذكر أن هناك طائفة من أتباع زيد بن علي سألوه عن رأيه في أبي بكر وعمر، فترحَّم عليهما، فرفضه هؤلاء ورفضوا الترحُّم على أبي بكر وعمر، وانشقُّوا عن فرقته، وهؤلاء عُرفوا في التاريخ بالرافضة؛ لأنهم رفضوا إمامة الشيخين أبي بكر وعمر من ناحية، ورفضوا رأي زيد بن علي من ناحية أخرى، وهؤلاء سيكون منهم من يؤسِّس بعد ذلك مذهب "الاثنا عشرية" أكبر مذاهب الشيعة.

ولقد مات محمد الباقر أخو زيد بن علي قبل أخيه بثماني سنوات في سنة (١١٤هـ)، وترك ابنًا عالمًا جليلاً هو جعفر الصادق، وهو أيضًا من العلماء الأفذاذ، وكان فقيهًا بارعًا، وكان يقول بكل عقائد الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين.

وفي أواخر عهد الخلافة الأموية قامت الحركة العباسية بنشاط لتجميع الناس للانقلاب على الخلافة الأموية، وتعاونت هذه الحركة مع المجموعات التي انشقت عن زيد بن عليٍّ، وتم إسقاط الخلافة الأموية سنة (١٣٢هـ)، وقامت الخلافة العباسية بقيادة أبي العباس السفَّاح ثم أبي جعفر المنصور، وشعر المتعاونون معها بخيبة أمل؛ إذ كانوا يريدون أن تكون الزعامة في أحد أحفاد علي بن أبي طالب، ومن جديد قام هؤلاء

بالانقلاب على الخلافة العباسية مكوِّنين جماعة عُرفت بالطالبيين (نسبة إلى علي بن أبي طالب في مقابل العباسيين المنسوبين إلى العباس بن عبد المطلب)

وإلى هذه اللحظة (التاريخية) ليست هناك مخالفات عقائدية وفقهية، إلاَّ قضية الحكم على أبي بكر وعمر؛ لأنَّ فريقًا من هؤلاء – وهم الذين انشقوا عن زيد بن علي – كانوا يرفضونهما، بل لا يخفون لعنهما.

توفِّي جعفر الصادق سنة(١٤٨هـ)، وترك ابنًا اسمه موسى الكاظم، الذي كان عالمًا أيضًا، ولكن ليس على مستوى أبيه، وتوفِّي أيضًا في عام(١٨٣هـ)، تاركًا مجموعة من الأولاد منهم علي بن موسى الرضا.

ولقد أراد الخليفة العباسي المشهور المأمون أن يستوعب فتنة الطالبيين، الذين يطالبون بالحكم لفرع علي بن أبي طالب وليس لفرع العباس فولَّى علي بن موسى الرضا ولاية العهد، وأثار هذا جدلاً واسعًا في العباسيين، غير أن علي بن الرضا مات فجأةً سنة(٢٠٣هـ)، فاتَّهَم الطالبيون المأمون بقتله، ومن جديد توالت ثوراتهم على العباسيين كما كانت على الأمويين.

مرت السنوات، وهدأت جذور الثورات نسبيًّا، وإلى هذه الحقبة لم يكن هناك مذهبٌ ديني مستقل يُعرَف بمذهب الشيعة، إنما كانت حركات سياسية للوصول إلى الحكم، والاعتراض على الحكام لأسبابٍ كثيرة، ليست منها الأسباب العقائدية التي في مناهج الشيعة الآن.

ومن اللافت للنظر أن هذه الدعوات الانشقاقية عن الحكم وجدت لها صدًى واسعًا جدًّا في منطقة فارس (إيران حاليًا)، وكان الكثير من سكان هذه المناطق على مدار السنوات يشعرون بالحسرة لذهاب مُلك الدولة الفارسية الضخمة، وانصهارها في داخل الدولة الإسلامية، وكانوا يرون أنفسهم أعلى نسبًا، وأفضل عرقًا، وأعمق تاريخًا من المسلمين؛ لذلك ظهر فيهم ما يسمَّى بالشعوبيَّة، وهي الانتماء لشعب معيَّن وليس للإسلام، وأظهر بعضهم حبًّا جارفًا لجذوره الفارسية بكل ما فيها، حتى النار التي كانوا يعبدون.

ولما كان هؤلاء لا طاقة لهم بمفردهم للخروج على الدولة الإسلامية، ولما كانوا مسلمين على مدار عِدَّة عقود من السنوات، فقد وجدوا في ثورات الطالبيين حلاًّ بديلاً، فهم سينضمون إليها؛ليسقطوا الخلافة الإسلامية التي أسقطت دولتهم قبل ذلك،وهكذا اتحدت جهود الشعوبيين الفارسيين مع طائفة من الطالبيين من آل البيت، لتكوِّن كيانًا جديدًا بدأ يتبلور ككيان مستقل، ليس سياسيًّا فقط بل دينيًّا أيضًا.

وعودة إلى سلسلة الطالبيين نجد أنه بعد وفاة علي الرضا الذي اختاره المأمون وليًّا للعهد، ظهر ابنه محمد الجواد ثم توفِّي في سنة (٢٢٠هـ)؛ ليظهر ابنه علي بن محمد الهادي الذي توفي سنة (٢٥٤هـ)؛ ليظهر أخيرًا الحسن بن علي الملقَّب بالعسكري، الذي توفي فجأةً سنة (٢٦٠هـ)، ولم يترك إلا ابنًا صغيرًا عمره خمس سنوات اسمه محمد.

في كل هذه السنوات السابقة كانت هذه الحركات الانفصالية، والتي تضمُّ طرفًا من آل البيت وطرفًا من الشعوبيين الفارسيين، كانوا يعطون قيادة هذه الفرقة الانفصالية إلى الابن الأكبر لكل واحدٍ من قيادات الطالبيين، بدءًا من علي الرضا وانتهاءً بالحسن العسكري. أما من سبق عليًّا الرضا مثل أبيه موسى الكاظم، أو جَدِّه جعفر الصادق، أو أبي جَدِّه محمد الباقر فلم يكن لهم قيادة ثورية على الحكم الأموي أو العباسي.

ولكن عند وفاة الحسن العسكري سنة (٢٦٠هـ) وقع هؤلاء الثوريون في حَيْرة كبيرة، فمَن هذا الذي يتولى أمرهم، وقد ترك الحسن العسكري طفلاً صغيرًا، ثم زاد الأمر اضطرابًا عندما توفِّي هذا الطفل الصغير هو الآخر فجأة؛ لتنقسم هذه المجموعات الثورية إلى فرقٍ كثيرة جدًّا يختلف بعضها عن بعض في المبادئ والأفكار، بل في الشرائع والمعتقدات.

وكان من أشهر هذه الفرق التي ظهرت "الإثنا عشرية" وهي الفرقة الموجودة الآن في إيران والعراق ولبنان، وهي أكبر فرق الشيعة في زماننا المعاصر.

وبدأ قادة هذه الفرقة يضيفون إلى الإسلام ما يناسب الموقف الذي يتعرضون له الآن، وما يضمن لفرقتهم أن تُكمِل المشوار في ظل غياب قائد لهم.[1]

ليس هناك شك في أن الشيعة كانت عمومًا حزبًا سياسيًا متجادلًا في الحكم مع الحكومة الأموية والعباسية،فلا مانع في أخذ الحديث عن الرواة الذين نسبوا إلى الشيعة في بداية الأمر إلى٢٦٠هـ؛لأن معتقداتهم كانت متوافقة مع أهل السنة، وزعماءهم أئمة هداة، فالاحتراز عنهم لا يبتني على أساس بل يخالف الحقائق التاريخية، والدراسة الإقناعية.

وكذا ينبغي استعراض آراء الطوائف الأخرى المنتسبة إلى البدعة، و بسياق واسع، والنظر في جميع المعتقدات لهذه الطوائف المبتدعة يظهر أنها كانت ضد أهل السنة، أو كانت هناك اختلافات في عدد قليل من القضايا الفرعية، فلا حرج عندي في قبول روايتهم إذا لم يكن صاحبها متهمًا بالكذب مع الورع والحفظ والإتقان وإلا فهو عنف أشد العنف.

وبالنظر إلى كل هذه الأسباب، لم يَرُدَّ أئمة المحدثين رواية المبتدعة مطلقًا؛ ولذلك هناك بعض القواعد تنص على أنه لا يمكن لأحد أن يعزو أي شخص إلى بدعة ويرد جميع رواياته، ألا ترى أن عديدًا من المراكز العلمية كانت تعزى إلى البدعة مثل البصرة إلى القدرية والكوفة إلى الشيعة، فإذا كانت جميع الأحاديث التي رويت عنهم تعدُّ باطلة إذن من أين نأخذ الأحاديث؟ فلن يبقى أي كتاب خاليًا عن الضعف والوضع، ولا

[1] الشيعة .. نضال أم ضلال؟ (٦-١٠) أقلام ، القاهرة.

الأئمة عن النقد والجرح، فيا للعجب!

بحث النووي فيما يتعلق بالبدعة وأهلها متبعًا لابن الصلاح فقال: «من كفر ببدعته لم يحتج به بالاتفاق، ومن لم يكفر قيل: لا يحتج مطلقًا، وقيل: يحتج به إن لم يكن ممن يستحل الكذب في نصرة مذهبه، أو لأهل مذهبه، وحكي عن الشافعي. وقيل: يحتج به إن لم يكن داعية إلى بدعته، ولا يحتج به إن كان داعية، وهذا هو الأظهر الأعدل، وقول الكثير الأكثر، وضعف الأول باحتجاج صاحبي الصحيحين وغيرهما بكثير من المبتدعة غير الدعاة».[1]

وقد بحث الإمام جلال الدين السيوطي في شرحه بحثًا مفصلًا، ونقل فيه أقوال الأئمة الأجلة وأعرض لكم قولين من هذه الأقوال بمناسبة الحال، القول الأول قول الحافظ الذهبي في "ميزان الاعتدال" فيما يتعلق بالشيعة خاصة:«البدعة على ضربين:صغرى كالتشيع بلا غلو، أو بغلو، كمن تكلم في حق من حارب عليا، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع والصدق، فلو رد حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بينة».

ثم بدعة كبرى كالرفض الكامل والغلو فيه، والحط على أبي بكر وعمر والدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة.

وأيضًا فما استحضر الآن في هذا الضرب رجلًا صادقًا ولامأمونًا، بل الكذب شعارهم والتقية والنفاق دثارهم.[2]

هذه المقالة من الحافظ ابن حجر قارعة للأشخاص الذين يضللون الأئمة باسم التصوف أو الصوفية، وهو يقول:«التحقيق أنه لا يرد كل مكفر ببدعته؛ لأن كل طائفة تدعي أن مخالفتها مبتدعة، وقد تبالغ فتكفر مخالفيها، فلو أخذ ذلك على الإطلاق لاستلزم تكفير جميع الطوائف، والمعتمد أن الذي ترد روايته: من أنكر أمرًا متواترًا من الشرع معلومًا من الدين بالضرورة، أو اعتقد عكسه، وأما من لم يكن كذلك، وانضم إلى ذلك ضبطه لما يرويه مع ورعه وتقواه، فلا مانع من قبوله».[1]

بعد هذه الأقوال لأئمة الحديث لا حاجة لنا إلى تعليق مزيد فتأملوا، يا أولي الألباب!

حتى الآن قد تم الكلام عن طائفة متشددة من المحدثين ومنهجها في النقد والجرح وحاولت إنشاء رأي معتدل، وهو رأى الصوفية الكرام أيضًا لكي لا نترك العمل بالسنة، ولا ندخل شيئا جديدا في الدين.

---

[1] تقريب النواوي مع شرحه تدريب الراوي (١/ ٣٨٣) دار طيبة.
[2] تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (١/ ٣٨٦) دار طيبة.
[1] تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي (١/ ٣٨٤) دار طيبة.

وفي السطور التالية، نتكلم عن منهج خاص بالصوفية الصافية، وهو قبول الحديث وتصحيحه عن طريقة الكشف والإلهام، فإنهم صححوا الأحاديث وضعفوها بالكشف، بل تلقوا الأحاديث مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في عالم الواقع وفي الرؤيا.

قبول الحديث ورده عن طريق الكشف والإلهام:

التصحيح عن طريق الكشف والإلهام: هو مذهب معتبر عند السادة الصوفية وأنكره عليهم أهل الظاهر، ونبسط هذا الموضوع إن شاء الله تعالى بسطا غير ممل و لكن نبدأ الكلام عن حقيقة الكشف والإلهام وحجيتهما.

حقيقة الكشف ومعناه وأنواعه:

الكشف لغة: رفعك للشيء عما يواريه، وكشف الأمر: أظهره.

وفي الاصطلاح: هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الخفية وجودًا أو شهودًا. [1]

أنواع الكشف:

أ : رؤية النبي صلى الله عليه وسلم:

يقول الغزالي: «حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد».[2]

ب: رؤية الخضر عليه السلام:

يقول الإمام النووي: «وحكاياتهم (أى المتصوفة) في رؤيته والاجتماع به. أكثر من أن يحصر».[1]

ويقول ابن عطاء السكندري(٧٠٩ هـ) في الأخذ عن الخضر: «واشتهر ذلك إلى أن بلغ حد التواتر».[2]

ج: الإلهام:

ما وقع في القلب من علم وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة.[3] وسمي بـ"العلم اللدني"؛لأنه يقذفه الله في القلب إلهاما بلا سبب من العبد، ولا استدلال.[4]

---

[1] التعريفات للجرجاني (ص:٩٧) دار الكتب العلمية بيروت.

[2] المنقذ من الضلال (ص:١٧٨) دار الكتب الحديثة، مصر.

[1] شرح صحيح مسلم للنووي (١٣٥/١٥) ط: إحياء التراث، تهذيب الأسماء واللغات للنووي (١٧٨/١) ط: الفكر.

[2] فيض القدير للمناوي (٤/ ٣٠) المكتبة التجارية الكبرى – مصر.

[3] التعريفات (ص:٣٤) دار الكتب العلمية بيروت.

[4] مدارج السالكين (١٠١/٣) دار الكتاب العربي – بيروت.

وقال أبو المواهب الشاذلي في رده على من أنكر «حدثني قلبي عن ربي»:«لا إنكار؛ لأن المراد أخبرني قلبي عن ربي من طريق الإلهام الذي هو وحي الأولياء».[1]

د : الفراسة:قال الواسطي: «إن الفراسة: سواطع أنوار لمعت في القلوب، وتمكين معرفة حملت السرائر في الغيوب من غيب إلى غيب، حتى يشهد الأشياء من حيث أشهده الحق سبحانه، إياها؛ فيتكلم على ضمير الخلق».

وقال القشيري:«كل من كان أقوى إيمانًا كان أحدّ فراسة».[2]

هـ : الهواتف: لفظ منظم يقرع السمع لمن صفا قلبه في اليقظة وقد يكون لأي امرئ، وقد أفرد الكلاباذي بابًا مستقلًا للهواتف من كتابه "التعرف لمذهب أهل التصوف" وهو لا يخلو عندهم أن يكون ملكًا أو وليًا أو صالحًا أو الخضر أو الله عز وجل أو إبليس، ويكون تلقي الهاتف إما يقظة أو مناما أو بينهما.[3]

و : الإسراءات والمعاريج:

يقول الشعراني:«قد صرح المحققون بأن للأولياء الإسراء الروحاني إلى السماء، وبمثابة المنام يراه الإنسان، ولكل إنسان منهم مقام معلوم لايتعداه، وذلك حين يكشف له حجاب المعرفة، فكل مكان كشف له فيه الحجاب حصل به المقصود، فمنهم من يحصل له ذلك بين السماء والأرض، ومنهم من يحصل ذلك من السماء الدنيا ومنهم إلى سدرة المنتهى، إلى الكرسي، إلى العرش». [4]

وأن ما ورد عن الصوفية في ذلك يحمل على المعراج الروحي.

ز : الكشف الحسي: هو الكشف عما وراء الحجب الحسية العلوية والسفلية والاطلاع على حقائق الموجودات إما بالبصر أو البصيرة. ويظهر أن مرادهم بالكشف على الإطلاق هو هذا النوع، خاصة إذا قرن به غيره كقولهم: الكشف والإلهام.

ح: الرؤى المنامية: قال رسول الله ﷺ: «الرؤيا الحسنة، من الرجل الصالح، جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة». [1] وقال رسول الله ﷺ:« من رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل بي».[2]

---

[1] طبقات الشعراني (١٣٨/٢) مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة، ٢٠٠٥م.

[2] الرسالة القشيرية (٣٨٦/٢)دار المعارف، القاهرة.

[3] التعرف لأهل التصوف (ص: ١٥٠) دار الكتب العلمية، بيروت.الفتوحات المكية (٣٤٣،٣٤٢/٣).

[4] كشف الحجاب والران عن وجه أسئلة الجان، مخطوط لوحة: ١٢.

[1] صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب رؤيا الصالحين (٦٩٨٣).

[2] صحيح مسلم، كتاب الرؤيا، باب قول النبي عليه الصلاة والسلام من رآني في المنام فقد رآني (٢٢٦٦).

الأدلة اللامعة على حجية الكشف والإلهام والرؤيا الصادقة:

الأدلة التي يستشهد بها العلماء الربانيون، ويستندون إليها لإثبات جواز العمل بالكشف والإلهام: لها أنواع؛ منها الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، والآثار، والتجارب، والقصص، والحكايات، وغير ذلك.

وقد أورد الإمام الغزالي مبحثًا في إحياء علوم الدين بعنوان: "بيان شواهد الشرع على صحة طريق أهل التصوف في اكتساب المعرفة لا من التعلم، ولا من الطريق المعتاد" وساق تحته ما يراه من شواهد تؤيد دعواه. وبعد إيراد هذه الشواهد والأدلة قال: «فهذه شواهد النقل، ولو جُمع كل ما ورد فيه من الآيات، والأخبار، والآثار، لخرج عن الحصر». [1]

ولما كان الأمر كذلك فالمناسب هو الاقتصار على بعض الدلائل والشواهد، وبخاصة من الكتاب والسنة، وأهم الآثار عن الصحابة ومن بعدهم.

الكشف في القرآن الكريم:

والمعلوم أن الكشف والإلهام لنبينا وللأنبياء ــ عليهم الصلوات والتسليم ــ وحي ومعجزة، وللصحابة والأولياء من بعده كرامة، وكلُّ كرامة لولي معجزةٌ لنبيه- صلى الله عليه وسلم-.

ففي البداية نذكر من كشف الأولياء السابقين ما جاء في التنزيل العزيز، وكماتذكر بعض الإلهامات إلى غير الإنسان، ونترك ما كان في القرآن الكريم من الكشوف والإلهامات للأنبياء فلا مجال للإنكار فيها.

وإليكم نماذج من القرآن الكريم لإلهام الله إلى عباده الصالحين وإلى العجائب من الحيوانات والجمادات.

أما الإلهام إلى الإنسان في القرآن الكريم فقد قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص: ٧)

أي: عرفت بلانظر منها ولااستدلال؛ لأن حياة موسى في الإلقاء في البحر لم تكن وحيًا بملك تكلم بل علمت بذلك عن طريق الإلهام وكان حقا.

وأما الإلهام إلى الحيوان فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(النحل :٦٨،٦٩).

أي ألهمها حتى عرفت مصالحها. فإذا كان الجائز بل الواقع أن تلهم النحلة الضعيفة فما هو المانع من الإلهام إلى العبد المؤمن الصالح بل هو أولى؟! له منها.

---

[1] إحياء علوم الدين (٣/ ٢٤) دار المعرفة – بيروت.

وقد ألهم الله -عز وجل- إلى الجماد، وهذا أيضًا في القرآن، يقول تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَ أَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَ قَالَ الْإِنْسٰنُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحٰى لَهَا﴾ (الزلزلة: ١-٥).

أي: أخبر عز وجل أن الأرض تبين ما حدث عليها من الواقعات والأخبار، وذلك بإلهامها من الله -تبارك وتقدس- فالمؤمن أولى وأحق بذلك في الدنيا والآخرة.

هذه القصص والأخبار تدل على أن للكشف والإلهام حقيقة واقعة، لا ينكره أحد من علماء الإسلام، وأصحاب الدين والشريعة، ولا ينكرون أيضًا أن يعطي الله المؤمنين المتقيين فرقانًا ورحمة ومخرجًا، وأن يقذف في قلبهم نوراً يكشف لهم الحق والباطل، والخير والشر، والصواب والخطأ، والصحيح وغير الصحيح، وما ينبغي وما لا ينبغي.

والمعلوم أن الصلاح والتقوى ونور الهداية والتوفيق من الله تعالى، وبدونه لا يهتدي أحد من العالمين إلى الصراط المستقيم، ولا سبيل لأحد إلى معرفة الله لولا هداه، كما أشار إليه في التنزيل العزيز: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدٰىنَا اللّٰهُ﴾ (الأعراف: ٤٣)

وقال أيضًا: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْٓا إِنْ تَتَّقُوا اللّٰهَ يَجْعَلْ لَّكُمْ فُرْقَانًا وَّ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّاٰتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَاللّٰهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيْمِ﴾ (سورة الأنفال: ٢٩). وقال تعالى: ﴿وَ نَفْسٍ وَّ مَا سَوّٰىهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُوْرَهَا وَ تَقْوٰىهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰىهَا وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسّٰىهَا﴾ (الشمس: ٧-١٠).

وقال تعالى: ﴿وَ مَنْ يَّتَّقِ اللّٰهَ يَجْعَلْ لَّهٗ مَخْرَجًا وَّ يَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ؕ وَ مَنْ يَّتَوَكَّلْ عَلَى اللّٰهِ فَهُوَ حَسْبُهٗ إِنَّ اللّٰهَ بٰلِغُ أَمْرِهٖ قَدْ جَعَلَ اللّٰهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٢، ٣).

وقال تعالى: ﴿يٰأَيُّهَا الَّذِيْنَ اٰمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَ اٰمِنُوْا بِرَسُوْلِهٖ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَّحْمَتِهٖ وَ يَجْعَلْ لَّكُمْ نُوْرًا تَمْشُوْنَ بِهٖ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ؕ وَ اللّٰهُ غَفُوْرٌ رَّحِيْمٌ﴾ (الحديد: ٢٨)

وقال تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللّٰهُ صَدْرَهٗ لِلْإِسْلٰمِ فَهُوَ عَلٰى نُوْرٍ مِّنْ رَّبِّهٖ﴾ (الزمر: ٢٢).

أخبر عز وجل في هذه الآيات أنه عَرَّف النفس بالتقوى وأفاض عليها نور المعرفة والفرقان بين الحق والباطل والمخرج إلى سواء السبيل بالإيقاع في القلب وهو الإلهام فيكون حجة.

الكشف في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم:

إن حياة الرسول -صلى الله عليه وسلم- مملوءة ومزينة بالوحي المتلو؛ يعني: بواسطة جبريل -عليه السلام- وغير المتلو؛ يعني: مباشرة من الله بدون واسطة المَلَك، وهو معجزة خالدة.

وإليك بعض النماذج التي تتعلق بالكشف والإلهام؛ يعني: الوحي بدون الواسطة لدلالة وراثة قلوب العارفين الذين ورثوا هذا العلم الشريف.

عن أنس رضي الله عنه قال:«أُقيمت الصلاة، فأقبل علينا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- بوجهه فقال: "أقيموا صفوفكم وتراصُّوا، فإني أراكم من وراء ظهري».[1]

ولما كان الكشف بعيداً عن عالم الحس، انمحى أمامه المقياس الزماني والمكاني؛ ولذلك كان صلى الله عليه وسلم يستوي عنده في الرؤية القرب والبعد.

يقول أنس - رضي الله عنه-: «بعث رسول الله -ﷺ- زيداً، وجعفراً وابن رواحة، ودفع الراية إلى زيد، فأُصيبوا جميعًا، فنعَاهم رسول الله -ﷺ- إلى الناس قبل أن يجيءَ الخبر، فقال: "أخذ الراية زيد فأُصيب، ثم أخذها جعفر فأُصيب، ثم أخذها عبد الله بن رواحة فأُصيب، وإن عيني رسول الله -ﷺ- تذرفان، ثم أخذها خالد بن الوليد من غير إمرة، فَفُتِح له" قاله: صلى الله عليه وسلم يوم غزوة مؤتة».[2]

هذا للرسول ــ ﷺ ــ ولكن العارفين ورثوا خزانة هذا العلم المكنون والمصدور وأشار إليه الرسول ــ ﷺ ــ بقوله:«قد كان يكون فى الأمم قبلكم محدثون فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر بن الخطاب منهم.قال ابن وهب: تفسير محدثون: ملهمون».[1]

ومما يثير الدهشة في فكر هؤلاء أصحاب الظاهر بعد هذه التصريحات من الكتاب والسنة؛تجرؤهم في حكمهم على الإلهامات بأن جميع حكايات الإلهام خيال جامح؛ ولذلك يستدلون بحديث المبشرات المروي في البخاري.[2] ويقولون: ليست من النبوءات إلا المبشرات بصرف النظر عن النصوص المحكمة الأخرى من القرآن والأحاديث، من يخبر هؤلاء الناس أن الحصر يأتي أحيانًا للتأكيد في سياق القرآن والأحاديث لا للمعنى الحقيقي في جميع المواضع.

وكذا قال - ﷺ- لوابصة بن معبد الأسدي:«يا وابصة،استفت قلبك، واستفت نفسك" ثلاث مرات، وقال: "البر ما اطمأنت إليه النفس، والإثم ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك»[3]

---

[1] صحيح البخاري، باب إقبال الإمام على الناس، عند تسوية الصفوف (٧١٩).

[2] صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الرجل ينعى إلى أهل الميت بنفسه (١٢٤٦).

[1] صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل عمر ﷺ (٢٣٩٨).

[2] صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب المبشرات (٦٩٩٠) لفظه: عن أبي هريرة، قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: «لم يبق من النبوة إلا المبشرات» قالوا: وما المبشرات؟ قال: «الرؤيا الصالحة».

[3] مسند أحمد (٢٩/ ٥٣٣، ح:١٨٠٠٦) مؤسسة الرسالة.

فإن رسول الله- ﷺ- جعل شهادة القلب بلا دليل ظاهر أولى من الفتوى بالحجة، وبين لنا رسول الله- صلى الله عليه وسلم- ضابطًا في قبول الحديث ورده، فقال عليه السلام:«إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم، وتلين له أشعاركم، وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر أشعاركم، وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد فأنا أبعدكم منه».[1]

وهذا العرفان والهداية والنور في القلب من الله تعالى لا غير، ولكن طائفة من المحدثين وشراح الحديث قالوا: إن هذا الحديث لا يطبق إلا على أئمة المحدثين الذين تمكنوا من تمييز كلمات النبي وأسلوبه عن كلام الناس وأساليبهم، وكذا لديهم خبرة تامة نحو عدالة الرواة، وصدقهم وكذبهم، وحفظهم وإتقانهم، ومروياتهم، هل هي موافقة للنصوص الثابتة، أم لا؟

هذا صحيح، ومع ذلك فالحديث أيضًا دليل للعلماء الربانيين، وهم واصلون إلى عين الشريعة الكبرى ومغترفون من منهلها الصافيبدون واسطة، وتفيض الأنوار المحمدية دائمًا على قلوبهم ولذلك فهؤلاء هم الذين يفهمون ويدركون معاني أحاديث رسول الله- ﷺ- أكثر من المحدثين فإنهم أصحاب الجرح والتعديل في الرواة وضابطون لألفاظ المرويات، وأما العلماء الربانيون فهم أصحاب الحقائق وغواص المعاني لكلمات رسول الله - ﷺ- لمزيد من التوضيح، ولننظر إلى هذا الحديث الشريف نظرة دقيقة:عن أنس بن مالك«أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يومًا فاستقبله شاب من الأنصار يقال له: حارثة بن النعمان، فقال له: " كيف أصبحت يا حارثة؟ " قال: أصبحت مؤمنًا حقًا، قال: فقال رسول الله - ﷺ-: " انظر ما تقول، فإن لكل حق حقيقة إيمانك؟ "قال: فقال: عزفت نفسي عن الدنيا، فأسهرت ليلي وأظمأت نهاري، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزًا، وكأني أنظر إلى أهل الجنة كيف يتزاورون فيها، وكأني أنظر إلى أهل النار كيف يتعادون فيها، فقال: فقال له النبي- صلى الله عليه وسلم-: "أبصرت فالزم، مرتين، عبد نور الله الإيمان في قلبه" قال: فنودي يومًا في الخيل: يا خيل الله اركبي، فكان أول فارس ركب، وأول فارس استشهد، فجاءت أمه إلى النبي- ﷺ- فقالت: يا رسول الله، أخبرني عن ابني حارثة، أين هو؟ إن يكن في الجنة لم أبك ولم أحزن، وإن يكن في النار بكيت ما عشت في الدنيا، قال: فقال لها رسول الله- صلى الله عليه وسلم-: "يا أم حارثة، إنها ليست بجنة ولكنها جنان، وحارثة في الفردوس الأعلى"، قال: فانصرفت وهي تضحك وتقول: بخ بخ لك يا حارثة».[1]

---

[1] مسند أحمد : (٢٥/ ٤٥٦، ح:١٦٠٥٨) مؤسسة الرسالة.

[1] مسند البزار (٢٦/١)، وشعب الإيمان للبيهقي (١٥٨/١٣)، والمعجم الكبير للطبراني (٣٠٢/٣)، بإسناد ضعيف.

فأخبر في هذا الحديث أن من عمل بما علم نور الله تعالى قلبه، ومن نور الله تعالى قلبه كوشف عن كثير من أحوال الغيب، وعلم ما لم يتعلم من علم الظاهر؛ فهل يمكن لمثل هذا أن يعتمد الكذب والإفتراء في رواية الحديث كما يظنه بعض الناس.

وتدبر من ناحية أخرى أن الشخص الذي ليست لديه المعرفة بأحاديث الرسول وصلاحية إدراك معانيها، ولديه النظر في ملكوت السماء والأرض، فما الفائدة لمثل هذا الشخص من النظر في ملكوتهما، وليست لديه ملكة تمييز الخبيث من الطيب والغث من السمين من الأحاديث؟ وما الفائدة للحصول على فروع الأحوال والمقامات بتدمير أصولها؟

عمل الصحابة على الكشف:

الكشف وراثة محمدية صادقة، وَرِثَه أصحابه- رضي الله عنهم- والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين بسبب صدقهم وتصديقهم وصفاء سريرتهم، فعملوا به عند الضرورة بأمر الله وإذنه، فنذكر هنا بعض المكاشفات التي عمل الصحابة بها:

(١) عن عائشة، زوج النبي-ﷺ- قالت: «لما أرادوا غسل رسول الله-ﷺ- اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري، كيف نصنع؟ أنجرد رسول الله-ﷺ- كما نجرد موتانا أم نغسله وعليه ثيابه؟ قالت: فلما اختلفوا أرسل الله عليهم السِّنَةُ، حتى والله ما من القوم من رجل إلا ذقنه في صدره نائمًا، قالت: ثم كلمهم من ناحية البيت، لا يدرون من هو؟ فقال: "اغسلوا النبي-ﷺ- وعليه ثيابه"، قالت: فثاروا إليه، "فغسلوا رسول الله -ﷺ- وهو في قميصه يفاض عليه الماء والسدر، ويدلكه الرجال بالقميص"، وكانت تقول: لو استقبلت من الأمر ما استدبرت ما غسل رسول الله-ﷺ- إلا نساؤه».[1]

(٢) "كان عمر -رضي الله عنه- قد أَمَّرَ سارية بن زنيم الخلجي على جيش من جيوش المسلمين، وجهزه على بلاد فارس، فاشتد على عسكره الحال على باب نهاوند وهو يحاصرها، وكثرت جموع الأعداء، وكاد المسلمون ينهزمون، وعمر- رضي الله عنه- بالمدينة، فصعد المنبر وخطب، ثم استغاث في أثناء خطبته بأعلى صوته: يا سارية الجبل، فألقاه الله في سمع سارية، فانحاز بالناس إلى الجبل، وقاتلوا العدوّ من جانب واحد ففتح الله عليهم".

حسن إسناده الحافظ ابن حجر وقال : وأخرجها البيهقيّ في الدّلائل واللالكائي في شرح السنّة

---

[1] مسند أحمد (٤٣/ ٣٣٢،ح:٢٦٣٠٦) وسنن أبي داود، باب في ستر الميت عند غسله (٣١٤١) ، وسنن ابن ماجه، باب ما جاء في غسل الرجل امرأته وغسل المرأة زوجها (١٤٦٤) إسناده حسن.

والزين عاقولي في فوائده، وابن الأعرابي في «كرامات الأولياء».[1]

وقال التاج السبكي- رحمه الله تعالى-: «لم يقصد إظهار الكرامة، وإنما كُشِف له، ورأى القوم عياناً، وكان كمن هو بين أظهرهم حقيقة، وغاب عن مجلسه بالمدينة واشتغلت حواسه بما دهم المسلمين، فخاطب أميرهم خطاب مَنْ هو معه».[2]

(٣) عن طارق بن شهاب قال: «إِنْ كان الرجل ليحدث عمر بالحديث فيكْذِبُه الكِذبة فيقول: احبس هذه، ثم يحدثه بالحديث فيقول: احبس هذه، فيقول له: كل ما حدثتُك حق إلا ما أمرتني أن أحبسه».[3]

وأخرج عن الحسن قال: «إن كان أحد يعرف الكذب إذا حُدّث فهو عمر بن الخطاب».[4]

(٤) ذكر التاج السبكي- رحمه الله تعالى-: «أنه دخل على عثمان - رضي الله عنه- رجل كان قد لقي امرأة في الطريق، فتأملها، فقال له عثمان- رضي الله عنه-: يدخل أحدكم، وفي عينيه أثر الزنا ؟ فقال الرجل: أوحي بعد رسول الله- صلى الله عليه وسلم-؟ قال: لا، ولكنها فراسة المؤمن».

قال السبكي تعليقًا عليه: «وإنما أظهر عثمان هذا تأديباً للرجل، وزجراً له عن شيءٍ فعله».[1]

(٥)عن عائشة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم- أنها قالت: «إن أبا بكر الصديق كان نحلها جاد عشرين وسقًا من ماله بالغابة، فلما حضرته الوفاة قال: " والله يا بنية ما من الناس أحد أحب إلي غنى بعدي منك، ولا أعز علي فقرًا بعدي منك، وإني كنت نحلتك جاد عشرين وسقًا، فلو كنت جددتيه واحتزتيه كان لك. وإنما هو اليوم مال وارث، وإنما هما أخواك، وأختاك، فاقتسموه على كتاب الله، قالت عائشة، فقلت: يا أبت، والله لو كان كذا وكذا لتركته، إنما هي أسماء، فمن الأخرى؟ فقال أبو بكر: ذو بطن بنت خارجة، أراها جارية، وفي رواية: قد ألقي في روعي أن ذا بطن بنت خارجة جارية».[2]

(٦) عن أنس أن ثابت بن قيس جاء يوم اليمامة، وقد تحنط، ولبس ثوبين أبيضين، فكفن فيهما، وقد انهزم القوم، فقال: «اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء، وأعتذر من صنيع هؤلاء، بئس ما عودتم أقرانكم! خلوا بيننا وبينهم ساعة، فحمل، فقاتل حتى قتل، وكانت درعه قد سرقت، فرآه رجل في النوم،

---

[1] الإصابة، حرف السين المهملة (٣/٥،٦، ترجمة:٣٠٤٦) دار الكتب العلمية – بيروت.

[2] طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٣٢٤) هجر للطباعة والنشر والتوزيع١٤١٣ هـ.

[3] تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٨٢/٤٤)، تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي (ص: ١٢٧) إسناده حسن.

[4] تاريخ دمشق لابن عساكر (٢٨٢/٤٤)، تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي (ص: ١٢٨) إسناده حسن.

[1] طبقات الشافعية الكبرى (٢/ ٣٢٧) هجر للطباعة والنشر والتوزيع١٤١٣ هـ.

[2] المؤطأ للإمام مالك، كتاب الأقضية، باب ما لا يجوز من النحل (٧٥٢/٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير (١٣٢٩/١).

فقال له: إنها في قدر تحت إكاف، بمكان كذا وكذا، وأوصى بوصايا، فنظروا فوجدوا الدرع كما قال. وأنفذوا وصاياه».

هذا خبر صحيح صححه الحاكم ووافقه الذهبي.[1]

فانظر كيف استمع الصحابة وعلى رأسهم الصديق - رضي الله عنهم- إلى رؤيا منامية من واحد منهم فعملوا بها، فها هي رؤيا صحابي وكشف الصديق ومن معه بأنها رؤيا حق، فانظر كم بابٍ فقهي وحكم شرعي تم تنفيذه بناء على هذه الرؤيا المنامية وهذا نوع من الكشف، فحكموا بأن الدرع التي وجدوها لثابت ابن قيس فحكموا بملكه لها برؤيا، ثم حكموا بأنها ميراث لأهله، ثم أخذوا من ميراثه وتركته وقضوا ديونًا بمقادير معينة ولأناس معينين لا إثبات عليها سوى هذه الرؤيا، ثم انظر كيف أعتق الغلام بناء على رؤيا ولم يُعَدّ من الإرث والتركة.

فانظر إلى كل هذه الأحكام الشرعية والأبواب الفقهية كيف نتجت بناء على رؤيا منامية وهي أخت الكشف عند المنكرين.

ولو أردنا أن نستقصي تراجم الصحابة الكرام رضي الله عنهم في كشفهم وفراستهم، لخرجنا عن موضوعنا في بحثنا هذا، ولكن قد تركناها، وكذا قد اجتنبنا ههنا بيان كشوف التابعين والعارفين اقتصارًا على ما ذكرنا.

والحاصل أن الصحابة والتابعين استعملوا الكشف والإلهام في مساعدة الدين وفي تزكية القلوب وتطهيرها، فهناك سؤال: هل لا يجوز الكشف لصحة الحديث أو تعلم الدين ومتابعته؟

من أقوال المحدثين والصوفية على حجية الكشف والإلهام في الأحكام:

قال العلامة عبد الرءوف المناوي- رحمه الله تعالى - عند شرحه حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم-: «لولا أن لا تَدافَنوا لدعوتُ الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع منه».[1]

وإنما أَحبَّ إسماعهم عذاب القبر دون غيره من الأهوال؛لأنه أول المنازل. وفيه أن الكشف بحسب الطاقة، ومَنْ كُوشف بما لا يطيقه هلك.

تنبيه: قال بعض الصوفية: «والاطلاع على المعذَّبين والمنعَّمين في قبورهم واقع لكثير من الرجال، وهو هول عظيم، يموت صاحبه في اليوم والليلة موتات، ويستغيث ويسأل الله أن يحجبه عنه، وهذا المقام لا يحصل

---

[1] المستدرك، كتاب معرفة الصحابة ﷺ، ذكر مناقب ثابت بن قيس ﷺ (٣/٢٦٠).

[1] صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات ... (٢٨٦٧).

للعبد إلا بعد غلبة روحانيته على جسمانيته، حتى يكون كالروحانيين. فالذين خاطبهم الشارع هنا هم الذين غلبت جسمانيتهم لا من غلبت روحانيتهم، والمصطفى -ﷺ- كان يخاطب كل قوم بما يليق بهم».[1]

وقال المناوي عند قوله- ﷺ-: «إنَّ لكل قوم فراسة، وإنما يعرفها الأشراف»:

قاعدة الفراسة وأسُّها: الغض عن المحارم، قال الكرماني: «من عمّر ظاهره باتباع السنة، وباطنه بدوام المراقبة، وكفَّ نفسه عن الشهوات، وغض بصره عن المخالفات، واعتاد أكل الحلال لم تخطى فراسته أبدًا. انتهى. فمن وُفِّق لذلك أبصر الحقائق عياناً بقلبه».[2]

من يهيمن على الروحانية، ويرى الحقائق من أعين القلب، هل يمكن أن يكون مخفيًا عليه حقائق السنة؟!! أعني أنها صحيحة أو ضعيفة أو موضوعة؛ ولذلك اعتمد الحافظ العجلوني على الكشف في تصحيح الحديث وتضعيفه بقوله: «والحكم على الحديث بالوضع أو الصحة أو غيرهما، إنما هو بحسب الظاهر للمحدثين باعتبار الإسناد أو غيره، لا باعتبار نفس الأمر والقطع؛ لجواز أن يكون الصحيح مثلًا - باعتبار نظر المحدث- موضوعًا أو ضعيفًا في نفس الأمر، وبالعكس، ولو لما في الصحيحين على الصحيح، خلافًا لابن الصلاح. كما أشار إلى ذلك الحافظ العراقي في ألفيته بقوله:

واقطع بصحة لما قد أسندا ... كذا له وقيل ظنا ولدي

محققيهم قد عزاه النووي ... وفي الصحيح بعض شيء قد

نعم المتواتر مطلقًا قطعي النسبة لرسول الله -صلى الله عليه وسلم- اتفاقًا، ومع كون الحديث يحتمل ذلك فيعمل بمقتضى ما يثبت عند المحدثين ويترتب عليه الحكم الشرعي المستفاد منه للمستنبطين، وفي الفتوحات المكية ما حاصله: فرب حديث يكون صحيحًا من طريق رواته يحصل لهذا المكاشف أنه غير صحيح لسؤاله عن رسول الله -ﷺ-، فيعلم وضعه ويترك العمل به، وإن عمل به أهل النقل لصحة طريقه، ورب حديث ترك العمل به لضعف طريقه من أجل وَضّاع في رواته يكون صحيحًا في نفس الأمر؛ لسماع المكاشف له من الروح حين إلقائه على رسول الله -ﷺ- انتهى».[1]

وكذا قال الحافظ الغماري باحثًا عن طرق معرفة الحديث الموضوع:«العمدة في معرفة الحديث الموضوع على أمرين:

---

[1] فيض القدير، شرح الجامع الصغير للعلامة المناوي (٥/٣٤١) المكتبة التجارية الكبرى – مصر.

[2] فيض القدير للمناوي (٢/٥١٤).

[1] كشف الخفاء (١/ ١٤) المكتبة العصرية.

أحدهما: وجود الراوي الكذاب في سنده مع تفرده به أو مع متابعة كذاب أو ضعيف هالك مثله.

ثانيهما: وجود النكارة الظاهرة في متنه بركاكة اللفظ، أو مخالفة المعنى للثابت المعروف، وغرابته عن الأمر المألوف، إلا أن ذوي الحذق بالصناعة والنظر الصائب في الحديث، قد يحكمون أحيانًا بوضع الحديث لمعنى ينقدح في باطنهم، لنفورهم منه عند سماعه، كما قال النبي ﷺ:" إذا سمعتم الحديث عني تعرفه قلوبكم وتلين له أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم قريب، فأنا أولاكم به، وإذا سمعتم الحديث عني تنكره قلوبكم، وتنفر منه أشعاركم وأبشاركم، وترون أنه منكم بعيد، فأنا أبعدكم منه"، فهذا شاهد لهم في حكمهم بوضع الحديث لمجرد السماع وإن كان سنده ظاهرالصحة، إلا أن ذلك لا يُقبَل ولا يوجَد إلا ممن مارس الحديث و خدمه حتى ذاق طعم الألفاظ النبوية، وامتزج لبها وسرها بلحمه ودمه، فصارت روحه تقبل الحديث الصحيح واللفظ النبوي، وتميل إليه لمجرد سماعه، وتنفر من الحديث الباطل، وتنكره قبل النظر في سنده، ومن هنا يدخل الغلط على بعض من لم يتذوق هذا المعنى، أو يعمل عليه من أهل الحديث فيحكمون بصحة الأحاديث الباطلة في نفسه، ويبطلون بعض الأحاديث الصحيحة كذلك، جمودًا منهم على ظاهر الإسناد، وهم في الواقع معذورون؛لأنهم ليس بيدهم دليل يعتمدون عليه غيره، لكن الحديث المذكور يأمر بخلاف ذلك، ويجعل العمدة في قبول الحديث ورده على معرفة القلب وقبوله، وميل الروح من المحدث الذي امتزجت السنة بروحه مع نور القلب وصفاء الذهن وحسن الإدراك، لامن غيره: كالفقهاء والوعاظ والصوفية ونحوهم؛ فإنه لا عبرة بميل قلوبهم وبإنكارهم، إلا من كان من العارفين أهل الكشف الصحيح والبصيرة النافذة بنور الله تعالى، لا من دونهم لعدم مخالطته للحديث وفقدان الفراسة الإلهية فيه، فكم حديث صححه الحفاظ وهو باطل بالنظرإلى معناه ومعارضته للقرآن، أو السنة الصحيحة، أو مخالفة الواقع والتاريخ؛وذلك لدخول الوهم والغلط فيه على المعروف بالعدالة، بل قد يتعمد الكذب، فإن الشهرة بالعدالة لاتفيد القطع في الواقع».[1]

بل كثير من المحدثين والمشايخ اعتمدوا على الكشف والإلهام الصوفي في قبول الحديث ورده وقالوا: "هذا الحديث صحيح عندنا"، أو "وقد صح كشفًا" أو غير ذلك...

وقدعرض المحدثون للإلهام عند كلامهم عن علل الحديث،فقد نقل الحاكم عن ابن مهد يقوله :«هي [معرفة علة الحديث] إلهام، لو قلت للقيم بالعلل: من أين لك هذا؟ لم تكن له حجة، يعني يعبر بها غالبًا، وإلا ففي نفسه حجج للقول وللدفع».[2]

---

[1] المغير (١٣٦-١٣٨) دار الرائد العربي، بيروت.

[2] فتح المغيث للسخاوي (٢٨٨/١) مكتبة السنة – مصر.

وأسند الحاكم إلى أبي زرعة «أن رجلًا سأله:ماالحجة في تعليلكم الحديث قال:الحجة أن تسألني عن حديث له علة، فأذكرعلته، ثم تقصد ابن وارة فتسأله دون أن تخبره أنك سألتني فيذكرعلته، ثم تقصد أباحاتم في علله، ثم ميزبين كلامنا على ذلك الحديث؛ فإن اتفقنا فاعلم حقيقة هذا العلم، وإن اختلفنا فاعلم أن كلايتكلم على مراده. ففعل الرجل، فاتفقت كلمتهم فقال: أشهدأن هذاالعلم إلهام».[1]

بالرغم من هذه الأدلة من الآيات والأحاديث والآثاروأقوال العلماء الربانيين، اختلف معظم أهل الحديث وأهل الظاهر في حجية الكشف والإلهام في أحكام الشريعة، ولكن بعضًا منهم لم ينفوا نفيًا كليًا ولم ينكروا إنكارًا مطلقًا، بل نفيهم منصب على اعتداده أصلًا ودليًلا شرعيًا مستقلًا وسلموه عضدًا وتقويةً للدليل الشرعي، أو ترجيحًا بين الأدلة المتعارضة، وإليك التفصيل فيما يلي:

الإمام عبدالله بن أحمد النسفي:

قبل الإمام النسفي حجية الإلهام في الأحكام للملهم عند فقد الأدلة الشريعة الأربعة، وهو يقول: «والإلهام عند عدم الدلائل الأربعة يكون حجة في حق الملهم لا في حق غيره كالتحري».[1]

الشيخ ابن تيمية الحراني:

أنكر ابن تيمية كون الإلهام دليلًا مستقًلا ولكن قرره لترجيح أحد الفعلين عند التردد والتعارض بين الأدلة، وفي فتاواه بحث عليه مفصل، وأقام الدليل على حجية الإلهام بأدلة قاطعة،وفيه يقول:«والذين أنكروا كون الإلهام طريقًا على الإطلاق أخطئوا كما أخطأ الذين جعلوه طريقًا شرعيًا على الإطلاق. ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحًا وألهم حينئذرجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى فإلهام مثل هذا دليل في حقه، وقد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة؛ والأحاديث الضعيفة والظواهر الضعيفة والاستصحابات الضعيفة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذهب والخلاف وأصول الفقه».[2]

وكذلك يستند ابن تيمية إلى الإلهام وإن لم يوجد مايعضده عند فقد الحجج كلها في مايجوز العمل به من غيرعلم ، يقول:«كثيرمن أهل الإيمان والكشف يلقى الله في قلبه أن هذاالطعام حرام، أوالعكس بأن يلقى في قلبه بأن هذا الطعام حلال من غيردليل ظاهر، بل بمايلقي الله في قلبهوأمثال ذلك كثيرمما لايستبعد

---

[1] علوم الحديث للحاكم (ص:١١٣) دار الكتب العلمية، تدريب الراوي للسيوطي (١/ ٢٩٦) دار طيبة.

[1] كشف الأسرار للنسفي (٢/٥٨٩) دار الكتب العلمية، بيروت.

[2] مجموع الفتاوى (١٠/ ٤٧٣) مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية،(١٤١٦م)

في حق أولياءالله المؤمنين المتقين».[1]

ووضح هذه المسألة شيخنا أبو سعيد إحسان الله المحمدي بقصة نقلًا عن الشيخ عبد الرحمن الجامي، والقصة هي:ذات مرة قال الفقراء من أصحاب الشيخ أبي الغيث بن جميل اليمني له: "نحن نشتهي أن نأكل لحمًا" قال: «يوم يُنصَبُ السوق فسوف يحضر لكم اللحم"، لما جاء اليوم الذي ينصب فيه السوق وصل الخبر أن اللصوص نهبوا القافلة، وبعد ساعة جاء لص ووهب البقرة للشيخ؛ فقال الشيخ للفقراء: اذبحوا هذه البقرة، واطبخوا اللحم، وأما رأسه فيحفظ في جانب كما هو، ثم جاء آخر وأحضر للشيخ كيس القمح؛ فقال الشيخ: "اطحن ثم اعجن ثم اصنع خبزًا." فصنع الفقراء على حسب إرشاده، فلما طبخ الطعام وبسطت المائدة، قال الشيخ لهم:"كلوا" وكانت بينهم طائفة من الفقهاء، فلما لم يرهم الشيخ على المائدة طلبهم، فلم يحضروا، وتجنبوا عن الطعام، قال الشيخ: "إن الفقهاء لا يأكلون حرامًا" وحينما انتهى الطعام، فجأة جاء شخص إلى الشيخ وقال: "أيها الشيخ! كنت أحضر البقرة للفقراء من أصحابك، ففي الصحراء قد نهبتها اللصوص" قال له الشيخ: "إذا نظرت إلى رأس بقرتك عرفتها" قال "نعم" فأمر الشيخ ليحضروا رأسها، عندما رأى رأس البقرة قال: "هذا هو رأس بقرتي" ثم جاء شخص آخر وقال: "أيها الشيخ! كنت أحضر كيس القمح للفقراء، وقد نهبته اللصوص" قال الشيخ: "قد وصلت عطايا الفقراء إلى الفقراء". ولما رأى الفقهاء ذلك أسفوا على التجنب من الطعام».[1]

قال الداعية الإسلامي الشيخ أبو سعيد تعليقًا على هذه القصة:

«نستفيد منها ثلاثة أمور بوضوح:

١. إن الله يفتح هذه الحقائق على بعض الصالحين ولا يعرفها عامة الناس من الفقهاء والمحدثين وهم يفهمونها ضد الشريعة.

٢. ليس من الضروري أن يوافق جميع الناس على إلهام الشيوخ، وإنما هو الصحيح بالنسبة إلى من هم مغلوبون في حبهم لله وأتباعه بحكم قوله تعالى: " **وَّاتَّبِعۡ سَبِيۡلَ مَنۡ اَنَابَ اِلَىَّ** " [لقمان: ١٥].

٣. لو كان بعض المسترشدين يفضلون الظواهر على كشف الشيخ وإلهامه فمن غير المناسب للآخرين استهدافهم.

---

[1] مجموع الفتاوى، (٤٧/ ١٥٢).

[1] نفحات الأنس من حضرات القدس لعبد الرحمن الجامي (رقم الترجمة: ٥٤٩)

العلامة يوسف بن عبد الله القرضاوي:

أقر القرضاوي الإلهام لفهم الكتاب والسنة بدون تسليم الأصل من الأصول الثابتة ، قال في كتابه:

«لانزاع في أن يكشف الله لبعض المتقين من عباده من حقائق العلم وأنوار المعرفة في فهم كتابه أوسنة نبيه -صلى الله عليه وسلم- بمحض الفيض الإلهي والفتح الرباني بينما يلهث كثيرون ليحصلواعليه بالمذاكرة والتحصيل فلايظفرون بما يدانيه».[1]

العلامة إبراهيم بن موسى اللخمي الغرناطي المالكي الشاطبي:

أثبت الإلهام بالشروط الآتية:

١. أن يكون فى أمر مباح. ٢. أن يكون العمل عليه؛ لفائدة يرجو نجاحها.

٣. أن يكون فيه تحذير أو تبشير؛ ليستعد بكل عدته.

وقال بعد بيان الشروط:

«وعلى الجملة، فالشرط المتقدم لامحيص من اعتباره في العمل بمقتضى الخوارق كالإلهام والكشف».[1]

هؤلاء هم العلماء الذين أقروا كون الإلهام مع الشروط المختلفة حجة في الأحكام، وفي أقوالهم دليل على أن الأحاديث المروية من العارفين بالكشف، ولم توجد عند المحدثين هي أيضًا حجة؛لتقوية الأحكام ولتنوير القلوب، وتزكية النفوس.

حدود قبول الكشف وشرائطه:

ومن تلك المسائل التي هي أصل الخلاف في مذهب الحكم على الأحاديث بالكشف والإلهام: الخلاف في حدود الإلهام والكشف كما وضح بما سبق، فالعمل بالتصحيح والتضعيف عند أرباب هذه الطريقة -رضي الله عنهم-، مشروط بشروط عندهم ومضبوط بضوابط:

الأول: أهمها عدم معارضته للأصول العامة التي دلت عليها الأدلة الكلية.

الثاني: ولم يكن من باب الاعتقاد والحلال والحرام بل الأحسن أن يكون الحديث الكشفي مؤيَّدًا من السنة النبوية الثابتة و مستدلا عليه من أقوال الصحابة والتابعين.

الثالث: أن الإلهام حجة للملهم ومتبعيه وليس للغير.

الرابع: أن الكاشف الذي يصحح الحديث بمكاشفته ينبغي أن يكون من المشايخ المحققين الذين

---

[1] موقف الإسلام من الإلهام (ص:٣٠) مكتبة وهبة، ١٩٩٤م.

[1] الموافقات (٤٧٤/٢) دار ابن عفان، ١٩٩٧م.

يعتمد عليهم وعلى إتقانهم وثقتهم وديانتهم بدون الخلاف.

إن شيخنا الداعية الإسلامي أبا سعيد المحمدي أوضح هذه الشروط، وبينها لنا بكشف ابن عربي نقله عن علي القاري:«كان الترمذي يريد تقوية الحديث بعمل أهل العلم، والعلم عند الله تعالى كما قال الشيخ محيي الدين بن عربي: إنه بلغني «عن النبي – ﷺ– أن من قال: لا إله إلا الله سبعين ألفًا غفر له، ومن قيل له غفر له أيضًا»، فكنت ذكرت التهليل بالعدد المروي من غير أن أنوي لأحد بالخصوص، بل على الوجه الإجمالي، فحضرت طعامًا مع بعض الأصحاب، وفيهم شاب مشهور بالكشف، فإذا هو في أثناء الأكل أظهر البكاء فسألته عن السبب فقال: أرى أمي في العذاب فوهبت في باطني ثواب التهليلة المذكورة لها، فضحك وقال: إني أراها الآن في حسن المآب، قال الشيخ: فعرفت صحة الحديث بصحة كشفه، وصحة كشفه بصحة الحديث».[1]

ثم قال شيخنا توضيحًا وتعليقًا على هذا الكشف:«هذا الحديث لا يتناقض مع أي أصل من أصول الدين، ولا هو من باب الحلال والحرام، ولكن هناك كثير من الأحاديث الصحيحة في فضل "كلمة لا إله إلا الله" ولا شك أن صاحب الكشف الشيخ محيي الدين بن عربي –قدس الله سره– من الأولياء الكاملين، ولذلك ينبغي الاعتراف بصحة هذا الحديث».

لا بد من هذه الشروط للكشف والإلهام ولا سيما في هذا العصر وإلا جاز لأي شخص أن يروي حديثًا بنفسه ويقول: "حدثته من الكشف أو الإلهام" فإن العرفان والتصوف يأتيان في زماننا بالزهد والمجاهدة والرياضة ولا أن يدعي أحد أنه ورث آباءه وأجداده، ويدعي لنفسه أنه قطب من أقطاب الأمة، إلا إذا سار على نهجهم واتبع خطواتهم.

الأحاديث الثابتة بالكشف:

الأحاديث المروية بالكشف نوعان:

نوع يأتي عن طريق الكشف بدون التصريح بأنه جاء كشفًا.

ونوع فيه التصريح بأنه جاء كشفًا وهي قليلة.

والمشايخ والعارفون لا يحدثون حديثًا بدون الرواية الثابتة بمنهج الحديث أو بالكشف كما هو قول الشيخ علي الخواص:«لا ينبغي لفقيه أن يروي عن رسول الله – ﷺ– حديثًا إلا إن كان له به علامة يعرف

---

[1] مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح لملا علي القاري، باب ما جاء على المامومن من المتابعة (٣/ ٨٧٩) دار الفكر، بيروت.

ونسب هذه القصة الشيخ عبد الرحمن الجامي إلى الشيخ أبي الربيع الكنيف المالقي قدس سره لا إلى الشيخ محيي الدين بن عربي في كتابه نفحات الأنس (رقم الترجمة :٥٣٣).

بها أن ذلك من كلام رسول الله – ﷺ– إما من طريق النقل وإما من طريق سؤاله للنبي – ﷺ– عن ذلك الحديث. وقوله هومن كلامي يقظة ومشافهة،هذاكله فيما كان ضعيفًا من طريق النقل. أما ماصح من طريق المحدثين واستحسن فلا يحتاج إلى سؤاله – ﷺ– فيه».

فالحديث المروي بصيغة الجزم عن العارفين بدون الإيضاح بأنهم أخذوه بالنقل أو الكشف فهو بالكشف على صراحة الشيخ علي الخواص؛ فإن العارف أفقه الناس في العالم لاسيما الإمام الغزالي هو أعلم وأفقه فإنه نقل من الأحاديث في الإحياء ما لا أصل له عند المحدثين، كما أشار إليه تقي الدين السبكي في طبقات الشافعية الكبرى وزين الدين العراقي في المغني.

وإليكم بعض الأحاديث قيل فيها بالصراحة إنها مروية بالكشف:

١–قال الشعراني عن أبي المواهب الشاذلي:«قال: قابلت رسول الله– صلى الله عليه وسلم– فسألته عن الحديث المشهور "اذكروا الله حتى يقولوا مجنون».

وفي رواية صحيح بن حبان بلفظ: «أكثروا من ذكر الله حتى يقولوا مجنون».

فقال –عليه الصلاة والسلام–: «صدق ابن حبان في روايته، وصدق راوي«اذكروا الله» فإني قلتهما معاً مرة قلت هذا ومرة قلت هذا» .[1]

٢– حديث «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم».

قال الشعراني: «وهذا الحديث وإن كان فيه مقال عند المحدثين فهو صحيح عند أهل الكشف ».[2]

٣– عن عبد الله بن أسعد اليافعي الصوفي المغرق (المتوفى:٧٦٨ هـ) قال: «أخبرني بعضهم أنه يرى حول الكعبة الملائكة والأنبياء، وأكثر ما يراهم ليلة الجمعة وليلة الإثنين وليلة الخميس، وعد لي جماعة كثيرة من الأنبياء، وذكر أنه يرى كل واحد منهم في موضع معين يجلس فيه حول الكعبة ويجلس معه أتباعه من أهله وقرابته وأصحابه، وذكر أن نبينا– ﷺ– يجتمع عليه من أولياء الله تعالى خلق لا يحصى عددهم إلا الله، ولم يجتمعوا على سائر الأنبياء، وذكر أن إبراهيم –عليه الصلاة والسلام – وأولاده يجلسون بقرب باب الكعبة بحذاء مقامه المعروف، وموسى وجماعة من الأنبياء بين الركنين اليمانيين، وعيسى وجماعة من قومه في جهة الحجر، ورأي نبينا– ﷺ– جالسًا عند الركن اليماني مع أهل بيته وأصحابه وأولياء أمته، وحكي عن بعض الأولياء أنه حضر مجلس فقيه فروى ذلك الفقيه حديثًا فقال له الولي: هذا باطل فقال: الفقيه من أين

---

[1] الطبقات الكبرى للشعراني (١٥١/٢) مكتبة الثقافة الإسلامية، القاهرة، ٢٠٠٥م.

[2] الميزان الكبرى (١٤٥/١) عالم الكتاب ١٩٨٩م.

لك هذا؟ فقال: هذا النبي - ﷺ- واقف على رأسك يقول: إني لم أقل هذا الحديث ».[1]

غلبة الحال ليست بحجة:

قد اتفق علماء الإسلام - وفيهم الصوفية - على أن لا يجوز لأحد أن يقول إنه بريء من الشريعة وإنه ليس بمكلف، بل كل مسلم منضبط تحت الشريعة، وكل شخص يريد أن يبقى في حدود الإسلام ودائرته يجب أن يقبل سلطة الشريعة الإسلامية على نفسه، ومن هذه الشريعة الإسلامية قانون شرعه وشرحه رسول الله- ﷺ- بكلماته الطيبة: ما روي عن علي -عليه السلام- عن النبي - ﷺ- قال:«رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل».[2]

وكذا ما روي عن الحسن، قال: سمعته يقول: قال رسول الله- ﷺ-:«تجاوز الله -عز وجل- لابن آدم عما أخطأ وعما نسي، وعما أكره، وعما غلب عليه».[1]

وبسبب الحب الشديد لله تسيطر غلبة الحال على الصوفية الصافية قلوبهم فيقولون ما لا نفهم معناه ولا ندرك تأويله الصحيح؛ فمنهم من يقول: «سبحاني ما أعظم شاني» والثاني يقول: «قدمي هذه على رقبة كل أولياء الله» والآخر يقول: « أنا الحق».

وهذه الأقوال من أفواههم لم تصدر تكبرًا ورياءً، ولكنها نتيجة لحب شديد وغلبة الفناء، وهم مأجورون ومعذورون.

ومن غلبة الأحوال أن بعض العاشقين والمحبين يفهمون التجلي من الله ومن رسوله تجليا للذات والعين، وبهذا السبب ينسبون أقوال مشايخهم وأعمالهم إلى النبي- ﷺ- والحقيقة أن مشايخهم ظل الرسول وتجليه لا عين الرسول وذاته، إلا من داوم بالاستقامة فهو على توفيق وهداية ورحمة من الله.

حكمة بيان القصص والخطأ في النسبة إلى قائله:

قال الله تبارك وتعالى:﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[هود: ١٢٠]

وكذلك الصوفية يذكرون القصص والروايات الإسرائيلية في مجالسهم وكتبهم؛لتثبيت عقيدة التوحيد والآخرة في قلوب الناس، ولكنهم يخطئون في النسبة إلى قائليها، وإن كانوا ناجحين في أهدافهم ومقاصدهم

---

[1] الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي (ص:٢١٢) دار الفكر

[2] سنن أبي داؤد، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدا (٤٤٠٣) سنن الترمذى، أبواب الحدود، باب ما جاء فيمن لايجب عليه الحد (١٤٢٣).

[1] سنن سعيد بن منصور، كتاب الطلاق، باب ما جاء في طلاق المكره (١١٤٦).

وهي التذكير والموعظة، والتخويف من عذاب النار، والترغيب في الأعمال، والتشويق إلى الجنة، وزيادة الحسنة، فإنما أكبر هممهم بلوغ المرام والانتهاء إلى المقصود، فلا تشغل بالهمهذه الأشياء التافهة.

وقد يحدث أيضًا أن قال شيخ كلمة "قال" بدون النسبة إلى قائله فنسب السامع بنفسه إلى النبي- صلى الله عليه وسلم- وكذا قال الشيخ "جاء في الحديث" ففهم السامع أنه حديث مرفوع وهو في نفس الأمر حديث مقطوع أو من أقوال المشايخ لا من قول الرسول فمن جاء بعدهم نقلوا عنهم بدون البحث والنقد فإن معنى هذه الرواية موافق بالقرآن والسنة الصحيحة.

ومن الخطأ أن نرفض كل الأحاديث التي جاءت في كتب الصوفية بدون نظر وبحث، وكما أنه ليس من الأمانة أن نقبل جميع الأحاديث المروية في كتبهم بدون نقدوجرح.

الخطأ من الإنسان سواء كان من المحدثين أو الفقهاء والصوفية:

ولا يوجد في الدنيا كتاب بدون ريب وشك إلا كتاب الله،ولا يقتدى بأحد مطلقًا إلا رسول الله، فلا يدعى لكتاب ولا لشخص بعد كتاب الله ورسول الله أنهما مُبَرّآن من كل عيب ونقص؛ولذلك لا يوجد كتاب في موضوع من العلوم الإسلامية وشخص متبع لأي منهج وطريقة وهما خاليان عن الخطأ والنسيان؛ فالوقوع في الخطأ والنسيان من الفطرة.

ومما يلاحظ أن الكتب التي صنفت لجمع الأحاديث الصحيحة فيها أيضًا مرويات موضوعة وضعيفة عند بعض العلماء كما حكم عديد من العلماء في المواضع المختلفة بالوضع علياثني عشرحديثًا للبخاري ومسلم، وقد أشرنا إلى بعض منها قبل ذلك.

وقد أراد الحاكم أن يجمع في كتابه "المستدرك على الصحيحين" الأحاديث التي تكون على شرط الشيخين أو أحدهما ولم يخرجاها، وعلى الرغم من ذلك، فالكتاب يحتوي على الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

وهناك أيضًا عدد كبير من الأحاديث الضعيفة في صحيح ابن خزيمة وصحيح ابن حبان، وكذلك في السنن والجوامع والمسانيد، بل فيها أيضًا الواهية والموضوعة.

والسؤال أن مصنفي هذه الكتب اجتهدوا ألا تحتوي كتبهم إلا على الروايات الصحيحة، ومع ذلك ثبت أن فيها الضعيفة والموضوعة؛ فلم هذه الضبحة ولم هذا التحامل على كتب الصوفية؛لأجل تخريج بعض الأحاديث الواهية فيها؟فإذا كان الكلام لأحد من العلماء في بعض الأحاديث المروية عن الصوفية، فلا عجب فقد طعنوا في كتب المحدثين والفقهاء أيضًا.

خلاصة البحث:

وصلنا بمراجعة نقدية لطائفة من المتشددين في قبول الحديث ورده، وبدراسة تفصيلية لمنهج الصوفية في قبول الأحاديث وردها إلى أنه:

٤. ينبغي لنا أن نقبل في الأحكام الأحاديث الثابتة على منهج المحدثين ونرد الأحاديث غير الثابتة على منهجهم إذا لم تكن هناك أدلة مناقضة من القرآن والسنة الثابتة.

٥. ولا ينبغي لأحد أن يثبت الأحكام الشرعية بالأحاديث الضعيفة سوى الراسخين في العلم من المحدثين والفقهاء والعارفين بالله مغترفين من عين الشريعة الكبرى.

٦. نعتمد على الأحاديث الضعيفة في الفضائل وإن كانت بدون إسناد إذا أخرجها الأئمة المجتهدون.

٧. لا ينبغى أن نحكم بالوضع على رواية إذا لم تتعارض مع مبادئ الشريعة، وإن كان في إسنادها راو كذاب.

٨. يجب أن نتساهل في الحكم على روايات المشايخ الكبار ونتجنب الحكم بالوضع إذا لم تتعارض مع أصول الشريعة وإن كانت الروايات لا توجد في كتب المتون.

٩. لا ينبغي أن نثق على هذه الروايات إلا بدون الاحتياج إليها.

١٠. يجب ألا نستهدف الذين يروون الروايات الصوفية في المواعظ والتذكير بالسوء.

١١. إن المشايخ هم بشر، قد يكونون واقعين في الخطأ والنسيان، وإلى أقصى حد ممكن، ينبغي التأويل، وتجنب الطعن فيهم؛ لأنه قد يكون سببا للحرمان من بركاتهم وصلاحهم إلا إذا مست الحاجة لذلك.

١٢. وهناك خطأ من المريدين أيضًا وهو اعتمادهم على غلبة أحوال المشايخ مثل أقوالهم المحكمة.

١٣. إذا لم يكن سبيل إلى تأويل صحيح في أقوالهم ورواياتهم، أو إذا كانت مروياتهم ضد الشريعة الإسلامية الثابتة لا ينبغي التجنب عن الاعتراف بالحق أعني أن ترد رواياتهم بدون شك.

ولقد حاولت في بحثي هذا أن أقيم وجهة نظر معتدلة عن صحة الحديث وضعفه، وأن أوضح من خلالها منهج الصوفية في قبول الحديث ورده، وأن أجيب عن التصورات الخاطئة من المنكرين على الصوفية ومنهجهم.

واكتفيت بهذا القليل، والأمر إلى الله، والهداية منه؛ قال الله تعالى: ﴿**قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا**﴾ (الإسراء: ٨٤).

وما توفيقي إلا بالله هو حسبي ونعم المولى ونعم النصير.

أهمية النظافة عند الصوفية ومفهوم ترك الدنيا

إعداد: إظهار أحمد السعيدي[1]

من الحقائق الثابتة أن لكل رأي معارضيه ومعانديه، وما وُجِدَ من مذهبٍ أوفِرقةٍ في الإسلام إلا وله خصمٌ ومعارضٌ، حتى علم الفقه وعلم الكلام لم يسلما من المخالفة والمعارضة. فهناك قوم يخالفون الفقه قائلين: إن الفقه وتقليد أئمته شيءٌ إضافيٌ في الإسلام لاداعي لنا أن نلتفت إليه لأننا يكفينا تقليد القرآن والحديث واتباعهما.

وكذلك هناك قوم يخالفون علم الكلام فمنهم من يقول: إن الأشاعرة والماتريدية قوم ضالون، ومارقون من الدين.

فرأينا أن الفقه والكلام لم يسلما من المعاندة والمعارضة. هكذا نجد من الناس من يعارضون التصوف ويعاندونه، ويقومون بمخالفته، ويرمونه بالاتهامات والافتراء ات، وينسبون إليه ما ليس منه.

والافتراء ات على التصوف والشبهات عليه كثيرة جدًّا، ولكني سأختار واحدة منها، ثم أقوم بردِّ هذه الشبهة وبتفنيد تلك التهمة، وأقوم بالذب عن التصوف النقي الطاهر.

يقول القائل: إن التصوف يمنع عن النظافة ويحب القذارة والدنس، ويأمر بوسخ الثياب والبدن والتجافي عن الدنيا كاملاً.

وقبل أن أردَّ هذه الدعوى الواهية، أودّ أن أبيّن موقف القرآن والأحاديث في تزكية النفوس والزهد في الدنيا، والبعد عنها؛ حتى نتمكن من أن نصل إلى نتيجة حاسمة بأن ما قاله الصوفية هو المطلوب من القرآن والأحاديث وهو محبوب لديهما.

قال الله سبحانه وتعالى :﴿فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات: ٥٠].

وقال تعالى محذرا من أن نقع في فتنة الأولاد والأموال :﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[التوبة :٢٤].

[1] الباحث: بمرحلة الماجستير بكلية اللغة العربية بالقاهرة ، بجامعة الأزهر الشريف.

وحذّر سبحانه وتعالى من أن نفضِّلَ الحياة الدنيا فقال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغٰى وَ آثَرَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيْمَ هِيَ الْمَأْوٰى وَ أَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهٖ وَ نَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوٰى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوٰى﴾[النازعات: ٣٧- ٤١] وقال أيضاً في مقام آخر: ﴿بَلْ تُؤْثِرُوْنَ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةُ خَيْرٌ وَّ أَبْقٰى﴾[الأعلى : ١٦].

وأخبرالله سبحانه وتعالى بأن الحياة الدنيا ليست إلا لهو ولعب فقال: ﴿وَمَا هٰذِهِ الْحَيٰوةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَّ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوْا يَعْلَمُوْنَ﴾ [العنكبوت : ٦٤]. وكذلك أخبر الله سبحانه وتعالى بأن الفلاح لايوجد إلا في تزكية النفس فقال : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكّٰى﴾[الأعلى : ١٤]. وقال في مقام آخر: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّٰهَا وَ قَدْ خَابَ مَنْ دَسّٰهَا﴾[الشمس : ٩ / ١٠] .

وهذا ما رأيناه من موقف القرآن من تزكية النفس والزهد في الدنيا، والآن نرى موقف الحديث منهما.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رجل: أيّ الناس أفضل يا رسول الله؟ قال:«مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله» قال: ثم من؟ قال: «ثم رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه»، وفي رواية: «يتقي الله ويدع الناس من شره». متفق عليه.[١]

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال، ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن»، رواه البخاري.[٢] وشعف الجبال : أعلاها.

قال النبي ﷺ: « الدنيا ملعونة وملعون ما فيها إلا ما ابتغى به وجه الله».[٣]

وقال ﷺ: «من كنز دنيا يريد باقيه فإن الحياة بيد الله، ألا وإني لا أكتنز ديناراً ولا درهماً ولا أخبأ رزقاً لغد».[٤]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «رأى رسول الله ﷺعند بلال تمرة، فقال ما هذا يا بلال؟ قال: شيء ادخرت لغد، قال: أما تخشى أن يكون لك دخان في نار جهنم؟ أنفق يا بلال، ولا تخش من ذي العرش إقلالًا».[٥]

وقال ﷺ عن حبه: عن أَنَسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «لاَ يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ»[٦]

---

[١] بلفظ: يتقي الله وفي كتاب الرقاق، باب العزلة راحة من خلط السوء (٨ / ١٠٣ ، رقم : ٦٤٩٤) بلفظ: يعبد ربه. ومسلم في صحيحه ، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والرباط (٣ / ١٥٠٣، رقم : ١٨٨٨) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد ، باب أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه (٤ / ١٥ ، رقم : ٢٧٨٦)

[٢] في صحيحه ، في أربعة مواضع، منها : كتاب الإيمان ، باب من الدين الفرار من الفتن . (١ / ١٣ ، رقم : ١٩)

[٣] مجمع الزوائد للهيثمي ، ج ١٠ ، ص : ٢٢٢ .

[٤] حلية الأولياء لأبي نعيم ، ج ٣ ، ص : ١٥٧ .

[٥] المعجم الكبير للطبراني، ج ١ ، ص : ٣٤٤.

(٦) صحيح:صحيح البخاري، كِتَاب الإيمان ، باب حُبُّ الرَّسُولِ – ﷺ – مِنَ الإِيمَانِ –واللفظ له–، و صحيح مسلم،كِتَاب الْإِيمَانِ،بَاب وُجُوبِ مَحَبَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

ومن هنا اتضح الأمر كوضوح الشمس بأن الترجيح والإيثار لله ولرسوله فوق كل شيء في حياة المسلم. ومن لم يؤثر حب الله وحب رسوله على كل شيء فلم يكن إيمانه كاملًا، وكذلك من لم يزهد في الدنيا، ولم يُبعد نفسه عن متاعها فلن ينجح أبدًا، ومن لم يزكِّ نفسه وقام بتلوثه بسبب كثرة حبه في الدنيا فتحيط به الخسارة وتحصره الخيبة. وهذا الشيء نفسه يقوله الصوفية ولكن لا ندري لماذا ساء للمعارضين موقف الصوفية القرآني؟.

وبعدما أثبتنا موقف القرآن في تزكية النفس والزهد في الدنيا، نعود الآن إلى تحليل تلك القضية والدفاع عن التصوف.

نقول: إن هذا القول افتراء على التصوف وبهتان عليه، فإن التصوف لايأمر بالقذارة والدنس وإنما يأمر بالطهارة والنقاوة. ولايُتَصورُ أن يقول التصوف هذا؛ لأن الصوفية قوم يريدون تعلقهم بالله كل وقت وحين، وهم قوم يريدون استهلاك معظم أوقاتهم في الصلاة والعبادة والرياضة والذكر، وهذا شيءٌ بَدَهِيٌ فالجاهل العامِيُّ الأمِّيُّ يعرف بأن العبادة تحتاج كثيرا من نظافةٍ وطهارةٍ، وتحتاج كثيرا من اهتمامٍ وحفاوة، فكيف يُتَصوّر لقوم يدّعون إغراق أوقاتهم في عبادة الله سبحانه وتعالى ثم يمنعون عن النظافة والطهارة، ويأمرون بالقذارة والدنس، يا للعجب!.

ونعترف أنهم قالوا قولًا ولكن هذا القول لوقتٍ مخصوص ولآنٍ محدودٍ فقط، وذلك أنهم قالوا إذا كان المريد في مقام السلوك، وهو لم ينضج فيه ولم يُكْمِلْهُ، فعليه أن لا يهتم كل الاهتمام بالجمال الظاهري، بل عليه أن يصبر على الأثواب القديمة غير الجديدة ، كذلك لا يهتم كثيرًا بالكواء واللمعان والبريق في الأثواب؛ لأنه إذا التفت إلى هذا الجمال الظاهري سينقطع تماماً عن السلوك، ويشتغل بالاهتمام بالدنيا، ثم يغفل عن الله سبحانه وتعالى. أما إذا كمل في الطريق فلا مانع له من أن يلبس أي لباسٍ، ولامانع له من أن يتزيّأ أيّ زيٍّ كما يريد.

كما يقول الإمام الشعراني رحمه الله: «وبالجملة فكل شيء تهواه نفس المريد في الدنيا يقطعه عن الله عز وجل فيجب على المريد الصبر على وسخ الثياب وتخريقها، حتى يزول وسخ قلبه فإذا زال فهناك يؤمر بنظافة الثياب وتبييضها، ليشاكل بذلك باطنه من باب التحدث بالنعمة، لا لغرض نفساني».[1]

وكذلك يقول الإمام القشيري رحمه الله: «ومن أعظمها الخروج عما بيده من المال، لأنه يميل به عن طريق الاستقامة لضعفه، فليس له أن يمسك المال إلا بعد كماله في الطريق».[2]

---

[1] الأنوار القدسية، للشعراني ص ، ٥٩، ط، دار جوامع الكلم، القاهرة،مصر.

[2] الأنوار القدسية : ص٤٤

قال سفيان الثوري رحمه الله: «الزهد في الدنيا قصر الأمل، ليس بأكل الغليظ، ولا بلبس العباء».[1]

قال الشيخ قطب الدين الدمشقي رحمه الله في الرسالة المكية: «وأولى الأشياء بالمريد تصفية المطعم، والمشرب، والملبس؛ لأن بذلك يجد الزيادة في حاله».[2]

قال الشيخ سعد الدين الخيرآبادي رحمه الله في مجمع السلوك: «لايجوز للمبتديء أن يترك ما هو داخل في حد الضرورة؛ لأنه إن كان ترك الضرورة فألقى نفسه إلى التهلكة».[3]

قال ابن الجلاء: «الزهد هو النظر إلى الدنيا بعين الزوال، لتصغر في عينيك فيسهل عليك الإعراض عنها».[4]

من هنا اتضح أن ما قاله الصوفية في ترك الدنيا هو ليس الترك كاملًا وإنما هو قصر الأمل في الدنيا، والنظر إليها بعين الزوال.

يقول المحقق لكتاب الزهد للإمام أبي داود السجستاني: «وقد يتبادر للذهن أنّا نريد بالزهد ترك مجالات الحياة، أولبس الخرق، وأكل خشن الطعام، والخروج إلى المفاوزو الجبال، لا والله ما قصدنا ذلك، ولا أردناه».[5]

يقول الإمام الغزالي رحمه الله: «وقد يظن أن معنى التوكل ترك الاكتساب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض، كالخرقة الملقاة، وكاللحم على الوضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع».[6]

يقول الشيخ قطب الدين الدمشقي رحمه الله في الرسالة المكية: «الصوفية رأوا طلب العلم أفضل الأعمال لتوقفها عليه، فإن الجاهل قد يعتقد ما ليس بقربة قربة، كبدع المبتدعة بأفعالهم، نحو حلق اللحى والتطوق بأطواق الحديد وغير ذلك مما اخترعه الجهلة».[7]

ومما سبق من أقوال السادة الصوفية قد اتضح الحق بأن التصوف لايمنع عن الطهارة ولايأمر بالقذارة والدنس، ولايقول للتجافي بالدنيا كلها، وإنما هذا القول ليس إلا تهمةٌ عليه من مخالفيه، ورميٌ من المعاندين إليه بالترهات، فما قاله الصوفية عن عدم الاهتمام بالدنيا وعدم الاعتناء بالجمال الظاهري هو مخصوص في حالة السلوك ؛ ليصل العبد إلى الله سبحانه وتعالى.

ولنا أن نسأل الذين يعترضون على هذا القول من أهل التصوف ونقول لهم: أيها المعترضون هل أنتم

---

[1] الرسالة القشيرية ،ج ١ ، ص، ٤٠٠ ، ط ، شركة القدس ، القاهرة

[2] الرسالة المكية ، للشيخ قطب الدين الدمشقي، ص ١٠٠ ، ط ، أكاديمية شاه صفي بالهند .

[3] مجمع السلوك ، للشيخ سعدالدين الخيرآبادي ج ١ ، ص ٦٣٣ ، ط ، أكا دمية شاه صفي بالهند .

[4] الرسالة القشيرية ، ج ١ ، ص ٤٠١ .

[5] كتاب الزهد للإمام أبي داود السجستاني ، ص ١٠ ، ط دار المشكاة ، مدينة زكن جلوان

[6] مقدمة على " المنقذ من الضلال " من الإمام الغزالي " ، للدكتور عبدالحليم محمود ، ص ٦٣ ، ط مكتبة التوفيقية ، القاهرة

[7] الرسالة المكية ، ص ، ٦٠ .

تذكرتم تلك الحياة التي قضاها ﷺ في غار حراء؟ أم نسيتموها؟ أم أنكم تقولون: إن النبي ﷺ دخل في غارحراء مع مجموعة من الأثواب الجديدة ويستحمُّ فيها كل يوم ويُغيّراللباس كل يوم؟

ما رأيكم هل هذا صحيح؟ وإن كان هذا ليس بصحيح، وبالفعل ليس بصحيح، فما رأيكم في هذه الحالة الصوفيه؟ أَ وَ ليست هي كتلك الحالة التي قضاها صلى الله عليه وسلم في غار حراء؟

أيها المعترضون، ما يفعله الصوفية في أيام السلوك هو ثابت بفعل النبي صلى الله عليه وسلم، فهم يريدون من المريدين أن يكونوا في أيام السلوك كما كان البني صلى الله عليه وسلم في غار حراء، يعني يريدون أن يتبتلوا إلى الله سبحانه وتعالى تبتلًا كاملا؛ ليصلوا إليه، كما تبتل النبي صلى الله عليه وسلم إليه تبتلًا.

وأضرب لكم مثالا لتوضيح ما قاله الصوفية حتى ينكشف الستار ويتضح الأمر كفلق الصبح: هناك شخص له معشوق ولكنه بعيد عنه، وللوصول إلى هذا المعشوق طريقان: طريق ساذج غير معبّد خال عن الزخارف والتجميلات فيسلك عليه السالك ولا يلتفت عليه يمينا ولا شمالا؛ لأنه لايوجد في هذا الطريق شيء يُلفِّتُ نظر السالك إلى نفسه فهو لايزال يسلك حتى يصل إلى محبوبه ويجد مقصوده ومراده.

وطريق ثان: طريق مليء بالزخارف والتجميلات، نُصِبَتْ على طرفيه حدائق جميلات جذابة، فيها الأزهار والورود مفتحة وهي خلابة جدا، وكذلك هذا الطريق محاط بالقماقم والزخارف الكهربائية، وأقيمت التجميلات لدرجة كأنها تخطف الأبصار بحسنها وجمالها، وبالإضافة إلى ذلك تَهُبُّ النسيم، ويجري الهواء العليل، ويتعطر الجو بسبب الأزهار، والجو كله مليء بالروائح الطيبة وفي هذ الجو الساحر الفاتن لايخلو المسافرعن الخطر لأنه لوشَخصَ ببصره في حسن هذا الجو وجماله فمن الممكن أن يقع في فتنته ثم يلهو عن معشوقه ويتغافل عنه، وكذلك من الممكن أيضاً أن يمس جسدَه هذا الهواءُ العليلُ ويُخلدَه إلى النوم ثم يُفَرِّقَهُ عن حبيبه، ومن الممكن أيضاً أن يسيطر عليه هذا الجمال الفائق الرائع ويُغفِله عن مسيره ومنزله.

والآن الأمر متروك إليكم أخبروني ما هو الأسهل من هذين الطريقين؟ وما هو الموصِّلُ إلى المقصود منهما: الأول، أم الثاني؟ و هذا المثال فتنته أصغر من فتنة الدنيا، وفتنة المال، وفتنة الأولاد، ففتنة الدنيا والمال والأولاد أصعب شيء وأخطر. و من المعلوم بالمشاهدة أنه قلّ من وقع في شباك الدنيا ثم نجى منها .

مع الإشارة إلى أنَّ من وصل إلى محبوبه ومعشوقه فله الخيار أن يسير على أي طريق من هذين الطريقين؛ لأن الآن هو مع محبوبه ومعشوقه، فلا يخطر بباله أن يعشق معه أحدا، أو يفتتن بجمال أحد ويبتلى بحسنه؛ لذلك لايُخاف عليه من شيء.

وهذه الحكاية نفسها مع من يسلك في الله، فمن يريد أن يسلك في الله متمتعا بكل الملذات والشهوات

في الدنيا فيستحيل عليه السلوك إلى الله؛ لأن هذه الملذات والشهوات والأموال والملابس الفاخرة تشغله عن ربه وتحول بينه وبين الله، ثم تصل به النتيجة إلى الهلاك والضياع. ولكن السالك إذا تجافي عن هذه الملذات والشهوات واختار حياة ساذجة لايتعرض له الخطر، ولا يبقى أمامه إلا السلوك، فهولايزال يسلك حتى يصل إلى مطلوبه ومقصوده وهو الله سبحانه وتعالى.

ولابد من التنبيه إلى هذا الأمرالمهم بأن الحياة الساذجة لاتعني ترك الأشياء الضرورية، بل يجب عليه أن يختار من الأشياء الضرورية التي يحتاج إليها وعليه أن يأخذها، كما هو ثابتٌ بفعل النبي ﷺ حيث إنه ﷺ أخذ السويق معه لمّا اختارالخلوة والعزلة، وكذلك كما هو ثابت أيضا بأنه كان إذا انتهى السويق من عنده ﷺ في غار حراء فأم المؤمنين خديجة الكبرى رضي الله تعالى عنها كانت ترسل إليه.

وهذا معنى قول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَ ابْتَغِ فِيمَآ آتٰىك اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لَا تَنْسَ نَصِيبَك مِنَ الدُّنْيَا﴾[القصص:٧٧]

ومعنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ بِخَيْرِكُمْمَنْتَرَكَدُنْيَاهُلِآخِرَتِهِ،وَلاآخِرَتَهُلِدُنْيَاهُحَتَّييُصِيبَمِنْهُمَاجَمِيعًا،فَإِنَّالدُّنْيَابَلاغٌإِلَىالْآخِرَةِ» (١).

فلو أننا اخترنا من الدنيا تلك الحظوظ التي تتسبب في إبعادنا عن الله سبحانه وتعالى وتُنسينا ذكرالله سبحانه وتعالى فنقول بالجزم والقطع : إن الشريعة الإسلامية تمنعنا من أن نأخذ هذه الحظوظ من الدنيا .

ولابد أن نتنبه إلى أنه إذا كان تَركُ الدنيا بأكملها والتجافي عنها بِتمامها رهبانيةً. فإن الانهماك فيها بكل ملذاتها وشهواتها شيطانيةٌ، وأ مَرَنَا الإسلامُ أن لا نختار الرهبانية ولا الشيطانية. بل حدّد لنا طريقا مستقيما وسطا. وهو أن نختار من الآخرة ومن الدنيا أيضا. مع التنبيه إلى أن لاتغلب علينا الدنيا؛ لأنه إن كان غلبت علينا الدنيا فالخيبة والخسران مقطوع ومجزوم بهما .

نعم ولكن إذا أكمل السالك سلوكه فله الخيارأن يلبس كمايشاء، ويأكل كما يشاء، ويكتنزالمال كما يشاء، ويدخرالثروة كما يشاء،ويعيش كما يشاء؛ لأنه أصبح كاملا ونال مراده ومقصوده، وحصل على محبوبه ومعشوقه؛ لذلك لايغتر بمعشوقه المجازي وهو الدنيا، ولاينخدع بملذات الدنيا وشهواتها، ولاتصرفه الأموال والثروة عن الله سبحانه وتعالى، ولايفتنه جمال الدنياء وحسنها، ولذلك لايخاف على خوضه في المال كما مرت تصريحات الصوفية في هذا الأمر.

---

(١٥) رواه الخطيب في كتاب " تلخيص المتشابه في الرسم"(٦٥٩/٢) مرفوعا . ومن هذا الوجه رواه ابن عساكر في "تاريخه")٦٥ /١٩٧(وأورده السيوطي في "الجامع الصغير " ،وذكر في كتابه " الحاوي للفتاوي" (٢ / ٢٠١) ورواه الديلمي أيضامن هذا الوجه.

والتصوف يطلب منا أن نكون تفسيرا لقول النبي صلى الله عليه وسلم :عَنْ عَبْدِالله بْنِ عُمَرَ،رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ:«أَخَذَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَنْكِبِي فَقَالَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ، أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»(١٧).

فحالة الإنسان الغريب في بلد غريب: أنه يعيش في ذلك البلد إلا أن قلبه معلق ببلده، ومربوط بوطنه، ولايمرعليه حين من الأحيان إلا و هويذكر فيه أسرته وأولاده وأطفاله وأقرباءه، وكذلك ذكرياتُ وطنِه وأولادِه تكون مسيطرة عليه كل وقت وحين . و هذا الشيء نفسه نفسه يطلبه منا الحديث أن نكون مثل هذا الرجل الغريب حيث إننا نعيش في الدنيا ونكتنز أموالها وندخر ثرواتها ولكن يجب علينا أن نكون على يقظة بأن تكون فكرتنا مسلطة على الآخرة، ونكون في حالة أن لايمر علينا حين من الأحيان إلا و نذكر فيه الآخرة.

وأختتم كلامي ببيان حالة الإمام الغزالي رحمه الله وهذه الحالة تبيّن حقيقة قول الصوفية وتوضح مرادهم . لأن الإمام الغزالي رحمه الله أيضاً من أولئك الصوفية الذين مرّت عليهم حالةٌ فتركوا فيها الدنيا وتجافوا عن الجاه والحشم وتبتلوا إلى الله تبتلا . ولكن رجع الإمام الغزالي رحمه الله إلى الانشغال بالدنيا بعدما تركها، ورجع إلى نشرالعلم بعدما ودّعه. والآن نسمع ماذا يقول : يقول رحمه الله :«أنا أعلم: أني وإن رجعت إلى نشر العلم، فما رجعت ، فإن الرجوع عود إلى ما كان، وكنت في الزمان أنشر العلم الذي به يكسب الجاه، وأدعو إليه بقولي وعملي، وكان ذلك قصدي، ونيتي.وأما الآن فأدعو إلى العلم الذي به يُترك الجاه، ويُعرف به سقوط رتبة الجاه. وهذا هو الآن نيتي وقصدي، وأمنيتي : والله يعلم ذلك مني».

«وأنا أبغي أن أصلح نفسي، وغيري، ولست أدري أ أصل مرادي، أم أخترم دون غرضي؟ ولكن أومن إيمان يقين ومشاهدة، أنه لاحول ولاقوة إلا بالله العلي العظيم، وأني لم أتحرك لكنه حركني. وأني لم أعمل، لكنه استعملني. فأسأله : أن يصلحني أولًا. ثم يصلح بي، ويهديني، وأن يريني الحق حقا، ويرزقني اتباعه، ويريني الباطل باطلا، ويرزقني اجتنابه».

والذي ما قاله الإمام الغزالي هو نفس ما قاله الله سبحانه وتعالى في الحديث القدسي حيث يقول فيه:عَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ،عَنْ رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ : «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: مَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَأَكُونَ أَنَا سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ»(١٨).

وماقاله الإمام الغزالي رحمه الله هو مراد الصوفية بترك الدنيا أوعدم الاهتمام بالجمال الظاهري، لكي يكون العبد أولًا طاهرًا من كدورات النفس، ويكون متذللًا وخاضعًا لله سبحانه وتعالى، ومتوكلًا عليه،

(١٧) صحيح:أخرجه البخاري في "الصحيح" (٦٤١٦) -واللفظ له-, وابن أبي عاصم في "ذكر الدنيا" (١٨٥) ، وابن حبان في "الصحيح" (٦٩٨) ، وفي "روضة العقلاء" (ص :١٤٨)، والخطابي في "العزلة" (٣٩) ، والطبراني في "المعجم الكبير"(٨٨) ، وأبو نعيم في "الحلية" ٣/ ٣٠١ .

(١٨) أخرجه الطبراني: "المعجم الكبير"(٧٨٣٣) -واللفظ له-، والبخاري في "الصحيح" (٦٥٠٢) .

وبعيدًا عن هوى الدنيا، ونقيًا عن رذائلها وقبحها مثل: الحقد، والحسد، والكبر، والعُجْبِ، والهوى، وسائر الصفات الذميمة، والذنوب كلها، ليصل إلى الله سبحانه وتعالى ثم يعود إلى الدنيا وينشغل فيها. فإنه الآن لايتحرك إلا بتحريك الله سبحانه وتعالى، ولا يعمل إلا باستعمال الله سبحانه وتعالى له .

الخلاصة:

وأخيرا وصلت بنا النتيجة إلى أن من القرآن والأحاديث مايدعو إلى أن نزهد في الدنيا، ومنها: مايدعو إلى أن نأخذ نصيبنا من الدنيا ولا نعرض عنها كلها. وبعد معرفة هذا الموقف أُحتِّم الآن وأقول بالقطع والجزم بأن منهج الصوفية أحوط المناهج، ومسلكهم أفضل المسالك، ومذهبهم أعظم المذاهب. وبالعمل بهذا المنهج يبقى الاعتدال والاقتصاد؛ لأن من أراد أن يأخذ جميع الحظوظ في الدنيا فبالقطع واليقين هو يغرق في ملذات الدنيا وشهواتها، ويذهب إلى الشيطانية . ومن ترك الدنيا بكليتها وتمامها يذهب إلى الرهبانية . ولكن إذا اختار الإنسان منهج الصوفية وتجّرع المرارة والمشقة في البداية، وتحمل الأذى والمكابدات في مرحلة السلوك، ووصل إلى الله سبحانه وتعالى فلاخطر ولاخوف عليه في الخوض له في الدنيا، فإنه إن كان خاض فيها فيبحث فيها أولا يفيده في الآخرة ويبحث فيها يكون له ذخرا يوم القيامة. وهكذا هو يتمتع بالدنيا وفي الوقت نفسه يجمع زادًا عما يفيده في الآخرة.

الجامعة العارفية

مؤسسة دينية علمية تهدف إلى تهذيب العقول وتزكية النفوس وتزويد الطلبة بالمواد التعليمية القيمة تجمع بين القديم النافع والجديد الصالح و بين ما ينظف الجسد وما يطهر الروح، وهي تشتمل على الشريعة كما تشتمل على الطريقة والحقيقة، وتنفخ في الشباب روح العلم والدين والجذب والسلوك، وتهيئهم ليفلحوا في الدنيا والآخرة ويقودوا الأمة في المعاش والمعاد. وأما طريقها فهي طريق وسط بين إفراط في العقيدة و تفريط في العمل، طريق أهل السنة وجادة أهل المعرفة الذين أنعم الله عليهم، لايحبون ولايبغضون إلا لله وفي الله.

أصول نافعة

لفهم التصوف والصوفية الصافية

إعداد: ضياء الرحمن العليمي[1]

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وبعد! فقد أجمع أهل التصوف على أن العلماء الذين اختلافهم رحمة هم المعتصمون بكتاب الله تعالى، المجاهدون في متابعة رسول الله ﷺ، المقتدون بالصحابة والمقتفون آثارهم بكل جد وحماسة وروح ونشاط، وهم ثلاثة أصناف: المحدثون والفقهاء والصوفية.

أما أصحاب الحديث فهم تعلقوا بظاهر حديث رسول الله ﷺ وهو أساس الدين لقوله تعالى: ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهكم عنه فانتهوا، فاهتموا بجمع متونه وتحقيق أسانيده واشتغلوا بسماعه وتناقله وتدبره وتمييز صحيحه من سقيمه، فكانوا حراس الدين والمحافظين عليه.

وأما الفقهاء فهم فضلوا على المحدثين لما خصوا به بعد قبول علمهم والتحلي بأصناف معارفهم، من الفهم والإستنباط وفقه الحديث والتعمق وتدقيق النظر في ترتيب العقائد والأحكام وحدود الدين والتمييز بين الناسخ والمنسوخ، والمطلق والمقيد، والمجمل والمفسر، والخاص والعام، والمحكم والمتشابه، فأصبحوا حكام الدين وأمرائه وأعلامه.

وأما الصوفية الصافية ـ متعنا الله ببركات أنفاسهم ـ فهم اتفقوا مع الطائفتين في معانيهم ورسومهم وظواهرهم وبواطنهم بشرط مجانبتها للهوى وصلاحيتها بالاقتداء، فمن لم يحط

[1] أستاذ: الجامعة العارفية.

من الصوفية علما بما أحاطوا به يرجعون فيه إليهم في ظواهر الحديث وعلومه وأحكام الشرع وحدود الدين، فإذا أجمعوا فهم على إجماعهم وإذا اختلفوا أخذ الصوفية بالأحسن والأولى.

ثم إنهم امتازوا بعد ذلك بعلوم عالية وهي علوم الأحوال والمنازل والمقامات الباحثة عن الجوانب الروحية للدين وبواطنها تزكية وتجلية وتصفية، وخصوا بأحوال شريفة ومقامات سنية فتكلموا في علوم المعاملات وغيوب الحركات والسكنات وشريف الأحوال والمقامات وذلك مثل التوبة والزهد والورع والصبر والرضاء والتوكل والمحبة والخوف والرجاء والمشاهدة والطمأنينة واليقين والقناعة والصدق والإخلاص والشكر والذكر والفكر والمراقبة والاعتبار والوجل والتعظيم والندم والحياء والجمع والتفرقة والفناء والبقاء ومعرفة النفس وطرق مجاهداتها ورياضاتها ودقائق الرياء والشهوة الخفية والشرك الخفي وكيفية الخلاص منها.

فهم مع الإحاطة بعلوم المحدثين والفقهاء متخصصون في فن تزكية النفس وتحليتها بالفضائل عملا بقوله تعالى: وذروا ظاهر الإثم وباطنه، كما أن الفقهاء متميزون ومتفوقون في تطهير ظواهرها من المعائب والقبائح وتزيينها بالمحاسن، ولما كان هذا الفن أشرف الفنون وأجل العلوم وأعلاها وفي ذلك تنافس المتنافسون فكان الصوفية أشرف هؤلاء الطوائف، فكانوا حماة الدين وأعيانه وأنصاره، ولأجل ذلك خضعت لهم رؤوس الفقهاء والمحدثين والمتكلمين جميعا[1]

لقد ظهر مما أسلفنا ذكره أن التصوف مقصوده إصلاح الباطن وتزكية النفس وتنويرها بمحامد الأخلاق وكرائم الصفات، ومن أهم وسائل هذا المقصود كتب التصوف، وكان من دأب سلفنا الصالح أنهم لنيل هذه الغاية القصوى كانوا يتوجهون إلى المشايخ الصوفية في عصرهم، مفوضين أنفسهم إليهم كالميت بين يد الغسال، حتى يتصرفوا فيهم كما شاءوا ويأمروهم ما أرادوا في ضوء القرآن والسنة، فهؤلاء تسلكوا تحت رعاية المشايخ المرشدين الكريمة وتربوا في ظلالهم الوارفة، فدرسوا كتب التصوف أيضا حسب إرشادهم وتوجيهاتهم القيمة أو تلقو دروسها منهم

[1] ينظر: آداب المريدين لأبي النجيب السهروردي، ص:١٨ ملخصا، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

بلا واسطة فرجعوا إليهم في كل ما ظهر لهم من إيراد أو إيهام فاهتدوا إلى سوآء السبيل حتى جاء زمان احتجب فيه المشايخ الصالحون وقل الطالبون الصادقون.

وفي تلك الظروف من وقعت في أرض قلوبهم البذرة الصالحة لإرادة وجه الله تعالى تمسكوا بهذه الكتب الصوفية واكتفوا بها مرشدا وشيخا وظنوا أنها هي التي تهديهم إلى مقامات القرب والوصال وتبلغهم إلى أوصاف الكمال، وهذا نفعهم من جانب من حيث أنه اشتعلت نيران إرادة الله تعالى وطلبه في قلوبهم بمطالعة تلك الكتب وكلمات المشايخ الصالحين التي هي جند من جنود الله للطالبين رضاء الله، كما أضرهم من جانب آخر، وذلك أنهم لعدم مطالعتها تحت إشراف شيخ كامل لم يصلوا إلى الفهم الصحيح للتصوف ولم يعرفوا مواضع إستعمال الأدوية الروحية المذكورة في تلك الكتب، وحاولوا أن يعالجوا أمراض نفوسهم بأنفسهم ظانين أنهم أحاطوا بأمهات كتب التصوف فضلوا الطريق وانحرفوا عن السبيل بل ربما أساؤوا الظن بالتصوف والصوفية وحكموا أنهم بكل فئاتها ضالة ومضللة، وأما من أراد من المعادين للتصوف والصوفية أن يعرفهم عن طريق كتبهم فهو أيضا لم يبلغ إلى مرامه لعدم مراجعته أثناء دراسته إلى شيخ في التصوف فازداد إنحرافا وضلالا وإضلالا.

والحقيقة أن العامي يستطيع أن يستهدي بنفسه بالمواعظ والأحكام العامة المذكورة في الكتاب والسنة بدون احتياج مراجعة إلى فقيه ومجتهد، وأما إذا كان المطلوب هو التفقه فيهما والتعمق في نصوصهما فهو مضطر إلى أن يراجع إلى من فقهه الله تعالى فيهما وأن تتوفر له العلوم العالية اللازمة للاستنباط والاستنتاج، فيستخدمها بكل جهد وقلب عامر بتقوى الله واتباع سنن رسوله ، وإلا فيمكن أن يكون ممن يصدق عليه قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[البقرة:٢٦] وقول الإمام سفيان بن عيينة رحمه الله: الحديث مضلة إلا للفقهاء[1]

وليس الأمر مقصورا على الكتاب والسنة بل كتب الفقه والفتاوى أيضا كذلك، فإذا

[1] الجامع في السنن والآداب لابن أبي زيد القيرواني، ص:١١٨.

قرأناها بدون مراجعة إلى شيخ متبحر في المسائل الفقهية والفتاوى الشرعية فماكانت إلا سببا للغواية والضلال، والسر في ذلك أن الفقيه عند دراسته للكتاب والسنة يعلم يقينا أن في نصوصهما عاما وخاصا، وإجمالا وتفصيلا، ومواعظ وقصصا، وأمثالا وحكما وما إلى ذلك من وجوه الكلام، فيدرسهما في ضوء الأصول والقواعد للاستنباط والاجتهاد، وكذلك الفقيه عند مطالعته للكتب الفقهية يعلم جيدا أنه من بين هذه المسائل ماهي راجحة ومنها ما هي مرجوحة، ومنها ما هو ظاهر الرواية وما هو نادر الرواية، ومنها ما يفتى به ومالا يفتى به، وكذلك يعرف درجات هذه الكتب ومراتب مؤلفيها وما غير ذلك من الأصول النافعة المتعلقة بالفن، فيطالعها على بصيرة مستضيئا بها فيجد بغيته على الوجه الصحيح، ولذلك عندما يعرج العامي على فهم الكتاب والسنة ومطالعة كتب الفقه والفتاوى بدون سابق المعرفة بأصول فهمها فيقع في المهالك ولا يهتدي إلى طريق مستقيم.

وقد اتفق العقلاء أيضا أن كتب الفنون ليست بنافعة للطالبين المبتدئين والمتوسطين إلا إذا كانت مصحوبة بتوجيهات الشيوخ ومهرة الفنون فتبنى المدارس الدينية لتتلقى من أساتذتها دروس القرآن والسنة، والفقه والإفتاء، وتنشأ الجامعات والكليات والمدارس العصرية حتى تؤخذ منها العلوم العصرية، ولا يستطيع ههنا أن يدعي أحد أن العامي إذا درس الكتاب والسنة والفقه والعلوم الإسلامية الأخرى بدون إرشاد شيخ يأخذه إلى الغاية المنشودة، كان عالما وفقيها بالمعنى المحقق الثابت عند رجال العلم والفن، أو أن الرجل مثلا إذا طالع كتب الهندسة والطب والفيزياء وغير ذلك بدون مراجعة إلى علمائها كان مهندسا أو طبيبا أو عالما للفيزياء، ولكن من العجب العجاب أن الناس في القرون المتأخرة حسبوا مطالعة كتب التصوف كافية للحصول على علم التصوف، والمعرفة بدقائها ولطائفها وإشاراتها، ولم يهتموا بضرورة صحبة المشايخ الصوفية، فنتج عن ذلك أن المؤيدين للتصوف ابتعدوا عن الفهم الصحيح للتصوف فزلوا عن الجادة والسنة، كما غلط المنكرون للتصوف في فهم حقيقته وقالوا إن التصوف ليس له علاقة بالدين والشريعة وهو نزعة خارجة عن ملة الإسلام.

وقد أكد على أخذ كل فن من أهله لا من غيره الإمام والعارف الشيخ ضياء الدين عبد القاهر أبو النجيب السهروردي (٤٩٠- ٥٦٣هـ) في كتابه آداب المريدين فقال: ثم إن كل من أشكل عليه شئ من العلوم الثلاثة (الحديث والفقه والتصوف) فعليه أن يرجع فيه إلى أئمتها، فمن أشكل عليه شئ من علوم الحديث ومعرفة الرجال يرجع فيه إلى أئمة الحديث لا إلى الفقهاء، ومن أشكل عليه شئ من دقائق الفقه يرجع إلى أئمة الفقهاء ومن أشكل عليه شئ من علوم الأحوال والرياضات ودقائق الورع ومقامات المتوكلين يرجع فيه إلى أئمة الصوفية لا إلى غيرهم فمن فعل غير ذلك فقد أخطأ الطريق وسلك المضيق.[1]

والواقع أن التصوف ليس بدعا من الأمر بل هو فن من الفنون، فما في كتبه من الأقوال فيها عموم وخصوص، وإجمال وتفصيل، وإبهام وتوضيح، وإطلاق وتقييد، وقصص ومواعظ، وحكم وأمثال، ومحكمات ومتشابهات، وشطحات وغلبات الأحوال، وما ذكر فيها من مسائل التصوف لها درجات من حيث الإستنباط، فمنها ما هو مأخوذ من عبارة النص ومنها ما هو مستنبط من إشارة النص أو دلالة النص أو اقتضاء النص، ولها أحكام متفاوتة في التصوف، وفي هذه الكتب دقائق ولطائف وأسرار لا ينتهي إلى حقيقتها الطالب بدون تلمذ على شيخ عارف، فإن التصوف عبارة عن فقه الباطن ومغزى الشريعة، وكتبه تضم بين دفتيها المسائل المتعلقة بالقلب والباطن، وكلنا يعرف جيدا أنه تم استخراج مسائل الشريعة تحت أصول الفقه فلما لا يكون هناك أصول باستنباط المسائل ا لمتعلقة بالباطن، مع أن استخراجها أشد وأصعب بالنسبة إلى ظواهرها.

وقد اتفق بحسن الحظ للفقه الظاهر أن دونت أصول الفقه والفتوى في عصر التدوين فسهل الانتفاع بكتبه، ولم يكن الأمر كذلك مع الفقه الباطن، فإن فقهاء الباطن أعني السادة الصوفية اشتغلوا بتزكية النفس والإصلاح والإرشاد حسب أصولهم الغير المدونة المعتبرة لديهم وما زالوا عليه واهتموا بالجانب العملي أكثر بالنسبة إلى الجانب العلمي والفني، ولم

[1] فصل: الكلام على فروع الدين وأحكامه، ص: ١٩.

يركزوا على تدوين الأصول في طيات الكتب بالاستقلال ولو صرحوا أو أشاروا إليها ضمن المباحث والمسائل أشتاتا، وذلك لأجل اعترافهم بأن التصوف ليس علما ينسخ وإنما هو روح تنفخ، فلا يوخذ التصوف وعلومها من بطون الكتب بل من مشكاة صدور المشايخ المحققين الصوفية عن طريق الصحبة، والآن نحن في زمان قل فيه الشيوخ الكاملون والطالبون الصادقون فانتهى أمر الصحبة أو ندر، ولم يبق إلا كتب التصوف للوصول إلى معرفة الحق والحقيقة والفهم الصحيح للتصوف، فالحاجة ماسة إلى أن نجمع هذه الأصول الموجودة في صفحات أشتات الكتب وندون متفرقاتها حتى تكون عاصمة للطالبين من أن يخطئوا السبيل ومانعة للقاصدين للفهم الصحيح من أن يفقدوا الغاية والمطلوب، وتسهل من خلاله عملية التفاهم العلمي والنظري إلى حد كبير.

وقد أشار إلى ضرورة المعرفة بأصول فقه التصوف الشيخ الإمام أبو النجيب السهرودي فقال في آداب المريدين:

ولا يصح لأحد أن يسلك طريق الصوفية حتى يعلم عقائدهم وآدابهم في ظاهرهم وباطنهم، واصطلاحاتهم في كلماتهم، ويفهم إطلاقاتهم في محاوراتهم حتى يصح له أن يحذو حذوهم ويقفو أثرهم في أفعالهم وأقوالهم، فإنه من كثرة المدعين جهل حال المحققين، وفساد المفسدين الفاسدين إليهم يعود، ولا يقدح في صلاح الصالحين.[1]

ولقد توجهت إليَّ العناية الأزلية وأسعدني المشية الأبدية، وهبت في حياتي نسيمات الرحمة الإلهية وأخذت بيدي التوفيقات الربانية وكنت منغمسا في الحياة الدنيوية فأوصلتني إلى شيخ سلك طريق الحق واليقين، وجاهد في سبيله وعرف المفاوز والمهالك، وذاق العسل والعلقم، فمنَّ الله عليه بمقامات القرب والكمال، وجعل صدره مشكاة فيها مصباح العلم والعرفان، والمصباح في زجاجة، والزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة يكاد زيتها يضيئ ولو لم تمسسه نار، فهو نور على نور لكل من دب إليه فأحب، ألا وهو العارف

[1] المصدر السابق: ص،٧.

الرباني الداعية الإسلامي الشيخ أبو سعيد إحسان الله المحمدي الصفوي، فآتت صحبته أكلها بإذن ربه فازداد لي التصوف وضوحا ويقينا.

وعبر هذه السنوات جمعت لدي من صحبته الميمونة التي تكشف للطالبين الجانب العملي والنظري كليهما، غرر الأصول ودرر القواعد التي تزيل غيوم الشكوك وغياهب الظلمات عن سماء التصوف، فاغتنمتها وزدت إليها بعض الأصول الأخرى مما جادتني بها دراستي لبعض كتب التصوف، وأردت أن أتحف طلاب التصوف بها حتى يكون فيها إرواء لمن ورد موارد التصوف وسقاية لمن قصد مناهل الإحسان، فأقول مستعينا بحول الله ومستغيثا به أن يلهمني الرشد والصواب ويعصمني من الزلل والنقصان:

الأصل الأول:معرفة المنتسبين إلى التصوف ودرجاتهم

وهذا أصل من أصول الفهم الصحيح للتصوف، فالصوفي عند العوام كل رجل لبس زيهم أو عكف على عتبات ضرائح الصالحين سواء أكان صوفيا محققا أو متصوفا أو مترسما مسترزقا باسم التصوف وأهله، ولذلك يلتبس الأمر عليهم فيختلط الحق بالباطل، فمن الواجب علينا أن نقف وقفة متأنية عند دراسة كتب التصوف وما فيها من أقوال وأفعال الصوفية، فنتحرى الصدق من الكذب ونرى درجة المؤلف الصوفي ومرتبة قائل هذه الأقوال وصاحب هذه الأفعال، ونستكشف أن انتسابه إلى التصوف حقيقي أو رسمي أو اسمي.

قال الإمام العارف أبوالحسن علي بن عثمان الهجويري الغزنوي (ت:٤٦٥ هـ) في كتابه كشف المحجوب: إن المنتسبين إلى التصوف على ثلاثة أقسام: صوفي و متصوف و مستصوف، أما الصوفي فهو رجل عارف بالحق واصل إلى الله، وأما المتصوف فهو رجل سالك طريق القوم ومجاهد ليلا ونهارا لأن يكون صوفيا حقيقيا فائزا بمراتب القرب والوصول، وأما المستصوف فهو رجل غارق في اللغو والفضول، خادع ماكر مسترزق باسم الصوفية الصافية.[1]

[1] ينظر الكتاب بالفارسية، باب التصوف، الفصل الأول.

ولو وسّعنا هذا التقسيم لساغ لنا أن نقول: إن المنتسبين إلى التصوف على ثلاثة أقسام: الواصلون، الطالبون للوصال، المخادعون الماكرون الكذابون، أما الواصلون فهم ثلاث طوائف: الصوفية، والقلندرية، والملامتية، والمجاذيب المحض، وأما الطالبون للوصال فهم أربع طوائف: المتصوف والمتشبه والمحب للقوم، وخادمهم، وأما المخادعون الماكرون الكذابون فهم صنفان: الأول: الجاهل الماكر المدعي للتصوف، والثاني: العالم السوء المدعي للتصوف.

الصوفية:

أما الصوفية فهم الذين يقدرون على تسليك الآخرين إلى المطلوب، فهم الراشدون المرشدون، وهم الذين سلكوا طريق الحق وعرفوا المهالك والمخاوف وأبصروا المذموم والمحمود، فكانوا عالمين بالله، عارفين بمنازل ومقامات الطريق، وهم كيسون دراكون لأمزجة المريدين الطالبين، معالجون نفوسهم بالأدوية المناسبة لطبائعهم، فهم وراث الأنبياء ومصداق قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[شورى:٥٢]

والصوفي أيضا له قسمان: السالك المجذوب،والمجذوب السالك، أما السالك المجذوب فهو الذي روضّ أولا ظاهره بآداب المجاهدة وسلك إلى الله بقدم المتابعة، فتحلى قلبه وباطنه بأنوار القرب والمشاهدة، أما المجذوب السالك فهو الصوفي الذي حصلت له أولا الجذبة الإلهية، وتنور باطنه بتجليات اليقين والمشاهدة، ثم جرى على ظاهره صورة المجاهدة من غير مكابدة وعناء بل بلذاذة وحلاوة، وهو أعلى القسمين من حيث عموم النفع والإفادة والنصح والإرشاد.

القلندرية:

أما القلندريون فهم الذين سلكوا سبيل الحق واليقين فاهتدوا إليه ثم أصبحوا هداة الطريق ولكن ليس لهم منهج خاص ومشرب مخصوص في سلوكهم إلى ربهم وخالقهم.

الملامتية:

وأما الملامتيون فهم الرجال الواصلون الذين يخلصون دينهم لله وتغلب عليهم الجذبة الربانية فيسترون بلباس الملامة، ولا يخافون في الله لومة لائم لكون باطنهم متحليا بصدق المعاملة مع الله،

ولا يكون أمثال هؤلاء بالغين إلى مرتبة المشيخة والإرشاد إلا العدد القليل، قال الإمام شيخ الشيوخ شهاب الدين عمر السهروردي قدس الله روحه في كتابه العظيم عوارف المعارف: قال بعض الصوفية: الملامتي هو الذي لا يظهر خيرا ولا يضمر شرا.[1] (الباب الثامن، الطائفة الملامتية)

وبيانه أن الملامتي يتحلى وجوده كله بالصدق والإخلاص فليس بباطنه شر مستور فلا يريد أن يطلع أحد على ما في سره عن طريق ظاهر أعماله، فيستره أيضا بكل جهد جهيد.

المجاذيب:

أما المجاذيب المحض فهم الذين حصلت لهم الجذبات الربانية بدون أن يكون لهم سلوك سابق أو لاحق، فوصلوا إلى الحضرة الإلهية وشاهدوا الأنوار وجُذِبوا عن أنفسهم وعقولهم فأصبحوا لا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان، وإنما هم سابحون دوما في بحر المعرفة والتوحيد، مختطفون عن الحس والمحسوس، فهم عتقاء الله وهم الذين سماهم العلامة المحدث إبن الجوزي رحمه الله في كتابه صفة الصفوة بالمجانين العقلاء.

وهؤلاء في حد ذاتهم واصلون غير موصلين إلى الله، فإنهم لم يسلكوا بقدم السلوك سابقا أو لاحقا فما قاسوا مشاق المجاهدة وما تجرعوا مرارات الطريق، وما عرفوا المنازل والمقامات، والفرق بين الملامتي وبين المجذوب أن الملامتي ولوسعد بالجذبة والأنوار الإلهية إلا أنها ليست بدائمة ومتتابعة بل له نصيب من الحس والعقل، وقسط من السلوك والمجاهدة وعندهم اختيار وإرادة، بعكس ما عليه المجذوب فهو مسلوب عن حسه وشهوده وغير باق عنده قصد وإرادة لأجل تتابع الأنوار وتواصل التجليات.

المتصوفون:

وأما المتصوفون من طائفة الطالبين للوصال فهم السالكون طريق الحق واليقين، المجاهدون ليل نهار بكل جد ونشاط وروح وحماسة لتزيين ظاهرهم وباطنهم بالشمائل الصوفية ولتزكية قلوبهم من النجاسات المانعة من الوصول إلى العتبة الربانية، الراجون من الله أن

[1] ينظر: آداب المريدين لأبي النجيب السهروردي، ص:١٨ ملخصا، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

يكونوا ممن زكاه الله فتزكى قال تعالى: قد أفلح من تزكى، والعاملون بقوله تعالى: واتبع سبيل من أناب إلي، و المتمسكون بقوله تعالى: واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، حتى ينال ما طلبوه، ويكونوا ممن أحبّ اللهَ فأحبه ورضي عنه فارتضى به.

وإنما هؤلاء هم الذين يكونون في المستقبل داعين إلى الله بإذنه على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، وذلك بعد عبورهم مراحل المجاهدات ووصولهم إلى عوالم المشاهدات تحت تربية شيخ كامل وبعد حصولهم منه على الإجازة والخلافة والخرقة ليكون مفيدين للخلق بعد أن كانوا مستفيدين.

وقد هان أمر إلباس الخرقة وإعطاء الخلافة في عصرنا فأحرزها كل صغير وكبير وقد كان لها شأن عظيم عند السادة الصوفية فما كانوا يلبسونها ولا يعطونها إلا من استوفت فيه شروطها وآدابها، فإن إعطاء الخلافة وإلباس الخرقة إعلان لأهليته وقدرته على تربية الخلق وتزكيتهم وتطهيرهم من الأرجاس والأنجاس، وتحليتهم بالآداب والأخلاق المؤهلة للحضرة الصمدية، ولذلك فقد اشترط لها المشايخ ما يلي من الشروط والآداب:

١. أن يكون عاقلا لا مجنونا ولا مجذوبا محضا أو شطاحا مغلوبا في الأحوال.
٢. أن لا يكون صبيا لا يفقه ما يقول.
٣. أن يكون قادرا لا عاجزا فلا يتخلف عن مهمته في أي حال من الأحوال.
٤. أن يكون عالما طالبا للمزيد من العلم.
٥. أن يكون صالحا عاملا مخلصا له الدين متبعا لكتاب الله وسنة رسوله في جميع أقواله وأعماله وأحواله، ومتواضعا لا متكبرا ولا فاسدا مفسدا للفرد والمجتمع.
٦. أن يكون زاهدا عن الدنيا في الدنيا لاحريصا عليها ولا طامعا فيها.
٧. أن يكون قلبه معمورا بالتقوى وأن يكون دائم الخوف على نفسه مع الحصول على نعمة الخلافة والوراثة النبوية.

وهذه الشروط المذكورة فيما أعلاه تميز لنا الخبيث من الطيب والصادق من الكاذب، فلا

يتبادر أحد بالإنكار على الصوفية بسبب هؤلاء الفاقدين للشروط، والكذابين في دعواهم فهم قطاع الطريق ولصوص الدين.

المتشبهون:

وأماالمتشبهون فهم على عقائد الصوفية ومناهجهم، ولكنهم مع ذلك لم يؤدبوا نفوسهم بالمجاهدة مثل المتصوفين، إلا أنهم يحبون الصوفية ويريدون أن يحشروا معهم ويكونوا يوم القيامة مصداق قول رسول صلى الله عليه وسلم: من تشبه بقوم فهو منهم.[1]

وأما الفرق بين المتصوف السالك والمتشبه فقد قال الصوفية إن التصوف أوله إيمان وأوسطه علم وآخره ذوق ووجد وموهبة، فالصوفي جامع هذه الصفات الثلاثة والمتصوف له إيمان وعلم على الطريقة الصوفية، وأما المتشبه فقد آمن على الطريقة الصوفية ولكنه لم يبلغ إلى درجة العلم كما بلغ إليه المتصوف السالك ولكنهما رضيعان من لبان الأحوال الصوفية على قدر نصيبهما، أو نقول إن المتصوف صاحب مجاهدة عكوف على العمل والمتشبه أيضا صاحب مجاهدة ولكنه غير عاكف عن العمل بل مقصر فيه بالنسبة إلى المتصوف.

المحبون:

وأما المحبون فهم يريدون أن يفدوا بكل ما عندهم من مد وصاع على الصوفية بسبب حبهم لهم ولكن ليس لهم ميل إلى السلوك ورياضة النفس ومجاهدتها، وهم مع ذلك داخلون في عموم بشارة الرسول المصطفى عليه الصلاة والسلام: المرء مع من أحب.[1]

وفي هذه الطائفة صنفان: الأول عامة الناس الذين يحبون الصوفية وينفقون عليهم كل ما عندهم من الغث والثمين، والثاني العلماء الذين لم يتحلوا بالآداب والأخلاق الصوفية ولا يريدونه أيضا إلا أنهم بسلاح علمهم يدافعون عن الصوفية والتصوف، فهم ـ أعني عامة الناس والعلماء ـ أنصار الصوفية ومحبوهم وسيكون لهم شأن يوم القيامة إن شاء الله تعالى.

---

[1] سنن أبي داؤد، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة.

[1] صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب علامة حب الله.

الخادمون:

وأما خدام الصوفية فهم الذين ليس لهم نصيب من الأحوال العالية الصوفية ولكنهم في خدمتهم مستعدون ليوصلوا إليهم الراحة والطمأنينة ويجعلوهم متحررين من هموم الدنيا خالصين مخلصين لله تعالى، وسيجزون هؤلاء عند ربهم إن شاء الله تعالى مصداقا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: للعبد المملوك المصلح أجران.[1]

والدليل عليه ما روي عن أنس رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلا في يوم حار شديد الحر، فمنّا من يتقي الشمس بيده، وأكثرنا ظلا صاحب الكساء يستظل به، فنام الصائمون وقام المفطرون فضربوا الأبنية وسقو الركاب، فقال رسول الله ﷺ ذهب المفطرون اليوم بالأجر.[1]

الكذابون:

وأما الكذابون المخادعون الماكرون، فهم المستصوفون المسترزقون باسم التصوف والصوفية، وفيهم نوعان: النوع الأول الجهال الماكرون المدعون للتصوف، وهم الذين ليست لهم علاقة بالعلم والعمل والعلوم والأحول الصوفية، فليس عندهم وراثة الصوفية ولا خلق من أخلاقهم ولا تشبه صادق بهم ولا محبة ومودة صافية معهم، وإنما هم مستأجرون بالتصوف مرددون بأسماء الصوفية، صائحون بنعراتهم، رافعون هتافاتهم ليستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير.

ومن الأسف الشديد! أن رجال هذه الطائفة كثيرون في المجتمع، فهم يؤدون رسوم البيعة الصوفية ويعطون الخلافة بدون استحقاق، وهم عاكفون على بعض الرسوم الصوفية بالغلو والإنتحال ليستمتعوا بزخارف الدنيا ويكنزوا الأموال.

والنوع الثاني: العلماء السوء المدعون للتصوف، وهم أيضا مع تحليتهم بالعلم الظاهر منحرفون عن العمل وليس لهم من وراثة الصوفية وعقائدهم وعلومهم وأعمالهم وأحوالهم

---

[1] صحيح البخاري، كتاب العتق، باب العبد إذا أحسن عبادة ربه.

[1] صحيح مسلم، كتاب الصيام، باب أجر المفطر في السفر إذا تولى العمل.

من نصيب، لحرمانهم من قلب سليم بسبب عدم التزكي من الأقذار والأنجاس، والطامة الكبرى أنهم قد ظنوا ما يرددون على ألسنتهم من المسائل الفرعية من باب الطلاق والعتاق، أصل التصوف وروح الدين وخلاصة الإيمان، وهم أيضا مستأجرون بشعار التصوف والصوفية، وبضاعتهم فيها مزجاة، إنهم أكثروا أخذ البيعة من عوام الناس وغلو في إعطاء الإجازات والخرقات فغيروا طريقة الصوفية السنية ورسومهم النيرة، أحسنوا الظن بمشايخهم وأساؤوه بمشايخ الآخرين فسارعوا في الاعتراض عليهم وهم يحسبون أنهم حملة التصوف في الحقيقة وهم فيه كاذبون.

الأصل الثاني: تحديد طبقات الصوفية

إن للصوفية طبقات كما للفقهاء طبقات وفيما بين هذه الطبقات من هم غير بالغين إلى المرتبة الرفيعة للاجتهاد المطلق ولو في المسائل الجزئية، ومنهم الواصلون إلى عين الشريعة الكبرى فهم يأخذون الأحكام من حيث يأخذها مجتهدو هذه الأمة، قد أشار إلى هذا التقسيم الإمام عبد الوهاب الشعراني قدس الله روحه في خطبة كتابه المسمى بـميزان الشريعة الكبرى فقال:

الحمد لله الذي جعل الشريعة المطهرة بحرا يتفرع منه جميع بحار العلوم النافعة والخلجان، وأجرى جداوله على أرض القلوب حتى روى منها قلب القاصي من حيث التقليد لعلمائها والدان، ومنّ على من شاء من عباده المختصين بالإشراف على ينبوع الشرعية المطهرة وجميع أحاديثها وآثارها المنتشرة في البلدان، وأطلعه الله من طريق كشفه على عين الشريعة الأولى التي يتفرع منها كل قول في سائر الأدوار والأزمان، فأقر جميع المجتهدين ومقلديهم بحق حين رأى إتصالها بعين الشريعة من طريق الكشف والاعيان، وشارك جميع المجتهدين في إغترافهم من عين الشريعة الكبرى وإن تقاصر عنهم في النظر وتأخر عنهم في الأزمان.[1]

ويمكن لنا أن نجعل لهم طبقات مثل طبقات الفقهاء فنقول: الصوفية على سبع طبقات: طبقة المجتهدين في الشريعة، طبقة المجتهدين في الطريقة ، طبقة المجتهدين في مسائل الطريقة،

[1] ينظر: خطبة ميزان الشريعة الكبرى.

طبقة أصحاب الترجيح، طبقة أصحاب التخريج، طبقة أصحاب التمييز، طبقة المقلدين.

وأما طبقتهم من المجتهدين في الشريعة فهم أيضا ينسبون أنفسهم لأجل بعض المصالح الشرعية إلى أحد من الفقهاء المجتهدين، فيسمى واحد منهم نفسه مثلا حنفيا أو مالكيا أو شافعيا أو حنبليا، وأما من غيرهم من الصوفية من هذه الطبقات فهم مجتهدون من وجه ومقلدون من وجه كما هو ظاهر من أسماء هذه الطبقات أيضا، ومن هنا يظهر الأمر جليا أن الصوفي بالمعنى المصطلح لا يكون مقلدا غير بصير، وإنما يكون مقلدا ناقلا عاقلا صاحب بصيرة يمشي على هدى ونور، ومن لم يكن كذلك فهو ليس بصوفي بل متصوف بالمعنى الذي ذكرنا.

وليكن الأمر واضحا في هذه المقام أن وجود رجال هذه الطبقات ليس بمخصوص بأي عصر ومصر ولا يصح أن يقال أن رجال إحدى الطبقات المتعينة كانوا يوحدون بالعصور الماضية وأما اليوم فلم يبق إلا طبقة المقلدين كما ذهب إليه صاحب تقسيم طبقات الفقهاء وغيرهم، فإن باب الرحمة الإلهية مفتوح على مصراعيه فلا يبعد أن يوجد صوفي من هذه الطبقات في أي عصر من العصور، قال تعالى: وفوق كل ذي علم عليم، ويشير إليه قوله تعالى:﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ اٰيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَاْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَا ﴾[البقرة:١٠٦] والصوفية من آيات الله بلا شك وريب، وقال رسول الله ﷺ: مثل أمتي كمثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره [1]

وليتضح الأمر علينا أيضا أن تحديد رجال هذه الطبقات والحكم بأن هذا الصوفي من هذه الطبقة أيضا حكم اجتهادي يختلف باختلاف الناس كما وقع الخلاف في إدخال الفقهاء في طبقة خاصة من طبقاتهم، إلا أن هذا التقسيم سينفعنا كثيرا في دراسة التصوف والصوفية الإيجابية والحكم على أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم وفي تحديد مراتب كتبهم.

الأصل الثالث: معرفة أنواع أخبار الصوفية ووجوه تطبيقها و ترجيحها

المراد بأخبار الصوفية ههنا المرويات عن الصوفية، وما نقله رواة التصوف عن المشايخ

[1] الترمذي، كتاب الأمثال.

على ثلاثة أنواع: قول و فعل و تقرير والمراد بالتقرير هو المفهوم المعتبر عند المحدثين، وفي تطبيق وترجيح كل نوع من الأخبار على غيره نستفيد من الأصول المقررة عند المحدثين وعند الأصوليين، وهذ الأصل يفيدنا كثيرا في الحكم عند تعارضها فيما بينها، فعند اختلاف الأخبار المروية عن الصوفية نقوم أولا بالتطبيق بينها ثم نؤول إلى الترجيح فيما بينها عند عدم إمكانه، وعدم المعرفة بهذا الأصل يجعلنا مضطربا في الحكم.

الأصل الرابع: معرفة الطبقات لرواة أخبار المشايخ

إن لرواة أخبار المشايخ الصوفية طبقات كما لرواة الحديث عند المحدثين طبقات، ومعرفة هذه الطبقات لا بدية للحكم على الأخبار المروية عنهم تصحيحا وتحسينا وتضعيفا وتوضيعا، إرسالا وإتصالا، تدليسا وتعليقا، وما إلى ذلك من الأحكام، وفي ضوء هذه الأحكام نحو الأخبار نستنبط مسائل التصوف منها.

أقول: إن رواة أخبار المشايخ على طبقات: ففي الطبقة الأولى من كان منهم فقيها عارفا بإشارات شيخه، تام الضبط كثير الصحبة، وفي الطبقة الثانية من كان جامعا لشرائط الطبقة الأولى إلا أنه لا يكون فقيها عارفا بالإشارات، وفي الطبقة الثالثة من كان فقيها عارفا بالإشارات تام الضبط ولكنه قليل الصحبة لشيخه، وفي الطبقة الرابعة من كان تام الضبط ولكنه قليل الصحبة وغير فقيه وعارف بالإشارات، وفي الطبقة الخامسة من كان كثير الصحبة ولكنه لم يكن تام الضبط ولا فقيها عارفا بالإشارات، وفي الطبقة السادسة من كان قليل الصحبة ولم يكن تام الضبط فقيها عارفا بالإشارات، وفي السابعة من كان قليل الصحبة غير تام بالضبط وقد كثر عليه الجرح من قبل علماء نقد الرجال.

فهذه طبقات رواة أخبار المشايخ قد استفدنا فيها من أصول المحدثين، وهناك أصول أخرى عند المحدثين يمكن لنا أن ننتفع بها عند نقد رجال أخبار المشايخ ورواتهم.

وأما المعرفة بما ذكر من أوصاف كل من هذه الطبقات فلا يحصل إلا من خلال دراسة عميقة لكتب التاريخ والتراجم، وبكثرةصحبة المشايخ الصوفية المحققين العارفين بالعلل

الخفية القادحة في الأسانيد والمتون، نعم! المعرفة بطبقات الرواة يجعلنا على هدى وبصيرة عند الحكم على الأقوال أو الأفعال أو التقريرات المروية عن المشايخ.

الأصل الخامس معرفة قياس الراوي في الرواية

ومن هذه الأصول المهمة أن نعرف عند قبول الرواية قياس الراوي فيها، فربما يحدث الراوي بشيئ في روايته أو يزيد فيها ببعض الأشياء حسب قياسه وظنه وليست له علاقة بالواقع، ومن أمثلة ذلك ما روي في صحيح مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال:

لما اعتزل نبي الله ﷺ نسائه دخلت المسجد فإذا الناس ينكتون بالحصى ويقولون: طلق رسول الله ﷺ نسائه، فقلت: لأعلمن ذلك اليوم، فدخلت عليه حين دخلت وأنا أرى في وجهه الغضب، فقلت يا رسول الله ما يشق عليك من شأن النساء، فإن كنت طلقتهن فإن الله معك وملائكته وجبريل وميكائيل وأنا أبو بكر والمؤمنون معك فنزلت آية التخيير فقلت يا رسول الله ﷺ: أطلقتهن قال لا قلت يا رسول الله إني دخلت المسجد والمسلمون ينكتون بالحصى يقولون: طلق رسول الله ﷺ نسائه، أفأنزل فأخبرهم أنك لم تطلقهن، قال: نعم إن شئت.[1]

فلنتدبر في هذه الرواية أن الصحابة في المسجد كلهم حدثوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طلق نسائه، ولم يكن الأمر كذلك في الواقع والصحابة كلهم عدول، والسر في ذلك أن النبي ﷺ لما اعتزل نسائه ظن أولئك الصحابة أنه طلقهن، وهذا الأمر حدث في عهد النبي ﷺ في رواية الصحابة فهل يستبعد أن يقع هذا في روايات الصوفية في عصور قال فيها النبي ﷺ: ثم يفشوا الكذب.[2]

فالواجب على دارسي التصوف أن يزنوا الروايات في ميزان هذا الأصل إذا عنَّ له فيها شيئ غريب، ويبحثوا عن الحقيقة ويتثبتوا في أنه من حكاية الواقع أم من قياس الراوي، ولا شك أن رعاية هذا الأصل تكون مزيلة لكثير من الشبهات عن الصوفية والتصوف.

---

[1] كتاب الطلاق، باب في الإيلاء، بحذف واختصار.

[2] جامع الترمذي، كتاب الشهادات، باب ماجاء في شهادة الزور.

الأصل السادس معرفة طرق الاستنباط ودرجاته

من المحقق الذي لا ينتطح فيها عنزان أن الصوفية أيضا فقهاء كما أن علماء الشريعة فقهاء، فكما أن علماء الشريعة يستخرجون المسائل الظاهرية من القرآن والسنة كذلك الصوفية أيضا يستنبطون المسائل والآداب الباطنية، واجتهاداتهم فيها متفاوتة من حيث الاستنباط وطرائقه، فقد فصل الفقهاء في كتب الأصول أن للاستنباط طرقا ووجوها، فبعض المسائل الفقهية مستنبط من عبارة النص، وبعضها من إشارة النص أو دلالته أو اقتضائه، وكذلك شأن مسائل التصوف فهي مستنبطة من تلك الطرائق المختلفة ولها أحكام مختلفة.

فمن اللازم على الناظر في كتب التصوف أن يراعي هذا الأصل ويعرف طرائق الاستنباط وأحكامه حتى لا يتخبط خبط عشواء في الفهم الصحيح ولا يسارع في الإنكار، وللمعرفة التفصيلية عن طرائق الاستنباط يمكن للطالب المراجعة إلى كتب أصول الفقه ففيها شرح الصدور وشفاء القلوب، وقد أشار إليه صاحب آداب المريدين فقال:

ولهم أيضا مستنبطات من علوم مشكلة على الفقهاء وذلك مثل العوارض والعوائق وحقائق الأذكار وتجريد التوحيد ومنازل التفريد وخبايات السر وتلاشي المحدث إذا قوبل بالقديم، وغيوب الأحوال وجمع المتفرقات والإعراض عن الأغراض بترك الإعتراض، فهم مخصوصون بالوقوف على المشكل من ذلك بالمنازلة والمباشرة والهجوم ببذل المهج حتى طالبوا من ادعى حالا منها بدلائلها وتكلموا في صحيحها وسقيمها.[1]

الأصل السابع العلم بمدارج أحكام التصوف

لقد مر آنفا أن أحكام الإحسان والسلوك والتصوف تختلف باختلاف درجة الاستنباط ومن ذلك المنطلق نقول: مأمورات التصوف على درجات: فرض أوواجب أوسنة أو مستحب أومباح، وممنوعاته أيضا على درجات: حرام أومكروه تحريمي أومكروه تنزيهي أوخلاف الأولى.

[1] فصل: الكلام على فروع الدين وأحكامه، ص:١٨.

فإذا جاءت أمامنا مسألة من مسائل التصوف فعلينا أن نرى درجة الحكم في الطريقة ثم نحكم عليها ولا نخلط بعضها ببعض حتى نكون محقين فيما نحكم عليه.

الأصل الثامن معرفة أنواع كتب الصوفية وأحكامها

كما أن للصوفية أقساما كذلك لكتبهم أنواع، فمنها ما هو مسند على منهج المحدثين كالرسالة القشيرية للقشيري واللمع للطوسي وغيرهما، ومنها ما هو على غرار كتب المتكلمين أو الأصوليين تكلم فيه مؤلف على أصول الصوفية ومذاهبهم على منهج كلامي أو أصولي كالتعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي وعوارف المعارف للسهروردي ومرصاد العباد للرازي، ومنها ما هو على طراز متون كتب الفقه وشروحه مثل آداب المريدين لأبى النجيب السهروردي، والرسالة المكية لقطب الدين الدمشقي، وقوت القلوب لأبي طالب المكي، وإحياء العلوم للغزالي، ومجمع السلوك شرح الرسالة المكية للشيخ سعد الدين الخيرآبادي الهندي، ومنها ما هو من كتب التراجم والطبقات، إلا أنها جاءت فيها مسائل التصوف تبعا وضمنا، مثل طبقات الصوفية للسلمي ونفحات الأنس للجامي، ومنها ما هو مجموعة ملفوظات المشايخ ومكتوباتهم جمعها خلفاءه ومريدوه أو بعض من جاءوا بعدهم من محبيهم.

والمعرفة بأنواع كتب التصوف تساعدنا على الفهم الصحيح للتصوف وعلى تحديد مراتبها والحكم عليها، فالكتب المسندة والمتون والشروح والملفوظات والمكتوبات لها درجات مختلفة من حيث النوع عند المحققين من الصوفية، وأحكامها ليست بسواسية عندهم.

الأصل التاسع: معرفة درجات كتب التصوف

وبعد معرفة أنواع كتب التصوف والصوفية يجب على الدارس العلمُ بدرجات الكتب من حيث اتصال السند وانقطاعه وتحقق نسبته إلى المؤلف، ومن هذه الناحية جميع كتب التصوف على قسمين: ظواهر الرواية، ونوادر الرواية.

وفي الأول يدخل جميع الكتب التي ليس في إنتسابها إلى المؤلف أو الجامع شبهة عند أهل التحقيق كالرسالة القشيرية، وقوت القلوب، وإحياء علوم الدين، وفوائد الفواد،

ومكتوبات صدي (مأة مكتوب) للشيخ شرف الدين يحيى الفردوسي الهندي، ومكتوبات الإمام الرباني، وما إلى ذلك من مآت الكتب.

وأما الثاني تدخل فيه الكتب التي في نسبتها إلى المؤلف شبهة عند أهل العلم مثل كتاب الغنية المنسوب إلى الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني، ومكاشفة القلوب، ومنهاج العابدين للإمام الغزالي قدس الله أرواحهما.

وهناك ناحية أخرى تقبل في باب الثقة والإعتماد وتؤثر في تعيين الدرجة بالنسبة إلى الملفوظات وهي أن الجامع عرض ما جمعه من ملفوظات شيخه عليه أو لم يعرض، فإن كان قد عرض عليه فمثل هذه الملفوظات في حكم مؤلفات صاحب الملفوظ وهي أكثر إعتمادا من الذي لم يعرض عليه، ففوائد الفواد مثلا من مجموعات ملفوظات سلطان المشايخ شيخ الإسلام محمد بن أحمد نظام الدين البدايوني ثم الدهلوي قدس الله سره، جمعه أحد من تلامذته البارزين الشيخ العارف حسن علاء السجزي وهو أقوى إعتمادا من المجموعة الأخرى المسماة بـ أفضل الفواد التي جمعها تلميذه الآخر الشيخ العارف أمير خسرو الدهلوي وذلك لعدم مراجعة شيخه ما جمعه من ملفوظاته.

وفائدة المعرفة بدرجات كتب التصوف أننا نأخذ أولا من الكتب الظواهر الرواية، ونأول ما كان فيها من المبهمات إن أمكن، وإلا فنقف عنده ونسكت عنها ونفوض الأمر إلى الله ثم إلى القائل ولا نحكم عليه، ونأخذ من نوادر الرواية بدون تردد ما وافق الظواهر أو مالم يعارض، وأما ماعارضها فنقوم بالتطبيق أو بالترجيح بينهما إن أمكن وإلا فنرده ولا نقبله، وكذلك لا نراجع إليها للمعرفة بالأصول والمذهب في عموم الأحوال.

الأصل العاشر: معرفة نوعية الكلام

ينقل المؤلفون بعض أقوال وأفعال وتقريرات وأحوال الصوفية فيقولون مثلا: قال فلان، أو حكي، أو قيل أو ورد، فليس كل من هذه التعبيرات للنقل والحكاية في حكم واحد، بل لكل منها درجة وحكم يختلف عن الآخر، ولا تعني بالضرورة أنها أقوال وأفعال وأحوال

محكمات ليس فيها تشابه أو إبهام أو إيهام، فأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم نابعة من ينابيع القرآن والسنة وعليها لمعتهما بحكم متابعتهما، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز: هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات.

والمتشابهات من الآيات أيضا عند العلماء على نوعين: المقطعات التي ليس لها معنى معلوم عند أهل اللغة مثل آلم وحم عسق، وغيرها، والمشابهات التي لها معنى معلوم عند أهل اللغة ولكنه مستحيل المراد في حق الله تعالى فنؤمن بها ونمر بها كما جآء ونقول كما قال الإمام مالك رحمه الله في الإستواء: الإستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة، وذلك على المذهب الأسلم لعامة السلف، أو نؤمن بها ونفوض المعنى الحقيقي إلى الله تعالى ثم نأول على وجه يصح من حيث اللغة والعربية، مثل وجه الله ويد الله، والنزول والاستواء والضحك في حق الله وما إلى ذلك.

والآيات القرآنية أيضا بعضها محكمات وبعضها متشابهات لا يعلم معانيها الحقيقية إلا صاحب الوحي ومن أوحى إليه، فقال رسول الله ﷺ: الحجر الأسود يمين الله على الأرض يصافح بها خلقه.[1] وقال: إن الجنة لا تدخلها عجوز.[2] ، ونظائرها كثيرة في القرآن والسنة.

ولأجل ذلك نرى أخبار الصوفية أيضا فيها محكمات ومتشابهات، والمحكمات عندهم عبارة عن أقوال واضحات ليس فيها إبهام أو إيهام أو تعارض في الظاهر مع الشرع الشريف، وأما المتشابهات فما كانت على عكسها.

ومتشابهات الصوفية عند المحققين بالنظر إلى درجة الإبهام والغموض أو التعارض الظاهر أيضا على أربعة أقسام: المبهمات، والموهمات، والهفوات والشطحات، وبعضهم لم يفصلوا فيها فأطلقوا على جميعها كلمة الشطحات، والحق أن فيها تفصيلا وتقسيما، والفرق بينها دقيق لا يتأتى إلا عن طريق زيادة صحبة المشايخ وكثرة مزاولتها ومعالجتها.

---

[1] صحيح إبن خزيمة، كتاب المناسك، وهو حسن لغيره عند المحققين.

[2] الترمذي، الشمائل المحمدية، باب ماجاء في صفة مزاح رسول الله ﷺ.

والمبهمات عندهم أقوال تعددت فيها وجوه المعاني فأبهمت وتعقدت ولكنها مع ذلك سهل المنال، ومثالها في الحديث ما قال ر سول الله ﷺ إن الجنة لا تدخلها عجوز، فمعناه المتبادر الأقرب إلى الفهم أن العجوز لا تدخل الجنة أبدا وهو غير مراد، وله معنى آخر سهل الوصول وهو أن العجوز لا تدخل الجنة وهي عجوز فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة:٣٥، ٣٦، ٣٧] فهي تدخلها وهي شابة وهو المراد، وقد أوضح ذلك المعنى رسول الله ﷺ للعجوز التي أتته ليدعو لها أن يدخلها الله الجنة.

وأما مثالها من أقوال الصوفية فما نقل عنهم أنهم قالوا: إن العبد السالك إذا بلغ إلى الكمال سقطت عنه التكليفات، ومعناه الظاهر أن السالك له مقام إذا وصل إليه زال عنه وجوب الأحكام الشرعية عليه ولم يبق عليه لزوم اتباع الأوامر واجتناب النواهي بل صار متحررا من أغلال الشريعة وهذا المعنى غير مراد بإجماع الصوفية وإنما هو قول أهل الإلحاد والزندقة، وأهل التصوف منهم ومما يقولون بريئون، وأما معناه الغير الظاهر ولكنه مع ذلك ليس ببعيد المنال فهو أن العبد السائر إلى الله تعالى إذا وصل إلى مقام القرب والكمال سقطت عنه التكليفات والتكلفات والمشاق والمرارات التي يتجرعها السالك المبتدي المجاهد في العبادة بل وجد اللذة والحلاوة في العبادات، وهذا معنى مستقيم واقع يعرفها كل من سلك طريق المجاهدة ثم وصل إلى المشاهدة وهو مراد الصوفية.[1]

وأما الموهمات فهي أقوال تشعبت فيه أغصان المعاني فالتوت فاستشكل على السامع فهمها ولم يسبر أغوارها ولم يصل إلى مرادها إلا من أوتي فهما ثاقبا وقلبا صافيا، ومثال ذلك ما قال بعض الصوفية إن الشيطان ربما يكون صديقا للسالك في طريقه، فهذا قول موحش في الظاهر، معارض لقوله تعالى: إن الشيطان للإنسان عدو مبين، وليس له تأويل ظاهر لدى عامة أهل العلم ولكن له تأويل صحيح لا يبلغ إليه إلا المحققون ويشير إليه الحديث الآتي المروي عن

[1] ينظر للتفصيل: مجمع السلوك، المجلد الأول، مبحث فضيلة طلب العلم.

أبى هريرة رضي الله عنه قال :

''وكلني رسول الله -ﷺ- بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام، فأخذته وقلت: والله لأرفعنّك إلى رسول الله -ﷺ-، قال: إني محتاج وعليّ عيال ولي حاجة شديدة، فخلّيتُ عنه فأصبحتُ فقال النبي -ﷺ-: (يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة؟) ، قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله، قال: (أما إنه قد كذبك وسيعود) ، فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله -ﷺ- إنه سيعود، فرصدتُه فجاء يحثو من الطعام، فأخذته فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، قال: دعني فإني محتاج وعليّ عيال لا أعود. فرحمته فخلّيت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله -ﷺ-: (يا أباهريرة ما فعل أسيرك؟) . قلت: يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته فخليت سبيله، قال: (أما إنه كذبك وسيعود) . فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت: لأرفعنّك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات تزعم لا تعود ثم تعود، قال: دعني أعلّمك كلماتٍ ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي: { الله لا إله إلا هو الحي القيوم} (البقرة:255) حتى تختم الآية؛ فإنك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربنك شيطان حتى تصبح؛ فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله -ﷺ-: (ما فعل أسيرك البارحة؟) ، قلت: يا رسول الله زعم أنه يعلمني كلماتٍ ينفعني الله بها فخليت سبيله، قال: (ما هي؟) ، قلت: قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم { الله لا إله إلا هو الحي القيوم }، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح - وكانوا أحرص شيء على الخير -، فقال النبي -ﷺ-: (أما إنه قد صدقك وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟) . قال: لا، قال: (ذاك شيطان)[1]

يستنبط من هذا الحديث أن الشيطان ربما يهدي الإنسان إلى الخير لبعض أغراضه والدال على الخير صديق فههنا يصح أن يقال إن الشيطان ربما يكون صديقا أي دالا على

[1] صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة.

الخير في طريق السلوك إلى الله، ولهذ القول تأويلات صحيحة أخرى أيضا ضربنا عنها صفحا لخوف طول المقام، وما ذكرنا فيه كفاية لأولى الأبصار.

وأما الهفوات فهي أفعال تتعارض مع الشريعة المطهرة وليس لها تأويل صحيح ظاهر مثل حلق الشيخ الشبلي رحمه الله لحيته على موت إبنه، قيل له: يا أستاذ ما حملك على هذا؟ فقال: جزت هذه (زوجة) شعرها على مفقود فكيف لا أحلق لحيتي أنا على موجود.[1]

وهذه الإجابة منه ما كانت إلا مجرد مدافعة كثرة التساؤل عن سبب الحلق ولم تكن إجابة حقيقية عن سببه، فليس بمتوقع عن شخصية الشبلي رحمه الله أنه فعل هذا لمحض موافقة زوجته، فما زال الناس يسائلونه ويصرون على الجواب حتى اضطر إلى الإجابة والكشف عن السبب الحقيقي له فقال:

بلغني عن رسول الله ﷺ أنه قال: ملعون من ذكر الناس وقلبه غافل عن الله، وكنت أعرف أن الناس بعد موت إبني سيأتون إلي ويقدمون التعازي ويذكرونني بالله بحكاية قول الله تعالى: إنا لله وإنا إليه راجعون، وقلوبهم غافلون شاغلون عن الله، فيدعون إليهم غضب الله الجبار ويستحقون لعنته، فحلقت لحيتي حتى يستنفر الناس مني ولا يحضرون لعزائي، ومن خلال ذلك اخترت الأهون على الأعظم، فإن ذنب حلق اللحية أهون من لعنة الله. [2]

وهذا التأويل مبني على قاعدة الفقهاء الشهيرة: العبد إذا ابتلي ببليتين فليختر الأهون.

وأما الشطحات فهي أقوال خرجت من وعاء القلب لإمتلائه بالمعرفة والوجدان، وهي مثل زبد البحر، فالزبد يخرج منها جفاء، وأما ما ينفعه وإخوانه من شراب المعرفة والوجد فيمكث في وعاء القلب، وهذه الأقوال تتعارض مع الشريعة ولا يوجد له تأويل قريب ولا بعيد مثل قول أبى يزيد البسطامي قدس الله سره: سبحاني ما أعظم شأني، وقوله: ضربت خيمتي بإزاء العرش[1]

---

[1] حلية الأولياء، لأبى نعيم الأصفهاني، ذكر أبي بكر الشبلي تذكره نمبر:٦٥٤.

[2] ذكر هذا السبب الحقيقي الشيخ المحدث عبد الحق الدهلوي في كتابه الفارسي المسمى بمرج البحرين في الجمع بين الفقه والتصوف، ينظر الكتاب، بحث المتشابهات عند الصوفية.

[1] كتاب اللمع، باب آخر في شرح ألفاظ حكي عن أبى يزيد رحمه الله، تحقيق: الدكتور عبد الحليم محمود و طه عبد الباقي سرور.

مواقف العلماء في متشابهات الصوفية:

وافترق العلماء في متشابهات القوم على ثلاثة أحزاب: المنكرون والغلاة والمعتدلون، أما المنكرون فهم أيضا على جماعتين: الجماعة الأولى تنكر على الصوفية لأجل متشابهاتهم بالمعنى الحقيقي للإنكار، وتعدها جهلا وجنونا، فيخشى عليهم أن يكون سببا لحرمانهم من بركاتهم ونفحات رحماتهم، وأن يكون مفضيا إلى سوء العاقبة أعاذنا الله منه، والجماعة الثانية أيضا تنكر عليهم ولكن لا بالمعنى الحقيقي بل سدا لذريعة الشر المحتمل، وهم في الحقيقة لهم مؤيدون و في بركاتهم طامعون.

وأما الغلاة فهم الذين غلو في الصوفية ومتشابهاتهم وظنوها أصل المعرفة وأساس العرفان ومعدن الخير، وقبلوها على الوجه الظاهر والمعارض للدين والشريعة واتخذوها عرضة لأهدافهم الفاسدة.

وأما المعتدلون فهم المنزهون عن الإفراط والتفريط والغلو والإنحراف والزيادة والنقصان وهم المنصفون في حق الصوفية ومتشابهاتهم، وموقفهم من المتشابه من الأقوال والأفعال والأحوال أنها صحيح باطنها وقبيح ظاهرها، وهذا القبح الظاهر إنما جاء فيها عن طريق غلبة الأحوال وفقد الاختيار، فهم لا ينكرون عليهم بل يسكتون فيها ويكلون سرائرهم إلى الله تعالى ويفوضون أمر هذه المتشابهات إلى صاحبها عملا بما قيل أسلم تسلم.[1]

ولذلك فإن الصوفية أجمعوا على أن المحكمات من الأقوال والأفعال معمولة بها، وأما المتشابهات فهي بجميع أنواعها مؤولة، ومعانيها الظاهرية غير مقبولة للإعتقاد والعمل وغير صالحة للإستدلال، فعندما نجد قولا أو فعلا نضعه في ميزان العلم والشريعة فلو خرج منه سالما من الغش ووجد مطابقا للشرع قبلناه وكان من قبيل المحكمات، وإن لم يكن كذلك كان من قبيل المتشابهات، والمتشابهات لا تؤخذ ظاهرها بل تحمل على الوجه الصحيح.

وقد صرح به الشيخ إبن تيمية الحراني فقال: وفي كلام أهل التصوف عبارات موهمة في

[1] مرج البحرين، بحث المتشابهات عند الصوفية.

ظاهرها بل وموحشة أحيانا ولكن تحتمل وجها صحيحا يمكن حملها عليه، فمن الإنصاف أن تحمل على الوجه الصحيح.[1]

إن مراعاة هذا الأصل أيضا تجنبنا عن كثير من الظن الخبيث نحو الصوفية، فالمفروض علينا أن نعرف نوعية كلام الصوفية معرفة دقيقة تأخذ بأيدينا إلى الحكم الصحيح نحوها.

الأصل الحادي العشر: معرفة الجوانب البشرية في الأقوال والأفعال ومراعاتها عند الحكم

لقد عذر الشرع الشريف العبد في بعض الظر وف والأحوال، فلا يؤخذ على أقواله وأفعاله الصادرة فيها، ومن جملتها غلبة الحال والنسيان والسهو. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تجاوز الله عز وجل لابن آدم عما أخطأ وعما نسي وعما غلب عليه.[2]

أما غلبة الحال فهي عبارة عن كيفية تنشأ في العبد بسبب كونه أشد في الحب لله والبغض له، فلا يتمالك على نفسه ويفقد لجام القصد والاختيار وتصدر عنه أقوال وأفعال ترى أنها لا تتماشى في الظاهر مع الشريعة وترى أنها متجاوزة عن حدودها، ولكن تكون في باطنها جذبة ربانية ونية صادقة مطلوبة من الشرع.

ومثاله ما يروى عن العارف الشبلي رحمه الله أنه طرح صرة الدراهم في البحر، فهذا الفعل في الظاهر غير متوافق مع الشريعة لما فيه من إسراف والإسراف حرام في الشرع، وسره لا ينكشف إلا ببيان قصة سابقة عليه.

وهي أن الإمام الشبلي رحمه الله خرج من بيته إلى حانوت الحجام ليقص الحجام شعره ويصلح ما زاد منه في لحيته، فوصل إليه وأتم مقصوده منه ثم أخرج الصرة ليؤتيه بعض الدراهم فلم يأخذ وقال: لقد نذرت لله أن لا آخذ أجرة أول فقير صادق يأتيني إلي، وقد أتيت أولا فلن آخذ الأجرة أبدا فإني لا أريد أن أكون كاذبا في معاملتي مع الله، فبمجرد سماع شأن الحجام ونذره ونيته إزداد خشوع قلبه وجوارحه وأصبح غارقا في هذا الفكر أن الناس كلهم

---

[1] مجموع الفتاوى، ج:١٠ ص: ٣٣٧، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف،٢٠٠٣.

[2] سنن سعيد بن منصور، كتاب الطلاق، باب ماجاء في طلاق المكره.

وهذ الحجام منهم، صادقون مخلصون مع الله في معاملاتهم، وأما أنا فمتلوث في الدنيا ومتفكر في المال وقد قال الله تعالى: وما من دآبة في الأرض إلا على الله رزقها، وهذا المال قد جعلني غافلا عن الله تعالى والخلق كله مشغول مع الله فاشتد عليه هذا الفكر وغلبت عليه الحال فلم يتمالك على نفسه وألقى الصرة في البحر حتى لا يكون عنده ما أغفل قلبه عن ذكر الله تعالى.

ومن ههنا يظهر أن أمر إلقاء الصرة في البحر من الشبلي رحمه الله ليس من قبيل الإسراف المذموم في الشرع بل إنه ألقى فيه شيئا أغفله الله، وطرح الأشياء المغفلة عن الله تعالى محمود مطلوب، فهذا فعل صادر من البغض في الله وقد قال رسول الله ﷺ : من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان.[1]

فلا ينكر على صاحب الحال وعلى الأفعال الصادرة من أجل غلبة الحال ولا يقتدى به أيضا بل يعذر صاحبها ويؤجر إن شاء الله تعالى بسبب إخلاصه ونيته الصادقة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.

وفي ذكر غلبات الأحوال فوائد للطالبين والسالكين وفيه تحريض القلوب ومؤاخذة النفس وقهرها بسبب دنائة همتها للدين، وربما تكون فيها إشارات لطيفة معينة على السلوك أو حل بعض معقدات بعض السالكين عند ظهور أحوال متماثلة.

قال الإمام قطب الدمشقي قدس الله سره في بيان السر وراء بعض الأحكام المشتملة على غلبة الحال والتي تومي إلى الإفراط:

وما أوردناه في فضائل الجوع ربما يومئ إلى أن الإفراط فيه مطلوب وهيهات، ولكن من أسرار حكمة الله تعالى في الشريعة أن كل ما يطلب الطبع فيه الطرف الأقصى وكان فيه فساد، جاء الشرع بالمبالغة في المنع منه على وجه يومي عند الجاهل إلى أن المطلوب مضادة ما يقتضيه الطبع بغاية الإمكان، والعالم يدرك أن المقصود الوسط، لأن الطبع إذا طلب غاية الشبع فالشرع ينبغي أن يمدح غاية الجوع حتى يكون الطبع باعثا والشرع مانعا فيتقاومان فيحصل الإعتدال.[1]

---

[1] سنن أبي داؤد، الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه.

[1] الرسالة المكية، فصل في دوام الصوم، ص: ٧٤.

ولا يصح لأحد بسبب هذه الأحوال أن يقول أنه من لم يتصف بهذه الحال فهو ليس بكامل أو ليس من أهل الله كما لا يجوز له أن يعترض على صاحب الحال ويقول إن طريقة الرجل الفلان خارجة عن جادة الشريعة، فطريقته خارجة عن جادة الشريعة والسنة بحسب حاله وظنه لا بحسب حال المنكر، ومثله كمثل الرجل الذي أصابه الحمى مع البرد في زمان الحر الشديد، فلا شك أنه يلتحف بالأردية الثخينة واللحاف في ذلك الزمان أيضا، فالرجل الذي لا يعرف حاله ينكر عليه ويقول إنه لمجنون ومنحرف عن جادة العقل والصواب، وأما الرجل العارف بحاله فلا ينكر عليه بل يعذره، وكذلك شأن الرجل المغلوب عليه الحال.

فالواجب على الرجل المحاول لفهم التصوف الصحيح أن لا ينكر على الصوفي إذا رأى من أقواله وأفعاله شيئا غريبا، بل يحكم عليها بحكم هذا الأصل حتى لا يقع في قعر الإنكار على الصالحين.

وأما أمثلة غلبة الحال في خير القرون فهي أيضا غير قليلة، منها ما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتما من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه وقال: يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده، فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله ﷺ خذ خاتمك انتفع به قال لا والله لا آخذه أبدا وقد طرحه رسول الله ﷺ.[1]

فانظروا في هذه الرواية أن الحرام للرجال لبس الذهب في الإسلام لا الإنتفاع به ولكن ذلك الصحابي أبى أن يأخذه وهو إسراف في الظاهر، ومع ذلك لا نحكم عليه أنه ارتكب الحرام بهذا، فكان رضي الله عنه مغلوبا في إتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومخالفة هوى النفس فهو معذرو مأجور.

ومنها ما روي أن عروة بن مسعود قال لرسول لله ﷺ وهو يكلمه: والله لأرى وجوها وإني لأرى أوشاباً من الناس خليقاً أن يفروا ويدعوك، فغضب سيدنا الصديق رضي الله عنه وقال له: امصص ببظر اللات أنحن نفر عنه وندعه.[1]

---

[1] صحيح مسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم خاتم الذهب على الرجال ونسخ ما كان من إباحته في أول الإسلام.

[1] صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب شروط في الجهاد والمصالحة...

فكلمة الشتم التي تفوها بها سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه إنما صدرت من غلبة الحال لإرادة زجر ما بدا من عروة بن مسعود، فلا يجوز أن يقال أن الإسلام يجوز الشتم في عموم الأحوال.

فعندما نتدبر في ضوء هذا الأصل نجد حال المغلوب خاصا به ولا يكون حكم حاله مطردا، فلا يقبل من الآخر إلا إذا كان هو أيضا مغلوبا، علاوة أن الحال أيضا ربما يكون خلاف الحكم الأصلي كما وقع لسيدنا الصديق، فإن الشتم خلاف الحكم الأصلي وهو قول رسول الله ﷺ إن الله لا يحب كل فاحش متفحش.[1]

وقد ذكر رسول الله ﷺ بعض وقائع غلبة الحال في مقام المدح أيضا فروي عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

كان رجل يسرف على نفسه فلما حضره الموت قال لبنيه إذا أنا مت فأحرقوني ثم اطحنوني ثم ذروني في الريح فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذابا ما عذبه أحدا فلما مات فُعل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال اجمعي ما فيك منه ففعلت، فإذا هو قائم، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك فغفر له.[2]

تدبروا في هذا الحديث أن حكم الإحراق والطحن والنسف في الهواء لما كان صادرا عن الخشية الإلهية فلم يكن أمرا مبغوضا بل أصبح سببا لمغفرته مع أنه في نفسه فعل لا يجوز إرتكابه في الشرع المحمدي، وقد ذكره رسول الله ﷺ في مقام المدح بين الصحابة.

لو حاولنا أن نفهم في ضوء هذا الأصل أقوال وقصص غلبة الحال التي ترى خارجة عن جادة الشريعة والسنة، وكذلك قصص الرياضات والمجاهدات الشديدة لوصلنا إلى حسن الظن بأهل الله، ولوجدنا عندئذ تأويلا صحيحا يعذرهم فيها، وقلنا إن مثل هذه الأقوال والأفعال صادرة عن قانون الحب والبعض الشديد لله وهو محمود فهم معذورون مأجورون إن شاء الله.

---

[1] المعجم الكبير، باب الألف.

[2] صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء.

وقال رسول الله ﷺ: لله أشد فرحا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح.[1]

وكذلك لو أردنا أن ندرس الكلمات التي تفوه بها المشايخ الصوفية في غلبة الوجد والطرب والسكر في ضوء الحديث المذكور فيما أعلاه لوجدنا الحق والسر وراء صدروها، فالنبي ﷺ لم ينكر على قائل هذا القول بتكفير أو تفسيق بل أعذره وذكره في مقام المدح فقال: أخطأ من شدة الفرح.

وأما رعاية جانب النسيان في الأقوال والأفعال فهي أيضا ضرورية لدارس التصوف، فيمكن أن تكون تلك الأقوال والأفعال المخالفة للشريعة في الظاهر سبب صدورها النسيان، ولا مؤاخذة على النسيان، والخطأ والنسيان إنما يصدر من الإنسان، قال تعالى:﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[طه:١١٥] .

وأبونا آدم لم يخرج من زمرة الأنبياء بسبب نسيانه بل تاب إلى ربه فاجتباه ربه وزاده هدى، فكيف يخرج الرجل الصالح بسبب نسيانه عن زمرة الصالحين، وكيف ينكر عليه فيكفر أو يضلل، وما هذا إلا تعصب وغواية.

وأعود فأقول إن السهو والنسيان تارة يكون بسبب إنهماك الإنسان في هموم الدنيا، وتارة بسبب إنغماسه في فكر الآخرة، وبسبب إستغراقه في ذات الله وصفاته تارة أخرى، والقسم الأول لعامة الناس وهو غير محمود، والقسم الثاني لخاصتهم وهو مسعود، والقسم الثالث لأخص خواصهم وهو محمود.

والسهو والنسيان إذا كان من المشايخ الصالحين بسبب أمر دنيوي فهو ذهول وإن كان بسبب أمر ديني فهو الغلبة، وإن كان بسبب الإستغراق في الذات أوالصفات فهو سكر، وأولو الألباب الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات

[1] صحيح مسلم، كتاب التوبة.

والأرض، يعرفون هذه الفروع، والغافلون يقيسون الصالحين على أنفسهم فينكرون.

وهناك فرق بين السهو والنسيان وهو أن الشيئ المعلوم في صورة النسيان يخرج من الذهن بطريق نحتاج إلى جهد شديد لإعادته من جديد، وفي السهو يخرج الشيئ المعلوم من الذهن بطريقة يتذكره الإنسان بتنبيه يسير.

الأصل الثاني عشر: معرفة المصطلحات الصوفية

وهذا أيضا أصل هام جدا للمعرفة الصحيحة بالصوفية ومناهجهم ومذاهبهم ومشاربهم، ومن المعروف المحقق عند كل من له إلمام بالعلم أن لكل فن مصطلحا وإطلاقا يجري على لسان أهله، وذلك ليحيطوا من خلاله بكليات الفن وجزئياته، وأصوله وفروعه وليدون ذلك الفن بشكل علمي متطور، فعلم الفقه والحديث لهما مصطلحات خاصة كما لعلم التفسير والكلام إطلاقات مخصوصة، فلو تكلم أحد على الفقه والحديث، والتفسير وعلم الكلام بدون إحاطة مصطلحاتها لكان مخطئا في حكمه ومسيئا في ظنه، وهذا هو حال الصوفية والتصوف أيضا فلهم مصطلحات علمية منفردة دقيقة فلو أراد أحد الفهم الصحيح للتصوف والصوفية فعليه أن يعرف مصطلحاتهم ومناهج كلامهم وإلا يكون مدفوعا إلى التكفير والتفسيق ومسوقا إلى الخطأ والضلال في حكمه.

قال الإمام عبد الكريم بن هوازن أبو القاسم القشيري في رسالته:

وهذه الطائفة يستعملون ألفاظا فيما بينهم قصدوا بها الكشف عن معانيهم لأنفسهم، والإجمال والستر على من باينهم في طريقتهم لتكون معاني ألفاظهم مستبهمة على الأجانب، غيرة منهم على أسرارهم أن تشيع في غير أهلها.[1]

فلنأخذ مثلا الفناء والبقاء فلهما في إصطلاح الصوفية معاني ودرجات صحيحة المعنى والمبنى عند الشرع، ومنها الفناء عن هوى النفس وإتباعها، والبقاء بمراد الله ورسوله بقبوله وإتباعه، وهو صحيح مطلوب، ومنها غلبة كون الحق على كون العبد عند إستغراقه في الذكر

[1] باب تفسير ألفاظ تدور بين هذه الطائفة.

لأجل التجليات المتتابعة النزول حتى يغيب العالم كله عن شهوده، ويغيب هو عن شهود نفسه أيضا، ويعود في شهوده إلى حال كان الله فيه ولم يكن معه شئ غيره، وهذا أيضا مراد صحيح اعترف بورود ذلك الحال على السالك، الشيخُ إبن تيمية في مجموع الفتاوى وسماه فناء شهوديا محمودا.[1] والجاهل بإصطلاحات القوم يفهم أن هذا حلول وإتحاد، ولا يقيم الفرق بين المعنى الحلولي للفناء والبقاء والمعنى الصوفي المصطلح.

قال الشيخ إبن تيمية في مجموع الفتاوى:

واعلم أن لفظ الصوفية وعلومهم تختلف فيطلقون ألفاظهم على موضوعات لهم ومرموزات وإشارات تجري فيما بينهم، فمن لم يداخلهم على التحقيق ونازل ماهم عليه رجع عنهم وهو خاسئ وحسير.[2]

قال الحافظ إبن القيم منبها على هذا الأمر:

فإياك ثم إياك والألفاظ المجملة والمشتبهة التي وقع إصطلاح القوم عليها، فإنها أصل البلاء وهي مرد الصديق والزنديق، وإذا سمع الضعيف المعرفة والعلم بالله لفظ إتصال وإنفصال ومسامرة ومكالمة، وأن لا وجود في الحقيقة إلا وجود الله، وأن وجود الكائنات خيال ووهم وهو بمنزلة وجود الظل القائم بغيره، فسمع منه ما يملأ الآذان من حلول وإتحاد وشطحات، والعارفون من القوم أطلقوا هذه الألفاظ ونحوها وأرادوا بها معاني صحيحة في نفسها فغلط الغالطون في فهم ما أرادوا، ونسبوهم إلى إلحادهم وكفرهم.[1]

الأصل الثالث عشر: العلم بمراتب دلائل الصوفية

إن الصوفية يستدلون على مذاهبهم بدلائل متفاوتة الدرجات والأحكام بالقرآن والسنة والإجماع والقياس والإستحسان والمصالح المرسلة ومنها الكشف أيضا، وليس لهم في الإستدلال بالكشف مانع، فالكشف الغير المعارض للأصول الشرعية لمن كان له قلب سليم

---

[1] ينظر: كتاب السلوك، ج:١٠ ، ص:٢١٩.
[2] ج:٥ ، ص:٧٩.
[1] مدارج السالكين، فصل: قال الدرجة الثالثة صفاء الإتصال.

ولمن اتبعهم بإحسان دليل شرعي عند عدم وجود الدليل من الطرائق الأخرى أو عند تعارض الأدلة بترجيح الطرف الآخر كما أن القياس دليل لصاحب القياس ومتبعيهم لا للجميع.

والصوفية أيضا لا يكرهون أحدا على قبول كشوفهم كما أن الفقيه لا يجبر أحدا على قبول قياسه، نعم الكشف أعلى من القياس، فالقياس ثمرة إجتهاد العقل، والكشف ثمرة الروح والقلب ومع ذلك هما من مظان الإلتباس أيضا، والأعمال الصالحة مؤثرة في الحصول على نتائج العقل والروح الصحيحة كليهما، إلا أن أهل العقول يرجحون ثمرة عقولهم، وأهل القلوب يرجحون ثمرة فؤادهم وكل حزب بما لديهم فرحون، قال تعالى: قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا.

والجاهل بسبب جهله بأهمية الكشف ومنهج وشروط الصوفية في أخذه ورده ودرجة إستدلالهم ومواضع إيرادهم ينكر عليه وعلى أقوالهم وأفعالهم وهو غير صحيح.

قال الشيخ إبن تيمية الحراني:

والذين أنكروا كون الإلهام طريقا على الإطلاق أخطئوا كما أخطأ الذين جعلوه طريقا شرعيا على الإطلاق، ولكن إذا اجتهد السالك في الأدلة الشرعية الظاهرة فلم ير فيها ترجيحا، وألهم حينئذ رجحان أحد الفعلين مع حسن قصده وعمارته بالتقوى فإلهام مثل هذا دليل في حقه، قد يكون أقوى من كثير من الأقيسة الضعيفة والأحاديث الضعيفة والظواهر الضعيفة والإستصحابات الضعيفة التي يحتج بها كثير من الخائضين في المذهب والخلاف وأصول الفقه.[1]

وقال أيضا:

كثيرمن أهل الإيمان والكشف يلقي الله في قلبه أن هذا الطعام حرام أو العكس بأن يلقى في قلبه بأن هذا الطعام حلال من غير دليل ظاهر بل بما يلقي الله في قلبه، وأمثال ذلك كثير مما لا يستبعد في حق أولياء الله المتقين.[2]

---

[1] كتاب السلوك، ج:١٠ ، ص: ٤٧٣.

[2] أصول الفقه، ج:٢٠ ، ص:٤٧.

ولدارسة موضوع الكشف ومناهج وشروط قبوله ورده عند الصوفية بالإسهاب ينصح مراجعة بحث علمي في هذه المجلة للأستاذ غلام مصطفى الأزهري الهندي بعنوان: ''تحقيق منهج الإعتدال ومنهج السادة الصوفية في قبول الأحاديث وردها''.

ونجد كذلك الصوفية يذكرون الروايات والواقعات والحكايات بقولهم: قيل: حكي، يحكى، نقل، ورد، وأمثالها تبعا وترغيبا وترهيبا وتحريرا وتوضيحا للأمر المطلوب الثابت من الدليل الشرعي، لا أصالة وإثباتا لأمر غير ثابت أو تحريما لشيء، ولايصرّون على صدق القصة وكذبها، فيحتمل أن تكون قصصا ليس لها وجود خارجي وإنما أخترعت لمحض الاستنصاح والإعتبار أو أن تكون تمثيلات خيالية فقط.

وربما يكون للسالك فيها أمر لطيف يشرح حاله أو واقعته، أو فيها إشارة سلوكية تحثه على المثابرة والمصابرة والإستقامة ولكن المترسمين فيما بعد يلتقطونها برمتها فيعاملون معها معاملة النصوص المحكمة من القرآن والسنة فيستدلون بها على الإثبات والتحريم فيضلون ويضلون، وكذلك الجاهلون بمنهج الصوفية وطرق إستدلالهم يعبّسون وجوههم من أجل ذلك فينكرون عليهم إنكارا يؤدي إلى تكفيرهم وتفسيقهم.

وربما نرى في كتب الصوفية أونسمع في مجالسهم تبعا وتحريرا و توضيحا لأمر ثابت لا أصالة وإثباتا لشيء، قصصا لا يستقيم بعض أجزائها من جهة المعنى لإحتوائها على أمر مخالف للشريعة ولكن فيها نكتة لطيفة سلوكية تزكوية وتربوية فيتسارعون ـ مع علمهم بذلك النقص فيهاـ إلى تلقفها حرصا على مخالفة النفس والهوى والشيطان والتغلب عليها، فهم في غلبة هذه الحال المحمود يذهلون عن ذلك النقص الشرعي الموجود في القصة ويذكرونها في كتبهم أو في مجالسهم، فلا يظن ظان أنهم واقعون في النقيصة الشرعية فالأمر ليس كذلك، وأما الناقصون في السلوك فيأخذونها كما هي ويؤمنون بها فيقعون في كوة الهلاك.

ومثلهم في ذلك الوقت كمثل العبد المطيع المستعد السباق إلى خدمة مولاه، أمره ربه أن يأتي إليه بشيء من موضع تنزلق فيه الأقدام فيهرب العبد إلى إطاعته ويتلقف ذلك الشيء ويرجع

به بمهارة كاملة بدون أن تزل أقدامه، وأما عباد ذلك المولى الآخرون فتنزلق أقدامهم في ذلك المكان فيسقطون ويهلكون.

فمن الواجب على من يقصدون فهم التصوف الصحيح ومنهج الصوفية الصافية أن يعرفوا درجات دلائلهم ومواضع إتيانها والجوانب السلوكية التي ذكرناها تحت بيان هذا الأصل حتى يكونوا مصيبين فيما يحكمون.

الأصل الرابع عشر: معرفة العام والخاص والمطلق والمقيد

إن في الكلام عموما وخصوصا وإطلاقا وتقييدا، وفهم النص مؤسّس على فهم هذه الأمور في النصوص، فكما للعام والخاص والمطلق والمقيد أهمية خاصة في الفقه كذلك لمعرفتها دور حاسم في الفهم الصحيح لكلام الصوفية والتصوف، فربما ينطق الصوفي بلفظ عام ويريد به الخاص أو العام المخصوص عنه البعض، أو يطلق اللفظ العام ويريد به الخاص، وربما يذكر المطلق ويعني به المقيد أو بالعكس، والعارف بدقائق كلام الصوفية يعرف هذه الإطلاقات الكلامية، والجاهل بها يهيم في وادي الشكوك والريب والظن السوء فلا يعرف الطريق ويبقى حائرا.

قال الحافظ إبن القيم في مدارج السالكين:

فاعلم أن في لسان القوم من الإستعارات، وإطلاق العام وإرادة الخاص، وإطلاق اللفظ وإرادة الإشارة دون حقيقة معناه، ما ليس في لسان أحد من الطوائف غيرهم ولهذا يقولون نحن أصحاب إشارة لا أصحاب عبارة، والإشارة لنا والعبارة لغيرنا، وقد يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد ويريدون بها معاني لا فساد فيه، وصار هذا سببا لفتنة طائفتين: طائفة تعلقوا عليهم بظاهر عباراتهم فبدعوهم وضللوهم، وطائفة نظروا إلى مقاصدهم ومغزاهم فصبوا تلك العبارات وصححوا تلك الإشارات، فطالب الحق يقبله ممن كان ويرد ما خالفه على من كان.[1]

ومثال إطلاق العام وإرادة الخاص قولهم الإتصال والإنفصال والفناء والبقاء في علاقة العبد مع الله، فاللفظ عام ومرادهم خاص وهو صحيح لغة وشرعا، ولهم في ذلك دليل من

[1] فصل: قال الشيخ ليس في المقامات شيء....ج:٤، ص: ٣٣١.

القرآن والسنة قال تعالى: إن الله مع اللذين اتقوا والذين هم محسنون، والمعية ههنا عام إطلاقا وخاص إرادة وهو النصر والفضل والتائيد.

ومثال إستعمال اللفظ المطلق وقصد المقيد قولهم: لا يفلح من له شيخان، أو لا يجوز المبايعة على يدي شيخين في السلوك، فاستخدم اللفظ المطلق وعني به المقيد، وهو أن الرجل إذا بايع على يدى شيخ آخر وكان شيخه الأول حيا يمكن الإستفادة منه فهذا إعراض عن الشيخ الأول وإنكار عليه مع أن المشايخ كلهم كنفس واحدة فإذا رد أحدا منهم بعد القبول فكأنه رد جميع المشايخ فلا يكون مفلحا فيما يقصد، وأما إذا كان التوجه إلى شيخ آخر لوفاة الشيخ الأول أو لعدم قدرته على الإستفاضة منه والتربية على يديه فيجب عليه أن يقصد شيخا آخر لئلا يتوقف في الطريق عن مقصوده.

ومما يزيد هذا الأمر وضوحا تقسيمهم الشيخ في أقسام: شيخ الإرادة، شيخ التربية، شيخ الصحبة، شيخ الخلافة، وشيخ التبرك.فهذه الأقسام ليس بينها تباين بل ربما تتحد وربما تختلف، فيرجى من الطالبين للفهم الصحيح للتصوف أن لا يغمضوا أعينهم عن هذا الأصل عند دراستهم.

الأصل الخامس عشر: معرفة حقائق رسوم التصوف

إن الصوفية يسنون بعض الأعمال الحسنة في صورة عدم المعارضة مع أصول الشريعة لكونها وسيلة في تحصيل بعض مقاصد الطريقة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من سن في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده لا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا.[1]

والفقهاء أيضا يبتدعون بعض الأمور في صورة عدم مناقضتها للأصول الشرعية وكونها ذريعة لبعض مقاصد الشريعة، ويسمونها بدعة حسنة، والأعمال والتقاليد الحسنة

[1] صحيح مسلم: ١٠١٧.

الصوفية ما زالت موضع البحث والنقاش والجدال عند الجاهلين عن مقاصد الصوفية العليا، ولم لا، وقد أثارت الأعمال المبتدعة المسماة بالبدعة الحسنة الجدل بين الفقهاء ولا تزال كذلك مع أن إدراك مقاصد الفقهاء أسهل من إدراك مقاصد الصوفية، فهم فقهاء الظاهر وهم فقهاء الباطن ولا يستوي الظاهر والباطن.

فالواجب على دارس التصوف أن لا يتسارع إلى الإنكار على أهل التصوف بل يحاول أن يبلغ إلى غاياتهم ومقاصدهم فإنما الأمور بمقاصدها والعبرة بغايتها، وحسن الظن واجب بالمؤمنين عامة فلماذا هذا التعجيل في الإنكار على الصوفية الذين هم صفوة أهل الإيمان قال تعالى آمرا المؤمنين بحسن الظن:﴿ لَوْ لَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور:١٢]. وقال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ ۖ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَّ لَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾[الحجرات:١٢]

فمثلا الصوفية يجرون المقراض على رؤوس الطالبين عند البيعة لسلوك الطريق إلى الله أو عند الإجازة والخلافة وإلباس الخرقة وهذا فعل متوارث عند الصوفية يحسبه الجاهلون لغوا وعبثا، ولكن العارفين يعرفون أن فيها إشارة إلى حقائق العبودية والعبودة، وبيانها أن العبد المريد لوجه الله عند ما بايع شيخا في السلوك للمجاهدة أجرى الشيخ على رأسه وشواربه المقراض فقص منها بعض أشعارها إشارة إلى اللطائف السلوكية الآتية:

الأولى أن شعر الرأس والشوارب زينة للرجل والزينة تأتي بالكبر فبهذا العمل أشار الشيخ إلى أنه بالبيعة ترك طريق الكبر وسلك سبيل التواضع.

والثانية أن العبد الطالب المتوجه إلى الشيخ لإراد وجه الله كأنه هدي الحج وبدن مخصوصة إصطفاها الله لنفسه للتضحية، فالشيوخ بإجراء المقراض كأنهم يجعلون له علامة على أنه من خاصة عباد الله الذين إستعدوا لتضحية نفوسهم في سبيل الله كما كان رسول الله ﷺ: يشعر الهدي أي يشق أحد جنبى سنام البدنة أو البقرة إن كان لها سنام حتى يسيل دمها ويجعل ذلك علامة لكونها هديا فلا يتعرض لها، أو يجعل في عنق الهدي قطع جلد ونحوها ليعرف بها أنها هدي.

وفيها لطائف أخرى يعرفها العلماء الربانيون وهي تختلف بإختلاف الأحوال والرجال، وكذلك في جميع الرسوم والتقاليد الحسنة الصوفية لطائف سلوكية يصعب فهمها إلا لمن إهتدى إلى صحبة المشايخ الصالحين.

ولوكان الأمر أن هذه الحقائق الصوفية لا تقنعنا لتبرير هذه الأعمال المحدثة فعلينا أن لا ننكر عليهم بالتكفير والتفسيق والتبديع ولا يتعرض لها ولهم بل نسكت عنها وعنهم فإنهم لا يعتبرونها أمرا دينيا وإنما هي عندهم مجرد وسائل لغايات محمودة كما لا ننكر على الفقهاء ولا نتعرض لهم لأجل بعض البدعات الحسنة عندهم وإجتهاداتهم الفقهية، ونعامل معهم معاملة التسامح والتفاهم والإحترام فهم مجتهدون في سبيل الله مأجورون إن شاء الله ولوكانوا مخطئين في اجتهاداتهم نحو هذه الأعمال وذلك لأجل اجتهادهم بالنيات الخالصة والقصد الصحيح، قال رسول الله ﷺ : إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد.[1]

الأصل السادس عشر: معرفة علوم الصوفية ودقائقهم

لكل فن حقائق ودقائق يعرفها رجاله ويجهلها غيره لصعوبة فهمها عليه بدون مصاحبة أئمتهم، وعدم معرفتها يؤدي إلى الخطأ في الفهم والحكم السقيم، وكذلك شأن التصوف والصوفية بل هو أحرى أن يكون دقائقه وحقائقه أخفى وألطف من الفنون الأخرى، فإن دقائق الفنون الأخرى من ثمرات العقل والتعقل وأما دقائقه وحقائقه ففيوض روحية وإلهامات ربانية وإشراقات عرفانية تنزل سلسلا من سلسل على قلوب السالكين والمشايخ المرشدين بمنه وجوده، ولا نهاية للمواهب الرحمانية والتجليات الصمدانية فذاته وصفاته وقربه لا نهاية له، وأحوال القلوب متفاوتة الدرجات، ولأجل ذلك تكون هذه الحقائق والدقائق أنواعا منوعة لا نهاية لها وهذا الأمر يجعلها صعب المنال بعيد الغور.

فالجاهلون بها يجحدونها بأسرها ويقيسونها على موازينهم العقلية المحدودة فلا يجدونها صحيحة فيها فينكرونها قطعا وجزما، وهذا الحرمان إنما ينشأ بسبب عدم كونهم محظوظين

[1] صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد.

بصحبة المشايخ الصوفية.

فإذا اشتبهت علينا حقيقة من حقائقهم أو خفيت علينا دقيقة من دقائقهم وجب علينا عندئذ أن نراعي هذا الأصل ونخطّئ أنفسنا ونرجع إلى المشايخ العارفين بالحقائق والدقائق ولا نقذف عليهم بالباطل، فمثلا للحصول على فهم المعارف اللدنية والعلوم العالية والأحوال السنية من الخوف والخشية وأمثالها وتأثيراتها ودرجاتها المذكورة في كتب التصوف علينا إما أن نسلك طريق القوم تحت إشراف شيخ كامل أو نجلس في صحبته حتى ندرك المطلوب.

الأصل السابع عشر: معرفة المصالح المرسلة الإحسانية

المصلحة المرسلة في إصطلاح الفقهاء هي مصلحة العباد التي يجدها المجتهد في حكم وليس على إعتبارها وعدم إعتبارها دليل شرعي، وكان الصحابة رضي الله عنه يفتون بالمصالح المرسلة في الأحكام المستحدثة.

إنما الصوفية كل همهم تزكية العبد وتحليته بالمكارم والفضائل حتى يصلح للوصول إلى الحضرة الإلهية، وخلال إجتهاد المريد الصادق في السلوك يرى الشيخ المرشد في حق المريد مصالح إحسانية سلوكية لا تتعارض مع الإجماع أو النص الشرعي ولكن ليس على قبولها وعدمه نص شرعي ولا نظير إحساني للقياس فيأخذها الصوفي المجتهد في الطريقة ويجري على أساسها أحكاما سلوكية للمريدين.

وهذه المصالح الإحسانية ربما تكون من الضروريات التي لا غنى عنها لحياة السالك الروحية ولإنشاء المجتمع المؤسس على المبادئ الإحسانية، ومثالها عند الفقهاء جمع القرآن في عهد سيدنا الصديق أبى بكر رضي الله عنه، وإحداث علم الجرح والتعديل عند المحدثين لتمييز الأحاديث المقبولة من المردودة.

وربما تكون من باب الحاجات فبدونها في تحقيق المقصود حرج ومشقة، وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[الحج:٧٨]

ومثاله عند أهل الفقه في عهد سيدنا عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الإنفاق من بيت المال على بناء دور المسافرين في طرق خراسان.

وربما تكون من التحسينات أعني الأمور التي تزين الحياة الروحية للمريد السالك فيحسنها، ومثاله عند أهل الفقه والفتوى توفير التسهيلات العليا للمعيشة في دور المسافرين التي بنيت من مصلحة بيت المال.

ولذلك فإن من الواجب على من يسبر أغوار علم التصوف أن يتذكر هذا الأصل عندما يرى عند الصوفية أحكاما سلوكية ليس على قبولها نص شرعي ولكن لا تتناقض مع الشريعة أيضا، وعليه أن يهتم بجانب المصلحة المرسلة الإحسانية ويحاول للوصول إلى دقائقها، فإن إدراك حقيقة المصالح المرسلة صعب في الفقه الإسلامي فيكون فهمها أصعب في الفقه الإحساني.

الأصل الثامن عشر: معرفة ما اتفق عليه الصوفية وماختلفوا فيه

لقد أسلفنا ذكرا أن العباد الواصلين إلى الله مجتهدون في علم الطريقة والإحسان، وعندهم مسائل إحسانية، منها ما هو متفق عليه ومنها ما هو مختلف فيه، وهذا الاختلاف إنما يتولد من الاختلاف في أصول الإستنباط ومراعاتها والإجتهاد في تطبيقاتها وإطلاقاتها، ومن الإختلاف في المدارك العقلية والطبائع الإنسانية و قد أشار إليه القرآن الكريم فقال: ولكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا.

فالصوفية مثل إخوانهم الفقهاء المجتهدين جاهدون مخلصون لله في تربية العباد وإبلاغهم إلى مراتب الكمال، وفي ضوء هذا الأصل نستطيع أن نستكشف أسباب الإختلاف في طرق تزكية النفس وأوراد الطرق الصوفية وما إلى ذلك من الفروق والميزات فيما بين الطرق الصوفية.

فعندما نطالع كتب التصوف والصوفية ونرى الاختلاف في المجهودات الصوفية للتربية والسلوك وأقوالهم يجب علينا أن نستحضر هذا الأصل ولا نبغضهم ولا نقدح فيهم حتى ينكشف لنا من خلاله أهمية جهودهم وخدماتهم وكمالهم في إدراك مصالح العباد السالكين، وعظمة حقائقهم ومعارفهم، ويظهر من خلالها صدق قول القائل: الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق.

الأصل التاسع عشر: معرفة جانب التحقيق والاحتياط في المسائل

المعروف عن الصوفية أنهم يأخذون بالإحتياط ويعملون بالعزائم وهذا صحيح مقرر، ولكن في هذا الصدد ليكن في ذاكرتنا أن للصوفية أذواقا ومشارب مختلفة في الأخذ بالرخص والعزائم فيرى بعضهم في مسألة عزيمة وبعضهم في نفسها رخصة حسب حاله، ولا ننسى أيضا أنهم لا يأخذون الرخص الشرعية عموما، وأما الرخص السلوكية والإحسانية فيأخذونها تارة ويتركونها أخرى.

وكذلك قاعدة أخذ العزائم تجري عندهم إذا لم يكن الصوفي محققا في تلك المسألة، وأما إذا كان محققا صاحب رأي وإجتهاد فيها فهو ومن اتبعهم بإحسان يعملون بها إلا أن يكون في العمل به مضرة إحسانية أو في تركه منفعة سلوكية عليا فيتركون العمل به أيضا.

فلو وجدنا صوفيا يعمل بالرخص فلا نحكم عليه بالظن أنه منحرف عن طريق السادة الصوفية بل نحسن الظن به في ضوء هذا الأصل ونكون قوامين لله شهداء بالقسط فالعدل عند الله أقرب للتقوى.

الأصل العشرون: معرفة احتمال الواقعة والمثال والإلهام

عند دراسة التصوف نمر بالقصص والوقائع والحكايات التي لا يقبلها العقل الإنساني في عموم الأحوال فيجحدها البعض أصلا وينكر من أجلها على الصوفية والتصوف وهذا ليس بصحيح، فالصوفي كيان روحي يجب أن تفهم أقواله وأفعاله مع رعاية بعض الأحوال الروحية الطارئة عليه أحيانا، فمثلا نجد في كتب الصوفية أن الكعبة حضرت لمريد فأدى مناسك الحج، فأمثال هذه الحكايات إذا كانت منسوبة إلى شيخ صالح ففيها إمكان الوقوع أيضا من الناحية الروحية، وهي أن الكعبة في حال غلبة الأنوار تمثلت في أعينه في اليقظة أو في عالم المثال تمثلا يشبه الرؤية العينية فأدى مناسك الحج.

وعالم المثال عالم لطيف روحي نوراني تضمحل فيه كثافات الوجود البشري وتغلب الأنوار الروحية فيرى الإنسان مالا يراه الآخرون بحكم قول النبي ﷺ كنت سمعه الذي يسمع به وبصره التي يبصر بها، وتحصل هذه الأحوال بواسطة المجاهدة لقبح جماح النفس والتحلي

بمكارم الأعمال والأخلاق، قال صاحب الرسالة المكية الشيخ العارف قطب الدين الدمشقي قدس الله سره: والأحوال مواريث الأعمال.[1]

ويمكن أيضا أن الله تعالى كشف عن أعينه الحجب بدعاء شيخ صالح أو على وجه خارق العادة فأدى مناسك الحج، وكلاهما صحيحان من جهة الشرع، قال تعالى في حديث قرب النوافل: ولئن سألني لأعطينه، وظهور خارق العادة على أيدي الصالحين أيضا أمر ثابت عند أهل السنة والجماعة.

وكذلك نقرأ فيها أن شيخا صوفيا رأى وقابل شيخا آخر في حالة اليقظة وقد توفي قبله وهذا غير جائز عقلا ولكنه جائز الوقوع في المثال أو الواقعة، والواقعة أيضا حالة لطيفة نورانية تضمحل فيها كثافات الوجود وتغلب الأنوار والتجليات فيرى العبد مالا يرى الآخرون.

ومسألة سماع الموتى والتصرفات البرزخية مثل الأحياء أيضا ثابتة عند أهل السنة والجماعة، بل قد ثبت بالأحاديث أن للصالحين الأموات تصرفات عالية عجيبة مدهشة ودلائلها مفصلة في مواضعها فلا إستحالة فيها من جهة الشرع.

وكذلك نقرأ فيها أن أحدا من الصالحين حضره شخص فشكى إليه أمره فوهبه ذلك الرجل الصالح جزءا من حياته وهذا أيضا مستحيل من جهة العقل لا من جهة الشرع، فيحتمل أنه دعا إلى الله أن يهبه جزءا من حياته الباقية فاستجاب الله دعائه وألهم إليه أن يخبر ذلك الرجل الذي شكى إليه فأخبره، فالله يحيي ويميت ويمحو الله ما يشاء و يثبت وعنده أم الكتاب.

فعلينا أن نهتم بهذه الجوانب الروحية عند دراسة التصوف وعند قراءة القصص والحكايات العجيبة والخارقة للعادة، ولا ننسى الحديث المروي في صحيح البخاري والمشهور بحديث قرب النوافل، فهذا يحل العقدة ويسهل المشكلة.

قال رسول الله ﷺ حكاية عن الله تعالى: وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي

[1] فصل في أن علوم الصوفية علوم الأحوال.

يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه.[1]

قال الشوكاني في شرح هذا الحديث في كتابه قطر الولي:

ومن وهب له هذه الموهوبات الجليلة وتفضل عليه بهذه الصفات الجميلة فغير بعيد ولا مستنكر أن تظهر على يديه من الكرامات التي لا تنافي الشريعة، والتصرفات في مخلوقات الله عز وجل الوسيعة، لأنه إذا دعاه أجابه وإذا سأله أعطاه، ولم يصب من جعل ما يظهر من كثير من الأولياء من قطع المسافات البعيدة والمكاشفات المصيبة، والأفعال التي تعجز عنها غالب القوى البشرية، من الأفعال الشيطانية والتصرفات الإبليسية، فإن هذا غلط واضح لأن من كان مجاب الدعوة لا يمتنع عليه أن يسأل الله سبحانه أن يوصله إلى أبعد الأمكنة التي لا تقطع طريقها إلا في شهور، في لحظة يسيرة، وهو القادر القوي ما شاءه كانه وما لم يشأ لم يكن، وأي بعد في أن يجيب الله دعوة من دعاه من أوليائه في مثل هذا المطلب وأشباهه.[1]

الأصل الحادي والعشرون: معرفة إحتمال الجانب المنامي في القصص والوقائع

الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة كما ورد في الحديث، ومنها ما يأتي واضحا مثل فلق الصبح ومنها ما هو محتاج إلى التأويل والتعبير، فلا يؤخذ بظاهرها، وقد يتفق أنها تكون مكروهة موحشة الظاهر صحيحة التأويل.

وأما أهمية الرؤيا والمنامات فقد قال العلماء إن رؤيا المؤمنين إذا تواطأت على شئ كان كتواطؤ روايتهم له وكتواطؤ رأيهم على استحسانه واستقباحه كما صرح به الحافظ ابن القيم.[2]

ولكن لقبولها حدود وقيود أشار إليه الإمام الشاطبي رحمه الله فقال:

إن فائدة الرؤيا في البشارة والنذارة لا التشريع والأحكام والقضاء فتذكر استئناسا لا استدلالا، وشرط العمل بمقتضاها أن لا تخرم حكما شرعيا أو قاعدة ثابتة ولا تعتبر إلا مع موافقة ظاهر الشريعة في أمر مباح أو فائدة أو بشارة للتبصير على الخير أو نذارة للتحذير من

---

[1] كتاب الرقاق: باب التواضع.

[1] فصل في جواز وقوع الكرامات، ص:١٢٣،الألوكة.

[2] ينظر: كتاب الروح، ص:١٦ ، دارالكتب العلمية، بيروت.

الشر ليستعد له.[1]

وقد ثبت قبول المنامات من الآثار أيضا منها ماروي عن أنس رضي الله عنه في المستدرك للحاكم في كتاب معرفة الصحابة رضي الله عنهم وذكر مناقب ثابت بن قيس رضي الله عنه وقال الحاكم: هذا خبر صحيح ووافقه الذهبي.[2]

فنرى في كتب التصوف بعض القصص عليها أماراة الوضع من جهة مناهج المحدثين، وربما تُرى غير صحيحة من جهة التاريخ ولا شك أن الناس كلهم سوى الأنبياء غير معصومين وصدور الخطأ والنسيان منهم محتمل بل واقع يشهد به التاريخ، وأهل العلم لا يقدحون في الصالحين لأجل الأخطاء الصادرة منهم، بل يحاسبون أنفسهم عند ذلك محاسبة شديدة ويخافون الله من أن يبتدر منهم خطأ يوقعهم في مهالك الضلال ويزدادون إيمانا بأن الله تعالى هو السبوح القدوس المنزه عن جميع المعايب والنقائص، وعامة الناس في هذا المقام يزلون فيسيؤن الظن إليهم، ويطعنون فيهم ثم يستولى عليهم الشيطان فلا يقبلون ما صح عنهم وما وافق الشرع الحنيف أيضا.

فمن واجبات أهل العلم أن يأتوا بالتأويل الصحيح الممكن للأقوال والأفعال والقصص والوقائع المروية عنهم بالنقل الصحيح، والتي ظاهرها الخطأ، وذلك لإنقاذ عامة الناس من الضلال وسد باب وساوس الشيطان.

فلو وجدنا في كتب التصوف قصصا وحكايات لا تصح دراية ورواية راعينا فيها جانب المنام وقلنا إنه رأى ذلك في المنام فنسي وحكاه كحكاية اليقظة، أو روى أحد من السالكين حديثا ليس له وجود فيما يوجد عندنا من مسانيد الحديث ومعاجمه وكتبه، إعتقدنا ـ إذا لم يكن ذلك معارضا للشريعة ـ أنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فحدثه شيءا فرواه في حالة اليقظة بدون إشارة إلى كونه مرويا في المنام، وكذلك إعتبرنا في الحكايات الخاطئة من جهة التاريخ أن كان رؤيته في المنام فنسي أن يذكره ثم تواتر النقل الغلط أو حذفت كلمة المنام إعتمادا على فهم السامع.

وفي ضوء هذا الأصل والأصل السابق أوّل سيدي الداعية الإسلامي العارف الرباني

---

[1] الموافقات للإمام الشاطبي.

[2] (٢٦٠/٣)

الشيخ أبو سعيد إحسان الله المحمدي متّعنا الله بطول مدة حياته ومدده، مااستشكل على أهل العلم من صحابية الشيخ رتن الهندي.

وبيانه أن الشيخ رتن الهندي إدعى لنفسه الصحبة والمشاركة في الغزوات وهذا أمر مستبعد مردود عند عامة المحدثين والفقهاء عقلا ونقلا لظهوره في القرن السادس الهجري ووفاته في القرن السابع الهجري، ولمخالفة دعواه قول رسول الله ﷺ: إن على رأس مأة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد.[1] ومع ذلك عده بعض المشايخ صحابيا وروى عنه بعض أحاديثه المروية عن رسول الله ﷺ بلا واسطة تبركا.

قال شيخنا حفظه الله: لا أعده من الصحابة على منهج المحدثين ولكنه عند الصوفية ثقة عادل فلا يرد قوله ولا يكذب بل يأول، وتأويله عندي ـ والله أعلم ـ أنه وجد نفسه في عالم الواقعة في عهد رسول الله ﷺ فرآه وشاهد الحروب والغزوات، وهذه الأمور ممكنة الوقوع من جهة الشرع، فذكر بعد ذلك أنه رأى رسول الله ﷺ وشارك الحروب والغزوات ولم يدرك عند رجوعه إلى حالة الصحو أنه رأى كل ما رأى في عالم الواقعة لما كانت هذه الحالة غالبة قوية على خياله.

الأصل الثاني والعشرون: معرفة إحتمال ترجيح المسألة بالكشف والالهام

ربما يتساوي الطرفان في مسألة من مسائل الشريعة والطريقة بالنظر إلى الدلائل، فالصوفية يرجحون أحدهما من عند أنفسهم وليس لديهم دليل شرعي في الظاهر فينكر عليهم المنكرون فيقذفون عليهم بالباطل، والحق أنه تعالى يلقي في روعهم ترجيح أحد الطرفين أو يكشف لهم فيحكمون به، والترجيح في المسائل بالكشف والالهام ترجيح شرعي مقبول عند أهل العلم، وقد اعترف به الشيخ ابن تيمية كما مر من قبل.[1]

الأصل الثالث والعشرون: معرفة زمان صدور القول والفعل

ربما نجد في كتب الصوفية والتصوف قولين أو فعلين لصوفي في مسئلة واحدة يعارض أحدهما الآخر أو لصوفيين قولين مختلفين في مسئلة واحدة، ورفع التعارض عنهما عن طريق

[1] صحيح البخاري كتاب العلم، باب السمر في العلم.

[1] ينظر تحت الأصل الثالث عشر.

معرفة زمان صدور الأقوال والأفعال، فيحتمل أن يكون القول أو الفعل الأول صدر عنه عندما كان ناقصا مبتدئا في الطريق أو متوسطا ولم يكن منتهيا واصلا، والقول أو الفعل الثاني صدر منه عندما أصبح واصلا منتهيا كاملا، فالمعرفة بهذا الأصل لا بدية لدارس التصوف.

الأصل الرابع والعشرون: العلم باختلاف الأقوال باختلاف الناس والأحوال

ربما نجد إختلاف الأقوال في مسئلة واحدة عند صوفي أو صوفي أو أكثر لأجل اختلاف الناس، فمثلا يحتمل أن يكون القول الأول للمبتدي والقول الثاني للمتوسط والقول الثالث للمنتهي الواصل، ومثاله ما قال سري المغلس السقطي رضي الله عنه: التوبة أن لا تنسى ذنبك، وقال الإمام جنيد بن محمد القواريري رحمه الله: التوبة أن تنسى ذنبك.

وفي الظاهر بينهما تعارض ولكن ليس بينهما تعارض عند التحقيق، فالقول الأول للمبتدي الذي يجب عليه أن لا ينسى ذنبه حتى لا يكون جريئا على إقتراف الذنب في المستقبل ويخاف من الوقوع في الإثم، والقول الثاني للمنتهي الواصل، فالتوبة في حقه أن ينسى ذنوبه ولا يتفكر فيه بل يصبح دائم الفكر في الله، ولوكان متقلبا في تصورات الذنوب لما كان واصلا.

وهذا القول نفسه مثال اختلاف الأقوال باختلاف الزمان، فالقول الأول لسقطي رحمه الله قاله في بداية حاله والقول الثاني للجنيد رحمه الله قاله في نهايته.

الأصل الخامس والعشرون: معرفة إختلاف الجهات والإعتبارات

إن المعرفة باختلاف الجهات في الكلام أمر لازم للفهم الصحيح في الفقه والتصوف وفي جميع الفنون، فيمكن أن يكون الشيء فرضا من جهة وحراما من جهة، ومثاله في الفقه النكاح، فهو فرض إذا قطع الرجل بالوقوع في الزنى، وهو حرام إذا جزم بعدم قدرته على أداء الحقوق.

ومثاله في التصوف ما قاله الصوفية قدس الله أسرارهم: من عرف الله كل لسانه، وقالوا أيضا من عرف الله طال لسانه، قال الإمام العارف شيخ الإسلام محمد قطب المعروف بشاه مينا (ت: ٨٨٦ هـ) قدس الله سره في رفع التعارض عنهما: القول الأول في معرفة الذات، والقول الثاني في معرفة الصفات.[1]

[1] مجمع السلوك: المجلد الثاني، مبحث حقيقة المعرفة.

الأصل السادس والعشرون: معرفة إمكان الوقوع في الشبهة

مثال وقوع الصوفي في الشبهة:

وقد تصدر من الصوفية أقوال وأفعال عند وقوعهم في الشبهة والتباس الحق عليه فمثلا يقولون لقد رأيت الله والحق أنه لم يرو الله بل رأو نورا من أنوار الله أو الأعمال الصالحة فالتبس الحق عليهم فقالوا لقد رأيت الله، وفي مثل هذا المقام يحتاج الرجل إلى الشيخ الكامل ليرشده ويخرجه من ظلمات اللبس ويخبره أنه لم ير الله بل رأى نورا من أنوار الله أو الأعمال الصالحة، فروي عن الشيخ العارف أبي سعيد أبي الخير قدس الله سره أنه سمع أحدا من الطالبين قد هتف بقوله: رأيت ربي، فزجره وقال: ما رأيت الله وإنما رأيت نور الوضوء.

وقد يهتف الصوفي فيقول رأيت ربي بعيني هاتين، والحق أن رؤية الله في الدنيا بالعين غير جائزة عند علماء الكلام إلا أن الحق يلتبس عنده في غلبة الحال فيقول ما يقول، قال الشيخ ابن تيمية معترفا به في مجموع الفتاوى:

وكثير من هؤلاء العباد الذي يشهد قلبه الصورة المثالية (للرب) ويفنى فيما شهده يظن أنه رأى الله بعينه لأنه لما إستولى على قلبه سلطان الشهود ولم يبق عقل يميز به، والمشاهد للأمور هو القلب، لكن تارة شاهدها بواسطة الحس الظاهر وتارة بنفسه فلا يبقى أيضا يميز بين الشهودين، فإن غاب عن الفرق بين الشهودين ظن أنه رآه بعينه وإن غاب الفرق بين الشاهد والمشهود ظن أنه هو.[1]

وقال أيضا: فالصحابة و التابعون وأئمة المسلمين على أن الله يرى في الآخرة بالأبصار عيانا وأن أحدا لا يراه في الدنيا بعنيه لكن يرى في المنام ... ومن الناس من تقوى مشاهدة قلبه حتى يظن أنه رأى ذلك بعينه وهو غالط.[2]

مثال وقوع الناس في الشبهة عن الصوفي:

وقد يشتبه الأمر على الناس لعدم معرفتهم بالسياق والسباق واللحاق فيتسارعون في

---

[1] الأسماء والصفات: ج:٥، ص:٢٥٣

[2] توحيد الربوبية، ج: ٢، ص:٣٣٦.

الحكم على الصوفية، ومثاله ما نقل عن بعض الصوفية أنه كان يردد كثيرا هذا القول: لست عبدك ولست ربي فلماذا أعبدك؟ فاستفتي علماء الزمان عن هذا القول فأفتى معظمهم أن القائل كافر خارج عن الملة، حتى استفتي فقيه محدث آخر فلم يسارع في الحكم بل استفسر عن القائل فأخبر المستفتي أن قائله رجل صالح وصوفي شهير، فذهب إليه ذلك الفقيه المحدث وقابله واستفهم عن مراده من هذا القول فأجابه ذلك الرجل الصالح: يا أخي أنا رجل مذنب ونفسي أمارة بالسوء داعية إلى إطاعتها فأقول لها حينئذ: لست عبدك ولست ربي فلماذا أعبدك، فظهرت شمس الحق وانكشفت غيوم الباطل وعرف أن ذلك القول من مزالق الأقدام.

فلنتدبر في هذا نجد أن العلماء أخطؤوا في فتواهم ووقعوا في الشبهة لعدم معرفتهم بسياق كلامه.

مثال آخر: ومثاله في الفقه أن المرأة الحائض إذا كانت لا تصلي ولاتصوم فيحكم عليها الجاهل بأحوالها بترك الصلاة عليها والأمر ليس كذلك فهي غير مكلفة بأداء الصلاة والصوم في حيضها، ومثاله في التصوف ما نقل عن بعض الصوفية أنهم ما كانوا يصلون، فالجاهل بأحوالهم يتعجل في الحكم عليهم، والعارف يتمهل ويتدبر ثم يحكم عليهم فلعل الرجل يكون مغلوبا في حاله والمغلوب ممن رفع عنه القلم شرعا كما مر سابقا.

مثال آخر: روي أن الشيخ قضيب البان كان من تلامذة الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره، وكان ممن لايديم صحبته مع شيخه بظاهر جسمه لكونه بعيدا عنه إلا أنه كان يصحبه بالجسم المثالي، فكان الناس يرونه في الزاوية القادرية وهو لا يحضر الصلاة، فوقعوا في الشبهة فظنوه تاركا للصلاة فشكوه إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس الله سره فأخبر أن الصلاة ليس بفرض عليه لعدم كونه موجودا في الزاوية بالجسم الظاهر، فمن المقرر أن الصلاة على الجسم الظاهر لا على الجسم المثالي، فلم يكن تارك للصلاة في الحقيقة.[1]

مثال آخر:وروي عن الشيخ العارف أحمد معشوق الطوسي قدس الله سره الذي كان من

[1] نفحات الأنس للجامي، ص:٧٧٤ ، ذكر الشيخ قضيب البان الموصلي.

كبار أولياء عصره أنه ماكان يصلي فتوافق العلماء على أن يضطروه إلى الصلاة فذهبوا يوما إليه وأكرهوه على ذلك فرضي واشترط أنه لا يقرأ سورة الفاتحة فيها فأبوا، وأصروا على قراءتها فرضي وقال: إنه لا يقرأ فيها الآية: إياك نعبد وإياك نستعين فأبوا إلا أن يقرأ الآية، فرضي وقام للصلاة وكبر وبدأ يقرأ سورة الفاتحة فلما وصل إلى إياك نعبد توقف ولم يستطع أن يقرأه وجرى الدم ممن مواضع أشعاره، ثم قال لهم دعوني وشأني فإنما أنا في حكم الحائض.[1]

والسر في صدور ترك الصلاة منه أنه في يوم من الأيام وقعت عليه تجليات الخشية الإلهية فمر بخاطره أنه يطيع نفسه ولا يعبد ربه في الحقيقة ومع ذلك يقول إياك نعبد، وهذا كذب صريح حال كونه في الحضرة الإلهية وهذه جرأة ووقاحة إلى مقام الله تعالى، ثم غلبت عليه هذه الحال واستولت استيلاء لم يستطع أن يخرج منها، فلم يقدر على أداء الصلاة فلا صلاة إلا بفاتحة الكتاب وفيها قوله تعالى: إياك نعبد وإياك نستعين.[2]

مثال لوقوع الشبهة من الجانبين

هب أن رجلا يصلي وألقى الله عليه تجليا من تجلياته الذاتية أو الصفاتية فخرج من نفسه وإرادته وغلبت عليه هذا الحال فظن أنه دائم الصلاة مع أنه خرج من الصلاة، فأمثاله لايؤدون الصلاة لوقوعهم في الشبهة لغلبة الحال عليهم أنهم في الصلاة، ولكنهم مع ذلك معذورن مأجورون، والناس يحسبونه تاركا للصلاة لوقوعهم في الشبهة بظاهر حالهم.

مثال آخر :هب أن رجلا رأى في المنام أنه استيقظ من النوم وتوضأ للصلاة فذهب إلى المسجد وصلى ثم استيقظ وغلب هذا الحادث على الخيال وظن أنه صلى الفجر فلم يصل لوقوعه في الشبهة، والناس أيضا يظنونه بظاهر حاله تاركا للصلاة وهم محقون في ذلك، والرجل أيضا معذور لأجل وقوعه في الشبهة.

فهذه بعض الصور لوقوع السالكين وعامة الناس في الشبهة، فالواجب أن لا ننسى هذه الجوانب عند دراستنا للتصوف فلا نقع في المهالك.

---

[1] نفحات الأنس للجامي، ذكر الشيخ أحمد معشوق الطوسي، ص: ٤٧٤.

[2] ينظر: فوائد الفؤاد للقصة، ص:١١٠٩-١١١١، قام بطبعه: خواجه حسن ثاني نظامي، دهلي

الأصل السابع والعشرون: معرفة الحكم الأصلي والحكم المبني على سد باب الذريعة

كما أن الفقهاء في الشريعة يصدرون الفتاوى تارة على الحكم الأصلي وتارة على الحكم المبني على سد الذريعة، كذلك الصوفية أيضا يصدرون الأحكام على أساس الحكم الأصلي أحيانا وعلى الحكم المبني على سد الذريعة أحيانا أخرى، فمثلا قال بعض الفقهاء إن زيارة القبور للنساء جائزة بناءا على الحكم الأصلي الثابت من عموم قول النبي صلى الله عليه وسلم: كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها،[1] ومنعها بعضهم لسد باب الفتنة.

قال بعض الصوفية إن سماع القصائد والأبيات للمحامد والمدائح النبوية والغزل بالمزامير جائز، فإن آلات اللهو ليست محرمة لعينها وإنما هي محرمة بقصد اللهو منها وحرمه بعضهم لسد باب الذريعة، وفي أمثال هذه المواضع يضطرب الدارس فيجد التناقض بين أقوال الفقهاء أو الصوفية أو بين قول فقيه وصوفي والأمر ليس كذلك وقد اختلفت الفتاوى ههنا بإختلاف أساس الحكم .

وربما يكون الحكم الشرعي ثابتا عند الفقهاء والصوفية كلهم بالنظر إلى الحكم الأصلي الدائم، إلا أن الصوفية في بعض الأحوال لا يجيزونه موقتا لأجل سد باب المضرة الإحسانية.

فمثلا يذكر في كتب التصوف أن أحدا من المرشدين المشايخ منع طالبا من النكاح فاعترض عليه المعترضون وقالوا: إن الصوفية لا يرغبون الرجال في النكاح وهذا إعراض عن الشريعة والأمر ليس كذلك، فالصوفية سباقون إلى العمل بالسنة من غيرهم.

والحقيقة أنهم عندما يرون في حال السالك أن النكاح في حقه يضره ويضعف علاقته مع الله لفساد الزمان فيمنعونه من النكاح إلى أن يستقيم حاله مع الله، وحكمهم هذا من سد باب الفتنة في علم الإحسان.

وربما يحدث أن الرجل الطالب يقصد شيخا مربيا فينشغل عنده في تحقيق مقاصده الإحسانية فلا تميل نفسه إلى النكاح ولا يرغبه شيخه أيضًا فيه حينئذ لكونه مشتغلًا بالتزكية

[1] صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب إستئذان النبي ﷺ ربه في زيارة قبر أمه.

والإحسان، وهذا ما ينقمه منهم المنكرون فيتهمون الصوفية بأنهم راغبون عن سنة النكاح.

وإن هذا منهم لشيء عجاب فلكل شيء مقام ولكل مقام حكم، ولماذا هؤلاء المنكرون على الصوفية لا يتهمون الطبيب أنه منكر للعلم فهو لا يرغب المريض على تحصيل العلم في المستشفى؟ ولماذا لا يقدحون في أساتذة المدارس فهم أيضا لا يحثون الطلاب على النكاح خلال التلقي للعلم؟ ولماذا ينكرون على الصوفية لأجل تركهم الترغيب في النكاح.

والسر في ذلك أن الطالب لورغّبه شيخه في النكاح حال عكوفه على التزكية والتربية، لترك مهمته واشتغل بالنكاح وما إلى ذلك من أداء الحقوق والواجبات الزوجية، ومن ثم كان محروما من نيل الفضائل والمناقب الإحسانية فلم يرغب شيخه في النكاح لئلا يكون محروما من نيل مقامات الإحسان.

فالواجب على كل من حاول الفهم الصحيح للتصوف أن يراعي هذ الأصل عند دراسته للتصوف فهو مفيد لكل سعيد رشيد.

خاتمة

فهذه أصول نافعة في فهم التصوف الصوفية لكل من لم يرزق صحبة المشايخ المرشدين و أراد الفهم الصحيح للتصوف وأتى بقلب سليم فرعاها ومارسها بدون تعصب وتعسف، نفعنا الله تعالى من علوم الصوفية وأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ووفقنا سلوك طريق الحق واليقين، وجنبنا عن مكائد النفس ومصائد الشياطين والظن السوء بأهل التقوى والإحسان، ورزقنا نصيبا أوفى من الظن الحسن بهم وحشرنا في زمرتهم وجعل في عقولنا وقلوبنا نورا نهتدي به إلى حقيقة الأشياء وحقائقها فهو الوهاب المنان يرزق من يشاء من خزائنه بغير حساب، آمين يا رب العالمين.

وصلى الله تعالى على خير خلقه سيدنا ومولانا محمد الفاتح لما أغلق والخاتم لما سبق وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه نجوم الهداية والصراط المستقيم ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

نفحات الأنس
مرجع مهم في تراجم الصوفية

إعداد: محمد ذكي[1]

إن دولة إيران حظيت بوجود الكثير من مهرة العلوم والفنون في القرنين الثامن والتاسع، وهؤلاء المهرة منحوها مكانة سامية بجهودهم وأعمالهم فيما بين الدول الأخري حتي أصبحت إيران مرجع العلم والعلماء آنذاك.

من هؤلاء المهرة الكبار والعلماء الأفذاذ الشيخ نور الدين عبد الرحمان الجامي، – رحمه الله –الذي ولد في جام من قصبات خراسان سنة (٨١٨هـ)، وأخذ العلم من علماء عصره البارعين حتي تضلع منه، ثم التفت إلي تزكية النفس وتربيتها فلازم صحبة عدة الصالحين من أمثال الشيخ سعد الدين الكاشغري، والشيخ خواجه علي السمرقندي، والشيخ قاضي زاده الرومي، وقطع عندهم منازل السلوك والمعرفة، فلما توفي الشيخ الكاشغري سد الشيخ الجامي مسده، وأخذ يرشد الناس نيابة عنه، وقد كان السلطان حسين بائقرائي يجله كثيرا من أجل جلالة علمه وعظم معرفته.

لقد قضي الشيخ الجامي حياته حافلة بالعلم والعمل والتصنيف والتأليف، وترك لنا عددا لا بأس به من الكتب والرسائل التي يبلغ عددها إلي ثمانية وثمانين منها "نفحات الأنس" المرجع الحافل في تراجم السادات الصوفية وطبقاتهم من القرن الثاني إلي القرن العاشر فلنتحدث عنه بشيء من التفصيل.[2]

سبب تأليف الكتاب:

ألّف الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي كتابا في طبقات الصوفيه وتراجمهم، وسماه بطبقات الصوفية، نال هذا الكتاب شهرة فائقة في سائر البلاد الإسلامية عامة وفي دولة إيران خاصة، والسبب في ذلك يعود إلي أن الشيخ عبد الله الأنصاري أخذ يلقي الوعظ منه ويمليه علي تلامذته باللغة الهروية في إيران، وقد يضيف أثناء

---

[1] المدرس بالجامعة العارفية.

[2] شذرات الذهب في أخبار من ذهب (٥٤٣/٩)

ذلك ترجمة بعض الصوفية الموجودين في عصره، أو قبل عصره ممن لم يترجم لهم الشيخ السلمي فأصبح الكتاب أضخم وأكبر مما كان عليه من قبل، ولم يسمه الشيخ باسم جديد بل أبقاه علي تسميتة سابقة.

لم يزل هذا الكتاب محط أنظار الباحثين والدارسين في تراجم الصوفية إلي أن أخذت اللغة الهروية تضعف وتتلاشي من إيران ولم يعد يعرفها ويتكلم بها إلا عدد قليل من الناس. فههنا أحس الشيخ الجامي بخطورة الأمر وأهميته فشمّرعن ساعد جده ونشاطه فأخذ ينقل الكتاب من اللغة الهروية إلي الفارسية السائدة في إيران آنذاك وخلال نقله هذا فعل مثل ما فعل الشيخ الهروي فأضاف إليه الكثير من تراجم الصوفية في عصره وقبل عصره ممن لم يستطع الشيخ الهروي ترجمتهم وهكذا أخرج لنا كتابا رائعا شاملا لتراجم الكثيرة من الصوفية من القرن الثاني إلي القرن العاشرالهجري، ليس من البلاد العربية فقط بل من بلاد العجم أيضا مثل إيران والهند وغيرهما.[1]

محتويات الكتاب:

بدأ الشيخ كتابه هذا بمقدمة مفيدة طويلة ذكر فيها أولا تعريف الولاية والولي مفصلا ثم عد لنا أقسام الصالحين مثل الصوفي والمستصوف والزاهد والفقير والعابد والسالك المجذوب والمجذوب السالك وغيرها من تسميات أخري، وأوضح الفرق بينها بدقة بالغة تدل علي غزارة علمه وسعة اطلاعه ثم عرض لنا الفرق بين معاني المعجزة والكرامة والاستدراج، وفي الأخير ردّ علي من ينكرون الولاية ردا بليغا.[2]

هذا الكتاب ثمرة جهود ثلاث شخصيات جليلة أولهم الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي الذي ترجم لمن عاش من الصوفية إلي بداية القرن الخامس الهجري فحسب، وثانيهم الشيخ عبد الله الهروي الذي أضاف فيه ترجمة الباقين من المشائخ الصوفية إلي نهاية القرن الخامس الهجري تقريبا في حدود علمه، ثم جاء الشيخ الجامي في القرن التاسع فقام بنقل الكتاب من اللغة الهروية إلي الفارسية مع ضمه ترجمة عدد كبير من المشايخ إلي نهاية القرن التاسع الهجري، ولم يأل جهدا في البحث عن التراجم والطبقات فنراه قد ذكر في كتابه هذا حتي البعض من مشائخ الهند مثل شيخ الإسلام نظام الدين أولياء وغيره.

مكانته بين كتب التراجم الأخري:

إن تراثنا الإسلامي ذاخر بكتب التراجم والطبقات الصوفية، أذكر منها فيما يلي بعض الكتب التي ما زالت موضع ثقة واهتمام لدي الباحثين مع وضع مقارنة بسيطة بينها وبين نفحات الأنس لمولانا جامي – رحمه الله –:

---

[1] نفحات الأنس ،طبعه مؤسسة الهيئة العامة لقصور الثقافة ص ٥– ٨ .

[2] انظر المقدمة لنفحات الأنس من ص ٩–٦٣.

(١) طبقات الصوفية لعبد الرحمن السلمي (٤١٢هـ)

ترجم المؤلف في هذا الكتاب لمئة شخصية فقط.

(٢) حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني (٤٤٣هـ)

ترجم المؤلف في هذا الكتاب لست مئة وتسع وثمانين شخصا، وكلهم توفوا قبل انتصاف القرن الخامس الهجري.

(٣) طبقات الأولياء لابن الملقن (٨٠٤هـ)

ذكر المؤلف في هذا الكتاب من عاش من الصوفية قبل نهاية القرن الثامن ولكن عدد المذكورين فيه لم يتجاوز مئتين وثلاثين شخصا.

(٤) الطبقات الكبري للشيخ عبد الوهاب الشعراني(٩٧٣هـ)

إن الشيخ الشعراني ترجم فيه لمن عاش إلي بداية القرن العاشر إلا أن المذكورين فيه أربع مئة وأربع وعشرون شخصا فقط.

نظرا إلي التفاصيل التي ذكرتها آنفا يتضح لنا أن نفحات الأنس أحفلها وأشملها لسببين:

الأول: أن مؤلفي الكتب السابقة لم يكثروا من تراجم الشيوخ.

والثاني: أنهم إن اكثروا منها فلم يشمل جهدهم إلا أزمنة قليلة.

أما نفحات الأنس فقد جمع بين هاتين الميزتين فإن الشيخ الجامي ترجم أولا لست مئة وثمانية عشر شخصا وامتد وجود المذكورين في الكتاب إلي نهاية القرن التاسع ثانيا.

وليلاحظ ههنا أنه ليس القصد من وضع هذه المقارنة التقليل من شأن هذه الكتب فإن لها مزايا ومحاسن يطلع عليها من يطالعها غير أنني أردت ههنا أن أبرز لنفحات الأنس هاتين الميزتين فقط.

إقبال المسلمين عليه:

لقي نفحات الأنس تجاوبا كبيرا بين أوساط العامة والخاصه منذ أن ظهر؛ لغزارة مادته أولا وسهولة أسلوبه ثانيا. فقد كان الناس في عصره يتكلفون في صياغة العبارات، وكان الكمال عندهم متمثلا في عرض الكلام بأصعب كلمات وأعسرها، لكن الجامي لم يقتد بهم بل شق لنفسه طريقا جديدا حيث ألف كتابه هذا بأسهل كلمات وأعذبها؛ فما إن رأي الناس هذا الكتاب حتي انكبوا علي شرائه ومطالعته ليس لمجرد المعرفة بالتراجم فقط بل للاستفادة أيضا مما أودعه الجامي من أقوال المشايخ الصوفية وحكاياتهم، وذلك بجانب تمتعه برصانة الأسلوب وجزالة المعاني.

لقد عني مسلمو الهند بهذا الكتاب عناية بالغة فكانت الحلقات الدراسية تعقد في الزوايا والخانقاوات لأجل الاستماع من هذا الكتاب حتي رأينا في زماننا هذا شيخنا أبا سعيد -حفظه الله- يطرح الدروس منه مرارا وتكرارا.

ومما يدل علي إقبال الناس علي نفحات الأنس أن الكتاب ترجم إلي ثلاث لغات: العربية، والأردية، والتركية، نقله إلي العربية الأستاذ تاج الدين بن زكريا ولكنه لم ينقل من الكتاب إلا مائتي شخص فقط، وتم نشره من قبل مؤسسة مصرية ممتازة ألا وهي الهيئة العامة لقصور الثقافة، وترجمه إلي التركية الأستاذ مير علي شير، كما حوله إلي الأردية الشيخ شمس البريلوي، شكر الله تعالي سعي الجميع.

ما أخذ علي المؤلف:

مما لا يتطرق إليه الشك أن الإنسان مهما بلغ من العلم والفضل فإنه لايزال بشرا قد يخطيئ وقد يصيب، وقد أبي الله تعالي أن يخلو كتاب من النقص والخلل سوي كتابه، فنري كتاب نفحات الأنس علي جلالة قدره وعظم منزلته يفقد الترتيب الحسن، والتنسيق الجميل ،فيكون المؤلف يذكر الشيوخ من الطبقة الثانية فإذا به يأتي بالشيوخ من الطبقة الثالثة وقد يفعل عكس ذلك، وهذا التداخل يوجد في الكتاب كثيرا.

أضرب لكم علي هذا مثالا يبرهن ما أقول.

قال المؤلف وهو يذكر ترجمة الشيخ سهل بن عبد الله التستري: أنه من الطبقة الثانية فكان من المفروض أن يظل يذكر المشايخ من هذه الطبقة ولكنه لم يفعل ذلك بل ذكر بعد ذلك عدة شيوخ من الطبقة الثالثة وصرح بأنهم من الطبقة الثالثة ثم ما لبث إن عاد إلي الطبقة الثانية. [1]

والسبب في هذا التداخل أنه كان موجودا في الأصل (وهوطبقات الصوفية للسلمي) فأبقاه الشيخ الجامي علي حاله ولم يغيره كما أنه ظل يقيد كل من اطلع عليه من المشايخ خلال التأليف دون مراعاة الترتيب ثم ما استطاع أن يرتبهم ترتيبا منطقيا.

ولكن هذه هنة صغيرة بالنسبة لما قام به من هذا العمل الكبير الضخم، أدعو الله تعالي أن يقيض لهذا الكتاب من يحدث له ترتيبا منطقيا وليس ذلك علي الله بعزيز.

[1] انظر ص. ٢١٤.

نظرة عابرة

علي "مجمع السلوك"

إعداد: محمد نور عالم [1]

لقد مضت أربعة عشر قرنا لهذا الدين السوي المستقيم،وخدم هذا الدين الإسلامي بوسائل عدة، منها في المستوي الأول الأخلاق النبيلة، والدعوة والتبليغ وكذلك التضحية بالنفس عند الضرورة و بذل الأموال، وغيرها. و من تلك الوسائل التي انتشر و ترعرع الإسلام بها علي نطاق واسع التصنيف والتأليف أيضاً؛ فإنه أسهل الطرق لتوصيل المفهوم الإسلامي بين المجتمع، و أحسن السبل للتأثير في نفوس الناس.

إن المصنفين قد صنفوا مصنفاتهم والمؤلفين ألفوا مؤلفاتهم بلغات عديدة حسب ثقافاتهم المختلفة، ولكن كانت اتجاهاتهم واحدة وهي خدمة الإسلام، وكذلك كانت مستمداتهم أيضاً واحدة وهي الكتاب والسنة، ونتيجة لخدماتهم اعتنق غير المسلمين الإسلام، واطمأن المسلمون على الإسلام، وثبتت أقدامهم عليه واستقرت، فما زال العلماء يصنفون و يؤلفون، ولا يزالون يؤلفون إلي أن تقوم الساعة.

ومن تلك المؤلفات كتاب شهير بين الناس، مزكٍّ لقلوب المستهدين، و مرشد للسالكين مسمي بـ"مجمع السلوك" ألفه الشيخ سعد الدين الخيرآبادي -قدس الله سره-، واشتهر هذا الكتاب بين العامة والخاصة، و في عهد صاحبه صار هذا الكتاب في شبه القارة الهندية مسير الشمس.

بعض الكلمات حول صاحب الكتاب:

لقد كتب الأخ الفاضل إظهار أحمد الأزهري مقالة في مجلة "الإحسان" السنوية مسهبة مستقلة محتوية علي نبذة من حياة المصنف ومؤهلاته ودوره البارز في الهند؛ ولذلك أوجز الكلام عنه في عدة سطور حتي لا ينفصل ذكر صاحب الكتاب عن الكتاب.

هو العالم العبقري، الصوفي الكبير الشيخ سعد الدين الخير آبادي-قدس الله سره- ولد في القرن التاسع الهجري في مدينة "أناؤ"-الهند- وكان والده قاضيا في مدينة خير آباد، و توفي والده و هو في صغر

[1] الدارس : بجامعة الأزهر الشريف.

سنه، فتربي الشيخ في حجر أمه، ثم بدأ يتلقي العلوم الإسلامية، وكانت آثار الفطانة والزهد تبدو في جبينه، فما زال يتعلم في المدارس والمعاهد حتي قضي من عمره خمسين سنة. و بعد الفراغ من تحصيل العلم لجأ إلي الشيخ المربي "المخدوم مينا" –قدس سره– وقضي عنده عشرين سنة، و بعد ست سنوات من وفاة شيخه سافر إلي مدينة خير آباد، وما زال يعلم الخلق، ويزكي قلوب المبتدئين، ويوصل السالكين إلي الله إلي أن وافته المنية سنة تسع مئة و اثنتين و عشرين من الهجرة.

إنه –قدس سره– لم يكن عالما فحسب؛ بل كان زاهدا، ساهر الليالي قائما في حضرة الله، وكان مربيا موصلا خلق الله إلي الله و كان الناس يستفيدون به من العلم الظاهري وأحواله الباطنية.

وجه التأليف:

ألف الشيخ سعد الدين –رحمه الله– كتبا عديدة و شروحاعديدة على مصنفات القدماء في النحو والأصول، ولكن "مجمع السلوک" أهم و أشهر كتبه بين الناس، واستفاد به الخلق علي نطاق واسع، وهذا الكتاب "مجمع السلوک" شرح مبسوط لمتن التصوف الشهير "الرسالة المكية" للشيخ العلامة قطب الدين الدمشقي –رحمه الله– (م: ٧٨٠هـ)' وهذه الرسالة العظيمه للتصوف مرجع للسالكين عند فقد مربيهم، وملجأ الشيوخ عند إلقاء دروسهم علي تلاميذهم، ولكن بسبب الإيجاز و، كان التلامذة يعجزون عن فهم المعني الحقيقي في بعض العبارات، فألحّوا علي الشيخ سعد الدين الخير آبادي أن يشرح هذه الرسالة بأسلوب يسهل فهمها للتلامذة و عامة الناس؛ فبدأ الشيخ يشرح هذه الرسالة باللغة الفارسية حتي انتهى من شرحها في أسرع وقت، و في عهد الشيخ حاز هذا الكتاب مكانا مرموقا بين كتب التصوف و ذاع صيته في أنحاء الهند وأرجائها، وأخذه العلماء والمشايخ يدا بيدٍ، وعين هذا الكتاب للدروس والمحاضرات في الزوايا والمدارس و ما زال الظمآن يروي عطشه منه.

الترجمة من الفارسية إلي الأردية:

مع كل تلك الفضائل انحصر هذا الكتاب بين العلماء والخواص عبر القرون؛ لكونه باللغة الفارسية؛ لأنه في عصرنا هذا قل شأن هذه اللغة، و اضمحل صيتها، ولم يبق أثرها كما كان، أما تأليف هذا الكتاب بالفارسية فوجه ذلک أن في عهد الشيخ كان لهذه اللغة أثركبير و دورعظيم، والناس كانوا يتعلمونها، والعلماء كانوا يؤلفون بها، ولما قل رواج هذه اللغة مست الحاجة إلي ترجمته إلي الأردية الشعبية؛ ليأخذ الناس حظهم منه، فتكفل بأمرها الداعية الإسلامي الصوفي الكبير الشيخ إحسان الله القادري السهروردي الجشتي النقشبندي –أطال الله بقاءه– صاحب الزاوية العارفية بالهند، وفوض مسئولية ترجمة هذا الكتاب

القيم إلى أستاذنا الفاضل العالم الكبير الشيخ ضياء الرحمن العليمي-أستاذ الجامعة العارفية- فلبي الأستاذ نداء الشيخ و قام بترجمته في أقرب وقت ممكن، ثم قام الأستاذ الفاضل العالم الكبير الشيخ غلام مصطفى الأزهري مع بعض إخوانه بالتخريج والتحقيق والتعليق عند الحاجة، وبذلوا جهدا كبيرا، واستثمر جهدهم، فجاء الكتاب بحيث يسر الناظرين. ولم يقف الأمر عن هذا، بل بدأت محاولة ترجمة هذا الكتاب من الأردية إلي العربية، و سوف تتم ترجمته إن شاء الله.

خصائص هذا الكتاب:

بعد مطالعة هذا الكتاب نلاحظ بعض الخصائص الآتية:

١. نجد ترجمة المتن العربي وكذلک شرحه، فتارة يكون شرحه بالإيجاز، وتارة يكون بالإطناب حسب مقتضى الحال.
٢. قام الشيخ بتحليل بعض الألفاظ لغة و نحوا أحسن تحليل.
٣. في كثير من الأماكن أتي الشارح بالشواهد والبينات والأمثلة لتوضيح مرادقول صاحب الرسالة المكية.
٤. وجدنا في بعض المقامات أن الشارح قد خالف رأي المصنف في بعض المسائل و جاء برأي مخالف له، ولكن هذا كله مع كل تبجيل و تكريم له.

جامعية الكتاب:

إن موضوع هذا الكتاب الأساسي هو التصوف غير أنه محتوٍ علي كثير من العلوم الأخري، حيث قام الشارح بتفسير الآيات القرآنية، وزين دعواه بالأحاديث الصحيحة مع تخريجها، و تكلم حول علم الكلام لتثبيت العقائد الصحيحة، وتنزيهها عن العقائد الفاسدة الباطلة، وهكذا نجد فيه مباحث الفقه وأصوله والنحو والصرف والبلاغة، نذكر فيما يلي بعض المصادر والمراجع التي استفاد منها الشارح في هذا الكتاب.

(١)التفسير:

استمد الشارح في شرحه من كتب التفاسير الكثيرة، واستدل بها عند الحاجة، ومن تلك التفاسير:

(١)التفسير الكبير للإمام الرازي، (٢)مدارک التنزيل للنسفي، (٣)معالم التنزيل للبغوي، (٤) الجامع الكبير في معالم التفسير للإمام بسطي، (٥)البحر المواج للشيخ شهاب الدين الهندي، (٦)تفسير الإملاء، (٧)التفسير الزاهدي، (٨)تفسير الكشاف للزمخشري، (٩)لطائف القشيري، و غيرها من كتب التفاسير.

(٢)الحديث:

(١)صحيح البخاري، (٢)صحيح مسلم، (٣)سنن أبي داؤد، (٤)سنن النسائي، (٥)سنن ابن ماجه، (٦) شرح صحيح البخاري لابن بطال المالكي، (٧)شرح صحيح مسلم للإمام النووي، (٨)مشكاة

المصابيح، (٩)نوادر الأصول، (١٠)شرح المشكاة للطيبي، (١١)حلية الأولياء للأبي نعيم الأصفهاني، (١٢)مشارق الأنوار للصنعاني، (١٣)كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل، وغيرها من كتب الحديث.

فهذه كتب الأحاديث المشهورة المذكورة التي استفاد بها الشيخ، واستدل بها في أكثر من موضع في كتابه؛ فهذه المصادر ترد ما قاله صاحب نزهة الخواطر في كتابه "الثقافة الإسلامية في الهند" عن فقدان كتب الأحاديث، وعدم انشغال الناس بهذا العلم في عهد الشيخ، كما قال: «لما انقرضت دولة العرب من بلاد السند، و تغلبت عليها الملوك الغزنوية والغورية، و تتابع الناس من خراسان وما وراء النهر صار الحديث فيها غريبا كالكبريت الأحمر وعديما كعنقاء الغرب، وغلب علي الناس الشعر والنجوم والفنون الرياضية، وفي العلوم الدينية الفقه والأصول؛ حتي قال: "فإن ترفع أحد إلي مصابيح السنة للبغوي، أو إلي مشكاة المصابيح و ظن أنه وصل إلي درجة المحدثين، فما ذلک إلا بجهلهم بالحديث، و لذلک تراهم لا يذكرون هذا العلم، ولا يقرأونه، ولا يحنون إليه، ولا يجذبون إليه، ولا يعرفون كتبه، ولا يعلمون أهله».[1]

(٣)الكلام:

إن صاحب الرسالة المكية تكلم في رسالته عن العقائد، فشرحها الشارح العلامة شرحا وافيا، و قام بتقوية دلائله وتأويل بعض الآيات مما لا يمكن حملها علي معناها الظاهري، والأن أستعرض نموذجا منها فيما يلي:

تكلم الشارح عن "الألف و اللام" في "الحمد لله" قائلا: "إن الألف واللام ههنا للاستغراق و يكون معناه أن الحمد كله لله، أما المعتزلة فتعتقد بأن العبد خالق لأفعاله، وإذا اكتسب العبد أفعالا حميدة فمحامدها ترجع إلي العبد، أما عند أهل السنة والجماعة فإن الله خالق لأفعال العباد، ولو فعلها عبد يرجع الحمد إلي الله تعالي كما قال- عز وجل:﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[الصافات:٩٦].

والكتب التي لجأ الشارح إليها خلال التكلم عن العقائد منها ما يأتي:

(١)أصول الصفار لأبي قاسم الصفار الحنفي. (٢)تبصرة الأدلة لأوحد الدين النسفي. (٣)لتمهيد لأبي شكور السالمي. (٤)شرح العقائد التفتازانية. (٤) العقيدة الحافظية لأبي البركات النسفي، وغيرها.

(٤)الفقه وأصوله:

و كان الشيخ سعد الدين -رحمه الله- مشتهراً بين الناس من حيث الفقيه والأصولي، وكتب شرحاً على أصول الفقه للبزدوي، واستدل في هذا الكتاب "مجمع السلوک" بأكثر من ستين كتابا من كتب الفقه.

---

[1] الثقافة الإسلامية في الهند: ص١٢٦.

منها:في أصول الفقه:

(١)أصول البزدوي، (٢)الأمالي، (٣) التلويح، (٤)شرح أصول البزدوي للقاضي شهاب الدين، وغيرها.

ومنها:في الفقه:

(١)الجامع الصغير، (٢)خانية، (٣)خزانة الفقه، (٤)الفتاوي السراجية، (٥)كتاب السير، (٦)النهاية، (٧)الهداية، وغيرها.

(٥)النحو والصرف والبلاغة:

إن المؤرخين لقبوا الشيخ سعد الدين-رحمه الله- بالفقيه الأصولي النحوي، فهذا الكتاب يشهد بعلو كعبه في العلوم النحوية والصرفية والبلاغية كما يدل على تبحره في الفقه و اللأصول.

(٦)التصوف:

نعرف جيدا أن أساس هذا الكتاب هو التصوف؛ فإن هذا الكتاب وسيلة للتقرب إلي الله تعالي وسبيل لتحلي النفوس بمكارم الأخلاق و التخلي عن الأخلاق الفاسدة، فهو يمثل التصوف الإسلامي الصحيح ويرد علي من يقول من المتطرفين بأن كتب التصوف كلها تشتمل علي الأحاديث الضعيفة والترهات الفاسدة والشطحات الباطلة، حيث أتي الشارح بالدلائل والشواهد من الكتاب والسنة، وقام بترجيح بعض الأقوال علي بعض، والتفريق بين الطقوس الصحيحة والمبتدعة.

محتويات الكتاب:

إن أساس هذا الكتاب هو التصوف الإسلامي الخالص كما ذكرنا، وإنه منهل عذب صاف ينهل منه كل من يريد تزكية النفس، وتصفية القلوب، وتربية الأخلاق وتهدئة النفس الأمارة بالسوء، وهو مجمع البحرين يجتمع فيه الشريعة والطريقة والجذب والسلوك و العلم و العمل و ما عدا ذلك، و يحتوي علي كثير من العلوم و المعارف وأسرار التصوف و رموزه، بالإضافة إلي إلمام كبير بكيفية السلوك إلي الله وآدابه وأركانه و منازله و نتائجه و ما يتعلق به من السير إلي الله عز و جل.

تفصيل بعض ما ذكرناه آنفا:

لقد عرف المصنف السلوك والوصول قائلا: "فإن قيل: مامعني السلوك والوصول؟ فيقال: السلوك عبارة عن تهذيب الأخلاق ليستعد للوصول".

فأرشدنا المصنف بعبارة وجيزة سهلة إلي ابتداء السلوك إلي الله، وأوضح بهذا التعريف قيمة الأخلاق في التصوف، ثم قسم المصنف الأخلاق إلي قسمين:

أ: قسم يجب علي السالک أن يتحلي به، وهو الأخلاق الحميدة من العلم و الحلم والعفو والرضا والود والرأفة والنصيحة والعجز والمروءة والأخوة والسخاوة والندي والعدل والتقوي والزهد والورع والتوكل والإخلاص والصدق والديانة إلي غير ذلک.

ب: قسم يلزم أن يتخلي السالک عنه: وهو الأخلاق الرذيلة من حب الدنيا و زينتها و زخارفها، و الحقد والحسد والغيبة والنميمة، والكبر والرياء، و البخل، والإعجاب بنفسه، والحرص والظلم، والغش والتجسس، والإكثار في الطعام والكلام و كل ما يسبب ضررا للآخرين.

لا بد للسالك من أن يجمع بين الشريعة والطريقة، وقد ألقي المصنف الضوء علي أهميتهما في التصوف، وجعلهما أساساً له، وقام بتبويب هذا الموضوع في كتابه، وذكر أقسام العلم و درجاته، و حث علي طلب العلم و حصوله، حيث قال: "الصوفية رأوا طلب العلم أفضل الأعمال لتوقفها عليه" و قال: "فإن الجاهل قد يعتقد ما ليس بقربة قربة كبدع المبتدعة بأفعالهم؛ نحو حلق اللحي، والتطوق بأطواق الحديد، وغير ذلک مما اخترعه الجهلة".

وقد اكد المصنف للسالكين علي التزام صحبة الشيخ، والتمسک بمنهجه، والاقتداء بهديه، والإطاعة لأوامره؛ لأننا نري كثيرا من الماهرين والبارعين في العلوم الإسلامية قد ضلوا عن طريق الحق واليقين؛ لعدم وجدانهم مرشدا يرشدهم إلي سواء الطريق، وقد أطال الكلام على هذا المبحث شارحاً قول الصوفية "من لا شيخ له فشيخه الشيطان" ثم ذيله بأوصاف الشيخ الكامل و شروطه طبقاً لقول العلامة الدمشقي "صاحب الرسالة المكية" حيث قال الدمشقي- رحمه الله-: «فالشيخ هوالذي سلک طريق الحق وعرف المخاوف والمهالک فيرشد المريد و يشير إليه بما ينفعه و يضر» فقوي المصنف هذا القول بالحديث النبوي حيث قال رسول الله-ﷺ-: «مثل الجليس الصالح كمثل العطار، إن لم يجد من عطره عبق برائحته، و مثل الجليس السوء كمثل القين، إن لم يحرق ناره عبق بدخانه و رائحته».

لم ينل علم من العلوم من التجريح والتشويه والهجوم ما ناله علم التصوف ورجاله، وما زال الهجوم عليه في عصرنا الراهن، فنري بعض المتشددين والمتطرفين قد نصبوا التصوف مرمي سهامهم بالطعن والتشنيع والرد عليه، وقاموا بمحاولة استئصال التصوف وتدميره، فهذا الكتاب يزيل شكوک الشاكين وشبهاتهم ويرد سهامهم في نحورهم، كما يزداد به السالک سلوكاً، والفقيه فقهاً، والمتكلم عقيدة، وعامة الناس خلقاً وهداية.

في رياض الإحسان

إعداد: فتحي عبدالرحمن أحمد حجازي الأزهري النقشبندي[1]

الحمد لله الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان، حمداً يوافي نعمه، ويكافي مزيد فضله، كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام والبركات على سيدنا محمد المبعوث بالآيات البينات رحمة للعالمين، وسبيلًا منيرًا للمهتدين، وقائدًا للغر المحجلين يوم الدين إلى جنات النعيم، يوم لاتملك نفس لنفس شيئًا والأمر يومئذ لله، وعلى آله الأطهار، وصحابته المناصرين الأخيار، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، فاللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين – بفضلك وجودك وكرمك يا أرحم الراحمين – آمين.

وبعد:

فإن العالم اليوم يموج بالفتن والطوفان، إنها فتنة الدنيا بزينتها وما فيها من نساء وأموال وبنين ومظاهر للحياة الصاخبة في جميع الميادين، وآثارها دامية على الغافلين؛ لأنهم في لهوهم يترددون، وهم عن ذكر ربهم معرضون، وصدق مولانا العظيم -سبحانه- في كلامه إذ يقول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوٰتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنٰطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعٰمِ وَالْحَرْثِ ذٰلِكَ مَتٰعُ الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَاللّٰهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاٰبِ﴾[آل عمران:١٤].

والمتأمل في حياة الناس في هذا الزمان يقرأ فيه هذا الذي ورد في هذه الآية من القرآن؛ لذا عقَّبها ربنا -جلت حكمته- بقوله عزمن قائل: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنّٰتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهٰرُ خٰلِدِينَ فِيهَا وَ أَزْوٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَّرِضْوٰنٌ مِّنَ اللّٰهِ ۗ وَاللّٰهُ بَصِيرٌۢ بِالْعِبَادِ﴾[آل عمران:١٥].

[1] عضو هيئة التدريس بكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر الشريف

فهذه التقوى هي جماع الخيرات والإحسان في جميع الأعمال بالنيات، مع الإخلاص في جميع الأوقات لله الذي برأ الكائنات، وصور الحياة في جميع ما خلق من المصنوعات، فمن سار على هذا الهدي الإلهي، الذي رسمه لكل نبي، وختم النبوات لسيد الأولين والآخرين، وتركنا على هدى القرآن وسنته، فقد سعد في دنياه بمعية مولاه، وترسم خطى رسوله الذي رباه، ثم يكون مع الصالحين في أخراه تحت لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنات النعيم، خالدين فيها أبدًا، وذلك هو الفوز العظيم.

ومن هذا الباب نرى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- لمّا سُئِل عن الإحسان في حديث سيدنا جبريل، قال عليه الصلاة والسلام: «أن تعبدالله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».[1]

قال ابن دقيق العيد في شرح هذا المقام: «حاصله راجع إلى إتقان العبادات، ومراعاة حقوق الله تعالى ومراقبته واستحضار عظمته وجلالته جمال العبادات». [2]

ومن هذا المنطلق رأينا أصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم-يتوجهون إلى ربهم في كل مناحي حياتهم، وعاشوا حول النبي- صلى الله عليه وسلم- يسألونه فيما يعرض لهم في أمور حياتهم، فيكون البيان الأوفى من رسول الله -صلى الله عليه وسلم-وعلى هذا الدرب كانوا يسيرون ويحيون، حتى قال فيهم رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه-:«الله الله في أصحابي إذا ذكر أصحابي تكفّوا» وقال أيضًا فيهم رضوان الله عليهم أجمعين: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم». وهذه هي المدرسة المحمدية النبوية الأولى التي تخرجت على يد المصطفى المعصوم -صلى الله عليه وسلم- رجالًا صدقوا ماعاهدوا الله عليه، وتركوا الحياة للذين جاؤوا من بعدهم ليسيروا على منهاجهم إلى ربهم إلى حياة خالدة في جنات النعيم، بعدما عاشوا في دنياهم، وبنعمته غطّاهم، وبرضوانه رقّاهم وأدناهم، ومن هذا نفهم معنى "التصفية" للقلب المؤمن الذي توجه إلى الله تعالى فصار صاحبه صوفيًا، كما عرف بين الناس وصار هذا الطريق لأهل الله من المسلمين الذين تخلّوا عن الرذائل، وتحلّوا بالفضائل، وذكروا ربهم بكرة وعشيّا، فاطمأنت أرواحهم وقلوبهم وأبدانهم حتى أتاهم اليقين، وصدر من ربنا جل جلاله إذ يقول: ﴿**اَلَّذِيْنَ آمَنُوْا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوْبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوْبُ اَلَّذِيْنَ آمَنُوْا وَعَمِلُوا الصّٰلِحٰتِ طُوْبٰى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾[الرعد:١٨،١٩].

---

[1] رواه مسلم وأبوداوود والترمذي

[2] شرح الأربعين النووية ١٩ ، تحقيق / أحمد الطهطاوي، ط ، دارالفضيلة ٢٠١٠ م .

وهذا العلم التصوف يدور حول ما ذكرت من تخلية القلب من الأقذار وتحليته بالأذكار، والقيام بالواجبات آناء الليل وأطراف النهار، والسير إلى الله تعالى والفرار إليه حتى يأتي اليقين؛ ليكون العبد في جنات النعيم.

وكان الإمام الشافعي وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما يترددان على مجالس الصوفية، فقيل لهما: لم أنتما تترددان على هؤلاء الجهال؟ فقالا: إن هؤلاء عندهم رأس الأمر كله، وهو تقوى الله –عز وجل– ومحبته ومعرفته.[1]

وقد أنشد الجنيد رضوان الله عليه قوله:

علم التصوف علم ليس يدركه

إلا أخو فطنة بالحق معروف

وكيف يدركه من ليس يشهده

وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

وعلى هذا الحد نعلم أن موضوع علم التصوف: أفعال القلب والحواس من حيث التصفية والتزكية، وبذلك تكون "ثمرته" هي: تهذيب النفوس ومعرفة علام الغيوب ذوقًا و وجدانًا، والنجاة في الآخرة من النيران، والفوز بدار الجنان، وهذه هي السعادة الأبدية، ولا سعادة بعد هذه السعادات، حيث يطهر القلب ويصفو، تنكشف له أمور غيبية وأحوال جليلة وذلك ببركة البصيرة، وهذا الفضل لايصل إليه أحد إلا من استنارت بصيرته، وإن استتر بصره عن رؤية الدنيا كما قال ربنا جل جلاله: فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

فهذا العلم أشرف العلوم، وبابه أوسع الأبواب، والولوج منه يكون إلى رب الأرباب، ومنه كان في معية مولاه وذكره، تولاه في دنياه وأخراه، فما رأينا منهم إلا التكريم، لأنهم يعيشون في معية رب العالمين، ويحبون خلقه أجمعين، فمن اهتدى على أيديهم فقد هداه الله، ومن بقي على بعده عن مولاه تمنوا له الهداية والسلامة بالإيمان والإسلام والإحسان والقرب من الخالق الرحمن؛ فإنه أرحم الراحمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله لرب العالمين.

[1] تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب للإمام الصوفي العارف الكامل العالم الورع مرشد الطالبين الشيخ محمد أمين الكردي النقشبندي ، ٢ / ٢٢٤ حفيده المستشار الدكتور : محمد نجم الدين الكردي مدالله في عمره ونفع به .

أثر التصوف في حياة الإمام محمد عبده

أ.د/ عاطف الأكرت

في النصف الثاني من القرن التاسع عشر طلع في سماء مصر نجم أضاءها بعد ظلمة، وأنارها بعد حلكة كانت قد غشيتها لقرون طويلة منذ وقوعها تحت الاحتلال العثماني، هو الإمام المجدد العالم العلامة الشيخ محمد عبده حسن خير الله المولود في مركز شبراخيت محافظة البحيرة سنة (١٢٦٦هـ- ١٨٤٩م) في أسرة اشتُهرت بالبسالة والشجاعة ورفض الظلم والطغيان فكان شديد الاعتزاز بالمجد والأصالة.

وعلى غرار النشأة الريفية لأطفال القطر المصري تلقَّى الصبيُّ تعليمه الأول في كتَّاب القرية فحفظ القرآن الكريم وجوَّده في سن مبكرة ثم بدأ في سنة (١٨٦٤م) بتلقي أول دروسه الأزهرية في الجامع الأحمدي بطنطا، وكان هذا الجامع نسخة مصغرة من الجامع الأزهر بالقاهرة، ولكن أساليب الدراسة العقيمة صدَّته عن قبول الدروس، وظن الفتى – في نفسه- أنه ليس أهلاً للعلم، وأن مصيره العمل في الزراعة مع والده وإخوته فقرر العودة إلى القرية سنة ١٨٦٤م، وتزوج وعزم على الانقطاع عن سلك التعليم، ولكن والده رفض ذلك وقرر عودته إلى الجامع الأحمدي مرة أخرى في نفس العام.

وفي هذه المدة حدث الموقف العجيب الذي حوَّل حياة الرجل تحويلاً تامًا، وعاد به مرة أخرى لحب العلم والشغف به ليشق طريقه في التعليم الأزهري، وليكون الإمام المجدد الذي يملأ الدنيا، ويشغل الناس.

يتمثل هذا الموقف في التقائه بالشيخ درويش خضر –خال والده- هذا الرجل الصوفي الذي كان له أكبر الأثر في حياة محمد عبده فعادت إليه الرغبة في العلم وعاد إلى الجامع الأحمدي، يقول الأستاذ المرحوم أحمد أمين: "وشاء القدر أن يلتقي بشيخ صوفي هو الشيخ درويش خضر خال أبيه فينقلب محمد عبده كأنه شخص آخر، حتى كأن عصا سحرية مسَّته، وهنا يتجلَّى فعل المصادفات في حياة العظماء، فلولا هروب محمد عبده إلى هذه البلدة، وملاقاته لهذا الشيخ لكان محمد عبده المشهور هو محمد عبده المغمور الذي لا يعرفه أحد إلا بلده، ولكان شأنه شأن أي فلاح في أي بلده لا يسجل اسمه إلا في دفتر المواليد ودفتر الوفيات"[1].

(١) زعماء الإصلاح في العصر الحديث، ص٢٩٧، نشر مكتبة الأسرة، سلسلة الفكر، ٢٠٠٨م.

جاء الشيخ خضر إلى محمد عبده أعطاه رسالة كتبها الشيخ محمد المدني بخط مغربي دقيق وأراد منه أن يقرأها له لضعف بصره، ولكنه دفعها بشدة ولعن القراءة، ومن يشتغل بها، ونفر أشد النفور، ولكن الشيخ تبسم وظهر حليمًا معه، ولم يزل به حتى أخذ الكتاب وقرأ بضعة أسطر، واندفع الشيخ يفسر بعبارة واضحة تروق له، وتدفع عنه السأم الذي لاقاه من قبل في دراسة العلوم النمطية، وتكرر هذا الموقف في اليوم الثاني واليوم الثالث.

"كانت هذه الرسائل تحتوي على شيء من معارف الصوفية، وكثير من كلامهم في آداب النفس وترويضها على مكارم الأخلاق وتطهيرها من دنس الرذائل، وتزهيدها في الباطل من مظاهر هذه الحياة الدنيا"[1].

تاقت نفسه إلى حب العلم والقراءة، وعاد ما كان يبغضه أحب شيء إليه، وتحول الرجل تحولاً كاملاً بعد معرفة طريقة الشيخ في التعبد والتعلم الصوفي، وقد التزم بها محمد عبده فماذا حدث معه؟

يقول: "فلم تمض علي بضعة أيام إلا وقد رأيتني أطير بنفسي في عالم آخر غير الذي كنت أعهد، واتسع لي ما كان ضيقًا، وصغر عندي من الدنيا ما كان كبيرًا، وعظم عندي من أمر العرفان والنزوع بالنفس إلى جانب القدس ما كان صغيرًا، وتفرّقت عني جميع الهموم، ولم يبق لي إلا همٌّ واحد، وهو أن أكون كامل المعرفة كامل أدب النفس، ولم أجد إمامًا يرشدني إلى ما وجَّهت إليه نفسي إلا ذلك الشيخ الذي أخرجني في بضعة أيام من سجن الجهل إلى فضاء المعرفة، ومن قيود التقليد إلى إطلاق التوحيد" [2].

الشيخ درويش خضر هو مفتاح سعادة الإمام محمد عبده –على حد تعبيره– وهو الذي غيَّر وجهته، وحوَّل تفكيره، وحبَّب إليه ما كان عنده بغيضًا، وصار الرجل يتوق إلى المعرفة وإلى العلم وإلى الكمال النفسي، فعاد للدرس والعلم.

بدأت نفس الإمام تتشرب الحياة الصوفية فتسمو، وتنزع نحو الكمال فتعلو، وتذوق طعم العبادة فتخلو، فإذا خلا بنفسه داوم على ذكر الله، وإذا صلَّى الصلاة أعقبها بتلاوة القرآن يتدبر ويعقل ما فيه على لاحب من السلوك الصوفي حتى استنارت طبيعته، وبينما هو في الجامع الأحمدي حدث معه ذلك الموقف الذي يرويه قائلاً: "في يوم من شهر رجب في تلك السنة (١٢٨٢هـ-١٨٦٥م) كنت أطالع بين الطلبة، وأقرر لهم معاني شرح الزرقاني[3]، فرأيت أمامي شخصًا يُشبه أن يكون من أولئك الذين يسمونهم بالمجاذيب[4] فلما رفعت رأسي إليه قال ما معناه:

(١) عباس محمود العقار: عبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده، ص٦١، ط دار نهضة مصر، ١٩٦٢م.
(٢) المصدر السابق، ص٦٢.
(٣) هو كتاب شرح الزرقاني محمد عبد الباقي بن يوسف الزرقاني علي موطأ الإمام مالك بن أنس وهو من أعظم الشروح عليه.
(٤) المجاذيب جمع مجذوب "وهو (في اصطلاح الصوفية) من جذبه الحق إلى حضرته، وأولاه ما شاء من المواهب بلا كلفة، ولا مجاهدة ولا رياضة" المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية.

ما أحلى حلوى مصر البيضاء!

قلت له: وأين الحلوى التي معك؟

فقال: "سبحان الله! من جدَّ وجد.

ثم انصرف فعددت ذلك القول منه إلهامًا ساقه الله إلي ليحملني على طلب العلم في مصر دون طنطا"(١).

إن الله لطيف بعبده الذي داوم على القرب والوصال، وتقرب إليه بالنوافل والطاعات حتى أحبه، فكان يسمع بسمع الله، ويرى بنور الله، وأفاض الله عليه من بركاته وفيوضاته، وسافر الرجل إلى مصر في شهر شوال من هذا العام ليواصل الدراسة في الأزهر الشريف، ويدخل امتحان الشهادة العالمية ١٢٩٤هـ-١٨٧٧م وينالها من الدرجة الثانية، ثم يواصل كفاحه المرير الذي يليق بنفس عظيمة لا ترضى بصغار الأشياء، ولكنها نفس كما قال الإمام الشافعي –رضي الله عنه-:

همتي همةُ الملوك ونفسي نفس حُرٍّ ترى المذّلة كُفرا

غامر في العوالي من الأمور، ولم يقنع بما دون النجوم، وحارب الجمود والتحجر ودعا إلى إعمال العقل والتفكير، ونبذ التقليد والاتباع فكانت حياته نموذجًا في حب العلم والعمل، وكان نجمًا يُفتدى به، وقد وافته المنية في الساعة الخامسة من مساء يوم ١١ يوليو سنة ١٩٠٥م- ٧ من جمادي الأولى ١٣٢٣هـ عن عمر يناهز سبعًا وخمسين عامًا، بعدما ترك حياة فكرية خصبة وثروة علمية ضخمة.

إن النظر في حيوات الأئمة النجوم تضيء الطرق للسالكين، والموقف الذي غيَّر حياة الإمام جدير بالتوقف عنده والنظر فيه، إنه يكشف لنا عن جانب التصوف في حياته، وأثر هذا الجانب في أفكاره وأعماله، وإنه لدليل واضح على التغير الجذري الذي يحدثه التصوف في حياة الفرد، بل في حياة المجموع أيضًا، فقد تغير وجه الحياة المصرية بتغير الإمام نفسه.

إن التصوف ليس استكانة إلى الكسل، وليس تركًا للعمل، وليس هجرًا للعمران والسعي في الحياة، واستعمار الأرض، وهذا الفهم خاطئ وبعيد كل البعد عن جوهر التصوف، وما نال هذا الجانب من سوء فهم إلا من خلال انتشار هذه الأفكار عنه، كلا لعمري، ذلكم الرجل الجريء الذي يزأر في الناس أن اعلموا واعملوا واجتهدوا وأخلصوا كان التصوف المصباح المضيء لحياته، والواصل بينه وبين ربه في خلواته وجلواته ومن كان الله معه فلا يحزن، وليس يضيره شيء ولو اجتمعت عليه الأمة.

(١) د/ محمد عمارة: تجديد الفكر الإسلامي: محمد عبده ومدرسته، ص٢١، ٢٢، ط دار الهلال، ١٩٨٠م، وينظر: الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، ج١، ص٢٦، تحقيق وتقديم: د/ محمد عمارة، ط دار الشروق، وعبقري الإصلاح والتعليم الإمام محمد عبده، ص٦٣.

لقد استقام الإمام على الطريقة فظل يشرب ويرتوي من العلم النافع، وظل ناقمًا على طريقة التعليم القائمة على الجدل اللفظي، والوقوف عند كلام القدماء دون الإفادة منها، ولذا وجدناه ينسب كل فضل وصل إليه إلى هذا الجانب المشرق في حياته، وهو التصوف فيقول: "كل ما أنا فيه من نعمة في ديني- أحمد الله تعالى- فسببُها التصوف. (الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده، ٣/٥٥٦)

لقد كانت الخصومة الشديدة بين الفقهاء المتصوفة سببًا في المحن التي عرضت لهذه الطائفة على مر العصور، وكان الإمام –لذلك- شديد النقمة على الدراسات الفقهية التي جففت العبادة، وجعلتها تذبل أمام المماحكات اللفظية، "إن المسلمين ضيعوا دينهم، واشتغلوا بالألفاظ وخدمتها، وتركوا كل ما فيه من المحاسن والفضائل، ولم يبق عندهم شيء. هذه الصلاة التي يصلونها لا ينظر الله إليها، ولا يقبل منها ركعة واحدة: حركات كحركات القرود، وألفاظ لا يعقلون لها معنى، لا يخطر ببال أحد منهم أنه يخاطب الله – تعالى- ويناجيه بكلامه، ويسبح بحمده، ويعترف بربوبيته، ويطلب منه الهداية دون غيره.

ومن العجيب أن فقهاء المذاهب الأربعة –وربما غيرهم أيضًا- قالوا: إن الصلاة بلا حضور ولا خشوع، يحصل بها أداء الفرض ويسقط الطلب، ما هذا الكلام؟ إنه لباطل، كل آية تذكر الصلاة تبطله"[1].

إن ما يعاني منه الإمام محمد عبده في ذلك الوقت كان يعاني منه حجة الإسلام الإمام أبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ) الذي رأى علوم الدين قد تحجرت وماتت وسط هذا الركام الهائل من الافتراضات غير العقلية في مباحث الفقهاء، وهو الذي دفعه إلى تأليف كتابه العظيم "إحياء علوم الدين" قاصدًا من ورائه إلى البحث في أسرار العبادات، وربط الظاهر بالباطن، والشرع بالحقيقة، ليعرف القارئ ما في الدين من الروحانية، والعاطفة، وقد وجد أبو حامد أن علم التصوف هو "المنقذ من الضلال" بعد طول تطواف ومعرفة بسائر العلوم.

ولم تكن الخصومة بين الفقهاء والصوفية هينة بل كانت ذات تأثير قوي راح بسببها كبار رجالات الصوفية ممن تعرضوا لسهام الفقهاء، ويدلُّنا الإمام محمد عبده على السبب في منزع الصوفية نحو الرمز، ولجوئهم إلى الاختفاء، وأن هذا كله بسبب تحامل الفقهاء أيضًا فيقول: "إنه لم يوجد في أمة من الأمم من يُضاهي الصوفية في علم الأخلاق وتربية النفوس، وإنه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين، وإن سبب ما ألمَّ بهم تحامل الفقهاء عليهم، وأخذ أولي الأمر بقول الفقهاء فيهم فأولئك يُكفِّرون، وهؤلاء يُعذَبون ويقتلون.. وإن هذا هو سبب ظهورهم بغير مظهر طائفتهم، وإن ظهروا، ولجوئهم إلى الاختفاء، وكلامهم في الطريقة وما يحصل لهم من الذوق والوجدان بالرمز والإشارة"(الأعمال الكاملة للشيخ محمد عبده ، ٣/٥٥٥)

(١) المصدر السابق، ج٣، ص٢١٠.

إن الإمام يبلغ بالتصوف قمة العلوم فهو عنده في درجة الدين، ويربط بين فقدان الصوفية وفقدان الدين؛ ذلك لأن التصوف يمثل علم الأخلاق في إطار من الهدي الإسلامي، وعلى لاحب الكتاب والسنة الصحيحة، وتربية النفوس وتطهيرها من الدرن هو أولى الخطوات في سلوك الطريق نحو رب العالمين.

"إن العوامل الروحية الحقيقية التي كان لها أثر فعال في تنمية العاطفة الدينية والحياة الروحية عند المسلمين قد أخذت أصولها وبذورها منذ ظهور الإسلام إلى يومنا هذا من الإسلام نفسه: أي من الكتاب والسنة، ولكن هذه الأصول وتلك البذور نبتت وترعرعت في ظل ذلك النظام الشامخ الذي أقامه صوفية المسلمين وجاهدوا من أجله"[1].

إن الاطلاع على الجانب الصوفي لدى الإمام محمد عبده يكشف لنا عن نجاح الرجل في ميادين التجديد التي ظل يكافح في سبيلها، فهذا الوعي العالي بقيمة العلم النافع، واستثمار هذا العلم في سبيل الحياة جعله يميز بين الطيب والخبيث، فيكشف زيف الضار، ويدعو إلى النافع ويربي طلابه عليه، ويقيم مدرسة علمية أخلاقية تؤمن بمبادئه، وتجاهد في سبيلها، وليس العلم عنده –وعند الصوفية أيضًا– ترفًا أو حبًا للظهور والمنافسة، أو وسيلة لدى سلطان، كلا فإن "الصوفية رأوا طلب العلم أفضل الأعمال لتوقفها عليه، فإن الجاهل قد يعتقد ما ليس بقربة قربة كبدع المبتدعة بأفعالهم"[2].

ولا غرو أن نجد في تاريخ الأمة هذه الأنجم الهادية للسالكين كانوا على المنهج الصوفي فإن "المشايخ من الصوفية وعلماء الآخرة الزاهدين في الدنيا شمَّروا عن ساق الجد في طلب العلم المفترض حتى عرفوه، وأقاموا الأمر والنهي، وخرجوا من عهدة ذلك بحسن توفيق الله تعالى، فلما استقاموا في ذلك متابعين لرسول الله – ﷺ– حيث أمره الله –تعالى– بالاستقامة، فقال تعالى: ﴿**فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾ [هود: ١١٢] فتح الله عليهم أبواب العلوم[3].

إن هذا الطريق الذي سار فيه الإمام محمد عبده فارتقى إلى معالي الأمور وكان من قادة الفكر والإصلاح يحتاج إلى دراسة خاصة تُلقي الضوء على جوانب العظمة في اجتهاده، وتأليفه، وتوجيهه وتعليمه بتأثير صوفي ينزع بصاحبه نحو الأحسن والأكمل والأفضل. ورحم الله العالم الجليل وألحقنا به كرامة نفس وقرة عين، وجعلنا من السائرين على دربه. ●●●●

(١) د/ أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام، ص١٠٧ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٢) قطب الدين الدمشقي: الرسالة المكية، ص٤٤، تحقيق: غلام مصطفى الأزهري، وضياء الرحمن العليمي، تقديم: د/ إبراهيم الهدهد، ط كشيدة، ١٤٣٩هـ- ٢٠١٨م.
(٣) السهروردي: عوارف المعارف، ج٥، ص٦٨ بذيل كتاب إحياء علوم الدين للغزالي، ط الدار المصرية اللبنانية.

مقاصد التصوف

إعداد: أ.د حمد الله حافظ الصَّفْتي

لا يماري عاقل الآن في أن التصوف هو أحد العلوم الإسلامية المستقرة المحررة، وأن العمل بمقتضى هذا العلم من خير ما يتقرب به العبد إلى ربه تعالى في الدنيا وفي الآخرة، إذ هو ركن من أركان الدين، وجزء متمم مقامات اليقين، تتلخص مقاصده في تسليم الأمور كلها لله، والالتجاء في جميع الشئون إليه، مع الرضا بالمقدور، من غير إهمال في واجب أو الاجتراء على محرَّم.

فالتصوف هو المنهج الذي يعنى بتهذيب النفوس وترويضها على كريم الأخلاق ومحاسن الفعال، وهو في ذلك لا يسلك إلا ما اعتمدته الشريعة الغراء، ولا يحيد عن المنهج النبوي الأصيل؛ لأنه مبني على الكتاب والسُّنة الشريفة، لا يخرج عنهما قيد أنملة؛ قال الإمام أبو القاسم الجُنيد: «علمنا هذا مشيَّد بالكتاب والسُّنَّة»، وقال أيضًا: «الطريق إلى الله تعالى مسدود إلا على المقتفين آثار رسول الله ﷺ». وقال الإمام التّسْتَري: «أصول الصوفية سبعةأشياء: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب المعاصي، والتوبة، وأداء الحقوق»، وقال الإمام التاج السُبكي في جمع الجوامع ـ وهو من الكتب المقررة في الأزهر الشريف ـ «ونرى أن طريق الشيخ الجُنيد وصَحبِه طريقٌ مقوم». قال شارحه الإمام الجلال المحلي: «فإنه خال من البدع، دائر على التسليم والتفويض والتبرِّي من النفس».

فالحاصل أن التصوف ينهض بالقيام على ميراث النبوة في تطهير القلوب من دنس المعاصي، ورجس الأوزار، والعمل على تزكية النفوس بجميل الصفات، وكريم الأعمال ، إذ كانت تزكية المؤمنين من جملة مهامِّ النبي ﷺ.

قال تعالى:﴿ **هُوَ الَّذِىْ بَعَثَ فِى الْاُمِّيّٖنَ رَسُوْلًا مِّنْهُمْ يَتْلُوْا عَلَيْهِمْ اٰيٰتِهٖ وَ يُزَكِّيْهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتٰبَ وَ الْحِكْمَةَ وَ اِنْ كَانُوْا مِنْ قَبْلُ لَفِىْ ضَلٰلٍ مُّبِيْنٍ** ﴾[الجمعة:٢].

ومن هنا قرر الصوفية أنفسهم أنه لا تخالف بين الشريعة والحقيقة بحال، إذ كلاهما أسسه الوحيُ السماويُ في جملة ما أَسَّسَ من أصول الدين المُحمديّ الشريف، فالحقيقة هي بلا شك مقام الإحسان الذي

هو أحد أركان الدين المذكورة في حديث جبريل المشهور، والتي جعلها النبي- ﷺ - بعد ما بيّنها واحداً واحداً ديناً، فقال: « **جَاءَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ** ».[1]

فغاية ما تدعو إليه طريق الصوفية ـ بعد تصحيح الإسلام والإيمان ـ هو مقام الإحسان، ليحصِّل الداخل فيها والمدعو إليهامقامات الدين الثلاثة الضامنة للقائم بها السعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، فمن أخلَّ بمقام الإحسان الذي هو طريق الصوفية؛ فدينه ناقص بلاشك، لتركه ركنًا من أركانه، ولهذا نَصَّ المحققون من العلماء والفقهاء على وجوب سلوك طريق التصوف وجوباً عينياً، واستدلوا على ذلك بما هو ظاهر عقلاً ونقلاً.

وقد أوضح القرآن العظيم من أحوال التصوف ما فيه الكفاية، فتكلَّم على المراقبة والمحاسبة والتوبة والإنابة والذِّكر والفكر والمحبة والتوكل والرضا والتسليم والزهد والصبر والإيثار والصدق والمجاهدة ومخالفة الهوى والنفس، وتكلَّم على النفس اللوامة والأمارة، والمطمئنة والراضية والمرضية، وعلى الأولياء والصالحين والصديقين والمؤيَّدين، وغير هذا مما يتكلَّم فيه أهل التصوف رضي الله عنهم.

ولئن كنا نعيب على من يُنكر التصوف ويزعُم أنه دخيلٌ على الإسلام، وأنه جاء به مُسلِمَة الكتابيين والبوذيين ومن على شاكلتهم، وأن الصوفية أصحاب بِدعٍ وخرافات، إلى غير ذلك من الدعاوي التي يأباها العقل، ويُكذّبها النقل، لكنا نقول إن التصوف كأي علَم من العلوم، ومنهج من المناهج يداخله أشياء ليست من حقيقته في شيء، وينتسب إليه أحيانًا من ليس من أهله، ومن هنا نقرر أن الشريعة المحمدية هي المعيار الفاصل بين المدعين والصادقين، وكما كنا نسمع من شيوخنا رضي الله عنهم: «ليعلم الجميع أن الشريعة فوق الشيخ وفوق المريدين وفوق الناس أجمعين».

وعلى الصوفية الصادقين ألا يسمحوا للدخلاء بإفساد طريقهم، وتشويه صورته الصحيحة بإدخال ما ليس منه، ولا يكون منهم ذلك إلا بالتفقه في الدين، وبذل رَدَحٍ من نفيس العمر في تعلم العلم الشرعي، لأنه الباب لعبادة الله تعالى، فينبغي لهم أن يكونوا أجدر الناس بالقصد والإنصاف في كافة الأمور، فلا يميلوا في شيء إلى الإفراط أو التفريط؛ ليتحققوا بالعدالة فيصبحوا من شهداء الله على الناس بالحق، وقد صدق مالك بن أنس رضي الله عنه حين قال: «من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسَّق».

[1] رواه البخاري:جـ ١،صـ ٥٤.

أنا صوفي

دراسة نموذجية عن العارف بالله أبي سعيد المحمدي

إعداد: خامس سليمان الأزهري

الحمد لله الذي راش أجنحة الأفهام بالإمداد والإلهام، فمضت إلى أغراضها مضي السهام، وأنشأت في آفاق العقول سحب الخواطر، مابين المخلف والماطر، والصلوة والسلام على سيد الهادي وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم التناد.

أما بعد:

فإني قد وجدت نفسي في الحيرة، إذ أخذني قلمي إلى الطروس يفرض على أن أصنع السواد على السطور، مبينا لكواليس المرام، فأحببته متيقنًا بأني لست باري القوس فيما أسطر في الطروس، والحمد لله جاعل المرء بأصفريه، والمتكلم بأجمليه.

"أنا" وما "أنا"؟؟ يبدو أنه بنية ودعمة، وأما "صوفي" فالإشارة التي تدل عليه خافية؛ لذا يشكل على كثير من الناس إلحاظه.

ولذا رميت سهمي في واد من القلق، عسى الله عزوجل أن يردني وبكم كما رد موسى "عليه السلام" إلى أمه.

وقعت عيني على كلمة "أنا" ولا أدري إلا من على فضله تقف الآمال، وبإرشاده تستقيم الأقوال و الأعمال، مولاي الشيخ أبو سعيد المحمدي الصفوي دام الله في السرور حاله وأحضر الله له إسعادًا.

فإذا وضعت المحمول على الموضوع، ترى أن بنات بيت الموضوع -التصوف- هو هذا المحمول "أنا" وشيخنا أبوسعيد -رضي الله عنه- هو بيتها الذي لايزول، ومفرس عز التصوف الذي لايحول وقادة زحفها.

ومعروف أن الصوفي ابن وقته، والحكم والجريان للوقت، والصوفي لايحكم عليه الوقت في الماضي ولا في المستقبل؛ إنما هو الذي يحكم على الوقت ويجري عمله وآماله فيه، لذا سلم الصوفي من المقت؛ لأن غايته هو "الله".

فترك المعدوم واشتغل بالموجود بالله إعانة وتأبيدًا، من الله ابتداء وإلى الله غاية وانتهاء، مع الله صحبة

ومراقبة، في الله رغبة ولله قربة وحبًا، على الله توكلًا واعتمادًا، عن الله أي عن أمر الله، وهو بالله قائم وفي الله ناظر وإلى الله راحل وعن الله ناطق.

تحلى بكل هذا مولانا الشيخ أبوسعيد المحمدي -رضي الله عنه- حيث جعل للتصوف قيمة ومسمّى، كان التصوف عند كثير من الناس اسمًا لا مسمّى له.

فاستطاع الشيخ أن يجعل له في قالبه مسمّى بدون أن يهمه شكل ولا مظهر؛ لإغراق الشيخ في قعر مضمون التصوف؛ فأرشد و وعظ وعمل، فتراه في مجلسه الإيماني بوقاره وسمته يرشد الجميع.

والجميع في هذا شمولي في سياق، ومرمى مجلس الشيخ حيث يندمج المجلس صوفيًا وغير صوفي مسلمًا وغير مسلم، جعلهم أن لايدخل في قلوبهم غير الله أو تتعلق بكون من الأكوان سوى الله، فمالهم معروف سواه، ولامشهود إلا إياه.

كيف لا؟! والشيخ عينه عين وقلبه عين، يرى بها منك ماتجهله أنت من نفسك، كالخفي من سوء المزاح يعرفه الطبيب منك إذا نظر إليك ولاتعرفه أنت.

والسالك مردود والطريق مسدود، فلا ملجأ إلّا إلى هذا الطبيب والشيخ -رضي الله عنه- حجة لمن رآه وسمع منه ولمن بلغ إليه أحواله، فهذا ماقضى به ربك حيث أحصى الخلائق عددًا، ثم ابتلاهم اليوم وجعل من بينهم الشيخ -رضي الله عنه- ليجزيهم غدًا، وجعل جيادهم تتسابق في ميادين الآجال إلى مدّا.

وباين بينهم في الصور والأخلاق، والأعمال والأرزاق؛ فلايجدون عما قسم محيصا ولا فيما حكم ملتحدًا.

ووسعهم عمله علي تباين أفرادهم وتكافت أعدادهم والدًا و ولدًا، ونسبًا وبلدًا، ووفاة ومولدًا؛ فمنهم البينة تنفعه إرشاد الشيخ -رضي الله عنه- والخامل والحالي والعاطل والعالم والجاهل، ولايظلم ربك أحدًا؛ فأراد الله لعباده أن يجعل فيهم هذا الجبل مولانا أباسعيد -رضي الله- ليوضح للناس سبيل الحق وقد كان طرائق قددا؛ فأنجزالله به من نصردينه موعدًا حتي بلغت دعوته مازوي له من هذا الأقصي، فمهد الدين فى مدينة "بنجاب" وخرّط سبعا وسبعين ولاية في الهند ينشر الدين ومددًا، مع العلم بأن الهند أكبر دولة بعد الصين شعبًا تربو عدد سكانها مليار ومأتان مليون، فلم يترك ولاية إلا وطيئها قدم الشيخ -رضي الله- فرفع بكل هضبة مقلمًا، وبني لبعض قلعة جامعة مسجدًا ومدرسة.

ومن نفسائه لتحقيق الحقيقة قوله: «كل حركة يحرّكها الإنسان في حياته إن كانت هي ابتغاء لوجه الله سبحانه وتعالي ولرفع رأية الإسلام فهي جزء من الدين».

وعبارة الشيخ -رضي الله عنه- هذه تجعل المرء أن يحس بالمسؤلية الكبرى و**تحكيه** شعوره أنت داعية

للإسلام في كل حركة لأن في الناس مهندس والآخر محدث، وكل في فنه ومجاله مرآة ينعكس لمن حوله.

ثم نرى الشيخ -رضي الله عنه- في زاوية أخرى يواكب العصر ويحترم الماضي والحاضر، ومن قوله هذا إشارة تكفي اللبيب "وهذا العهد الذي نعيش فيه الآن هو عهد انفجر فيه العلم؛ فهذا العهد هو عهد سمو الفكر وعهد علوي الرأي".

وتردف هذا إرشاد للطلاب حيث قال: «وعلى الطلاب أن يواظبوا علي أصول التحقيق والتخريج في حصول العلم، وعليهم أن لايقتنعوا في حصول العلم على الكتب التي تدرس في الفصول فقط، بل عليهم أن يوسعوا في مطالعتهم وأن يقوموا بمطالعة كتب الأئمة بالدقة والتّأنّي»، هذا هو منهج الشيخ -رضي الله عنه- ينشده نحو جيل جديد، فحق أن يوصف الشيخ -رضي الله عنه- بالأزهري الكامل.

وكم تراه يقدس النقل ويحترم العقل ويوسع للناس معالم دينهم، هاك قوله: "وعليهم أن يخوضوا في اختلاف الأئمة وأن يتدبروا في دلائلهم، ويحاولوا أن يفصحوها علي النقل والعقل حسب وسعهم؛ ليقوموا بخدمة علوم الإسلام وفنونه في هذا العصر الجديد على وجه الكمال.

أفلا تتدبرون كلام الشيخ -رضي الله عنه- هذا ؟ فوالله لوجاز للمسلمين أن يصلوا بغير القرآن لصلينا بقول الشيخ -رضي الله عنه- هذا.

وما من كلام من كلامه إلا تجده مؤثرا في القلوب؛ لأن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب، وإذا خرج من اللسان لم يتعد الآذان، ومن منطقة من رحاب كلامه عن الدعوة تراه بعيدًا عن التعصب والتمذهب والعنصرية، يتمثل قول الله تعالى: "﴿وَ مَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَ عَمِلَ صَٰلِحٗا وَ قَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾".[حم السجدة: ٣٣]

خلاصة قوله: "إن الدعوة المحمدية ليست محكورا على أشخاص معيَّنين، إنما هي تتوجه إلى كل من هو يعيش تحت أديم السماء وفوق الأرض بدون تفريق بين أبيض وأسود.

والشيخ -رضي الله عنه- يقودنا إلى الله سبحانه وتعالى، إله واحد ورب واحد؛ فحق لنا أن نأخذ العهد والميثاق من هذا الشيخ الرباني الصوفي الصافي.

ثم نشهد الله فنقول: "﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّا﴾"[ال عمران: ١٩٣] ومن أخذ العهد والميثاق فحق لنا أن نوسمه "أنت صوفي" ويقول رافعًا عنقه أعلى السماء مادًا لصوته نحو العباد "أنا صوفي" .

شيخ الجامعة العارفية

ومعلموها وطلابها

إعداد : الشيخ القارئ عبدالله البنا [1]

لقد شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن أكون مبعوثًا للأزهر الشريف لدولة الهند في الجامعة العارفية بسيد سراوان الله آباد. وذلك بعد ذهابي لدولة ماليزيا لعامين، ونظرًا لظروف ما لم أكمل بعثتي هناك، وكم كنت حزينًا لذلك، ولكن الإنسان لايعلم الغيب، ولا يدري موطن الخير، كما قال جل شأنه: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوْا شَيْئًا وَّهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَنْ تُحِبُّوْا شَيْئًا وَّهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَ أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُوْنَ﴾ [البقرة:٢١٦].

لم أكن أعلم أن الله عز وجل قد ادخر لي الخير بذهابي لدولة الهند في الجامعة العارفية؛ فكان منعه عين عطائه لي حيث شرفت بذهابي وعملي في هذه الجامعة العريقة. وقد استقبلتني الجامعة استقبالًا عظيمًا لائقًا بمبعوثي الأزهرالشريف مع حفاوة وإكرام وحسن ضيافة، وكان فضيلة الشيخ أبو سعيد إحسان الله المحمدي الصفوي على رأس المستقبلين لنا، وبعد حسن الضيافة وكرم القرى تسلمت عملي في الجامعة العارفية معلمًا للقرآن الكريم وعلومه، وقد أذهلني ما رأيت في هذه الجامعة فقد رأيت فيها عجبًا.

رأيت شيخًا وقورًا عليه سيم الصالحين، و وشاح المقربين ورداء الطيبين، قد أتاه الله علمًا وحلمًا، قد ربى معلميه فأحسن تربيتهم، وأدبهم فأحسن أدبهم، غرس فيهم فضائل الأخلاق، وأشربهم مكارم الحسن

[1] مدرس القرآن وعلومه بالجامعة العارفية ومبعوث الأزهر الشريف.

ومعرفة الأذواق، ولم لا؟ وهو قدوتهم في العبادات وأسوتهم في الأخلاق والطاعات، قد أسلم على يديه المئات، وقد ذاع صيته وانتشر أريجه، وهو مع ذلك فيهم كأحدهم تواضعًا، قد اقترب منهم مع علو قدره عندهم، لايبدءونه بالكلام إجلالًا، ولا يبتدرونه تعظيمًا وإفضالًا، وهو رجل دءوب لا يدخر في الخير وسعًا، ولا يألو جهدًا في تحسين الجامعة؛ فهو يسير بها إلى طريق ينتهي بعز للإسلام والمسلمين. أسأل الله تعالى أن يطيل عمره حتى يكتمل بنيانها وترسو دعائمها.

أما المعلمون فيا جمال ما رأيت! رأيت علماء حسنت أخلاقهم وعلت نفسوهم، يخفضون أجنحتهم لطلابهم، زانوا علمهم بالحلم، وكسوا كلامهم بالأدب الجم، يربون قبل أن يعلموا، ويغرسون الأخلاق قبل أن يدرسوا، يجلسون بجانب طلابهم جنبًا إلى جنب بتواضع جم، ونفوسهم راضية، ومع ذلك علت أقدارهم عند طلابهم؛ فقد شربوا منهم الفضائل والأخلاق قبل المعارف.

أما الطلاب فما أجمل ما رأيت! كلما نظرت إليهم رجع عقلي وذهب بصري وانتهى سمعي إلى عصر التابعين.

رأيت زهدهم في الدنيا وإقبالهم على العلم يفترشون الأرض ونفوسهم في السماء عند العلم فرسانًا، وعند الآذان والطاعة رهبانًا، في كل صلاة يصفون في سكينة ووقار لا تسمع صوتًا ولا تجد همسًا؛ إنها صورة تذكرني بما قد سلف من عصر التابعين والسلف، ومع قلة الإمكانيات ووسائل التعليم عندهم فهم مع ذلك يمخرون بحار العلم ويلاطمون أمواج المعرفة بأشرعتهم لترسو سفنهم على شاطئ العلم ليصلوا إلى أرض الإسلام، قد شربوا من شيخهم ومعلميهم الآداب والسلوك والمعارف التي توصل إلى أفضل الطريق.

لقد تمرست نفوسهم على تحمل المشاق، وتربوا تربية تجعلهم بحق دعاة المستقبل في هذا البلد الكبير، إن هذه الجامعة تربط العلم بالعمل والمعرفة بالسلوك، فهما لا ينفصلان: فعلم بلاخلق كزرع بلا ثمر وخلق بلا علم ضلال.

إن هذه التنشئة العلمية الروحية الصوفية هي ما يميز هذه الجامعة. والعالم الإسلامي اليوم يمر بظروف صعبة تحتاج إلى علم زانه حلم، وإلى معرفة وافقها السلوك، يحتاج إلى تطبيق القرآن الكريم علمًا وعملًا وأدبًا وسلوكًا حتى يعود الإسلام إلى سابق عهده.

أسأل الله أن يجعل هذه الجامعة منارة للعلم وعلمًا على الحلم ومصدرًا وأما يولد منها كل خير وفضيلة.

رقابة الله تعالى هي الضمان ضد الخواء الروحي

إعداد: محمد رومى محمد الرومى الكويتى

رقابة الله تعالى هي الضمان ضد الخواء الروحي والطغيان والفساد، ولاسيما وقد تفشت الجرائم الدامية في أنحاء بعض المجتمعات العربية المسلمة في أيامنا هذه للأسف الشديد، فقد تفشت الجرائم في أنحاء عالمنا المترامي، وقد هاله هوان النفوس وسفك الدماء وهتك الأعراض وسرقة الأموال وتدمير الممتلكات، ولعل من أكثر الأسباب وراء هذا الأمر الخواء الروحي الذي أصاب النفوس، فأصبحت خالية من المثل والمفاهيم الإسلامية الجميلة التي علمنا إياها الحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ والتي تربي الإنسان على تزكية النفس وتذهب الهم والغم، والمسلمون لن يجدوا أنفسهم إلا إذا عادوا إلى ربهم وساروا وفق منهجه الرباني، وعند ذلك تمتلئ القلوب والنفوس بالرضا، إذا عرف العبد ربه أصبح ذا هدف متميز يسمو به في الحياة على المادة، وبعد ذلك بلا شك سيسخر حياته من أجل ذلك الهدف، والناظر المتمعن في تاريخ الأمة الإسلامية يتعجب كثيرًا حينما يقرأ حول انخفاض مستوى الجريمة في الحقب التي طبق فيها الإسلام الصحيح وسادت روحه وتشريعاته، وكيف كانت الحياة آمنة آنذاك، تسودها المحبة والوئام والسلام والإخاء، والدين الإسلامي الحنيف يغرس في نفوس المسلمين أن رقابة الله تعالى شاملة للكون كله، وهي رقابة دائمة ومستمرة، و أن رقابة المولى جل جلاله مبنية على علمه الواسع المحيط، بحيث لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، ونحن البشر بلا شك من جملة هذه العوالم التي أحاط الله بها علمًا في كل أمر مِن أمورنا وكل شأن من شئوننا، وعلم الله محيط بفعل الإنسان المظهر والخافي الذي يجول في الصدور ويتردد في أعماق القلوب، إن الاعتقاد بأن الله تعالى يراقبك ويراك هو الذي يتسامى بالمسلم والمسلمة، نحو الكمال في كل أمر من أموره، وكل عمل من أعماله، وتلك هي المرتبة العليا في ديننا وهي الإحسان، وسبيلها كما أخبر الحبيب المصطفى سيدنا محمد ﷺ «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فمن يريد أن يعيش سعيدًا في هذه الأرض الطيبة، نظيف القلب، سوي الخلق، قويم العمل، قاصدًا للخير، متجافيًا عن الشر، عليه بالدِّين الإسلامي الحنيف الذي يغرس في العباد مرتبة الإحسان ورقابة الله تعالى، فتلقي ظلالًا هانئة على نفس صاحبها، وتبدو آثارها من حوله وفِي كل شئونه وأموره.

دور علماء الأزهر الشريف

في نشر التصوف

إعداد: علي أحمد عثماني[1]

الحمد لله رب العالمين،والصلاة والسلام على سيد المرسلين،سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وبارك وسلم.

مما لا يدع للشك مجالا أن للأزهر الشريف مكانة مرموقة، ودرجة عالية، ومنزلة رفيعة، ومرتبة كبيرة؛ لأنه كعبة العلم والعلماء، معسكر الدعاة والأصفياء، مجمع المشايخ الصوفية، مهوى أفئدة الطلاب، مركز من إلى ربه أناب، حصن الإسلام والمسلمين، معقل الإنسانية أجمعين.

كل من يتتبع الأزهر الشريف،ومايقوم به من الأدوار المهمة والأفعال العظيمة والمآثر الحميدة والمساعي المشكورة والجهود الجبارة في المجالات المختلفة والميادين المتنوعة،لبناء الأمة الإسلامية ورقيها علميا وعمليا وروحيا وأخلاقيا وثقافيا واجتماعيا، بإقامة المجالس العلمية المحتوية على مختلف الموضوعات في شتي الأمكنة، وتشييد الجامعات، وتعمير الكليات، وطبع المجلات العلمية والصحف الدينية،ونشرها فى أرخص سعرحيث تكون فى متناول اليد بكل سهولة، و إرسال قوافل السلام إلى بقاع العالم لنشرالأمن والسلام، وتزويد الدعاة والأئمة بكل الحاجات الضرورية ليعرِّفوا الدنيا كلها بالإسلام ووسطيته و شريعته الغراء ورسالته الخالدة إلى الدنياء- ويقر بفضل الأزهر الشريف دون شك وتردد، إلا من عميت عيناه عن نوره الساطع وضوئه اللامع، فلا نقول فيهم إلا ما قال ربنا جل وعلا: ﴿**فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصٰرُ وَلٰكِنْ تَعْمَى الْقُلُوْبُ الَّتِيْ فِي الصُّدُوْرِ**﴾[الحج:٤٦]

---

[1] الدارس: بجامعة الأزهر الشريف.

هنا بغض النظر عن كل ما يقوم الأزهر الشريف من أدوار مهمة في الآونة الأخيرة سنكتفي بذكر بعض الكلام في نشر التصوف وتدريسه كعلم مستقل، ومادة مهمة، علماءوتيقنا بأنه (التصوف) الواحد الوحيد الذي يتمكن من إخراج الأمة من حيث الفرد والعائلة والمجتمع، من الأزمة اللادينية والأخلاقية والسلوكية إلى التحلي بالدين والخلق العظيم والسلوك الحسن.

وليس من المستطاع لي الجرأة بهذا الكلام إلا بعد المعرفة الكاملة والإدراك التام عن حقيقة أسباب الأزمة التي نعانيها وحرقتها وشدة حرارتها في حياتنا كفرد وعائلة ومجتمع، و بعد الحصول على أدوات معالجتها ووسائل مداواتها في مادة التصوف.

الأزمة الدينية والأخلاقية: إما رفض الدين من الحياة على الإطلاق، وإما القيام بامتثال أوامر الدين الظاهرة فقط دون انطباع الآثار الجميلة في القلب والنفس، أو دون الإرادة للوصول إلى جوهر الدين ولبه الذي هو مطلوب ومرغوب مع الظاهر، بالتالي لا يقدر الإنسان على تغييره وتحويله داخليا؛كي يتخلق بالأخلاق النبوية الفاضلة، ويتحلي بالخلق العظيم الشريف، ويكون سفيرا لدينه الذي يتدين به، في نهاية المطاف يعيب ويطعن، ويسب ويشتم، ويفتري ويكذب، يتكبر ويحسد، يشتهي ويطمع، يبغض ويمقت، يسيء ويلحق الضرر، ويسلب حقوق الآخرين، ويتعدى عليهم، فيعيش وضعا عسيرا، ويكون سبب ضرر وأذى لنفسه أولا وللمجتمع الذي يعيش فيه ثانيا.

وفيالحقيقة كل هذه الصفات الذميمة والأوصاف القبيحة تعد من أمراض القلب، ومساوئ النفس، ورذائل الباطن، فلا بد من تداركها وإصلاحها، ألا وهي بتزكية النفس، وتطهير القلب، وتنقية الباطن، وإزالة ما بالداخل من العفونة والنتونة والفساد، وتخلِّي الإنسان بكل الأوصاف الحسنة من الصدق والنصح والإخلاص والأمانة والاستقامة والتوكل وكل ما هو خير للعباد، "فالتصوف" هو المادة الوحيدة المستقلة التي تهتم بدروس التخلي عن الرذائل و التحلي بالفضائل.

لكل ما سبق قام الأزهر الشريف بإلحاق مادة "التصوف" في المقررات الدراسية في مختلف المستويات، وإقامة المجالس المهتمة بهذه المادة في شتي المساجد والمعاهد، ومراكز المحاضرات؛لأنها تعتني بسلوكيات الإنسان حق الاعتناء بشكل مباشر،ويوفرالأزهر لكل من يلتحقون به من الطلاب والطالبات فرصا للحضور في المحاضرات التي يتم إلقاؤهاحول التصوف.

فنرى في الجداول والإعلانات التي تلصق بجدار الجامع الأزهر اسم هذه المادة، حيث يقوم بتدريسها كبار العلماء الأزاهرة.

على سبيل المثال، فى كل يوم جمعة يدرس سماحة الشيخ العلامة الدكتور عبدالصمدمحمدحسن مهنا الأزهري المستشار للإمام الأكبر شيخ الأزهر "إحياء علوم الدين" للغزالي، بعد صلاة الجمعة، ويلقي محاضرة عن التصوف "الداعية الإسلامي الشهير العالم الرباني حبيبنا الحبيب علي الجفري" -حفظه الله تعالى- بعد صلاة الفجر عند ما يكونه حاضرا في "مصر" كل يوم في الدراسة في المبني الذى أمام المسجد "الإمام حسين بن علي" رضي الله تعالى عنهما.

وهناك عديد من المضايف الزوايا للشيوخ الكبار تقام فيها المجالس للتصوف تحت رعاية علماء الأزهر، وخاصة في المسجد الكبير المسمى بمسجد "الإمام الحسين" تقام حلقات الذكر و الصلاة على النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بعد صلاة الجمعة والعصر في حضور المشايخ المصريين.

فالحمد لله الذي أنعم على هذه الأمة بالأزهر الشريف جامعا وجامعة، ونفتخر بكوننا دارسين فيه، وملتحقين به.

مجلة الإحسان الله آباد

تصدر بالعربية والأردية لتشييد العلاقات بين العلماء الهنود والشيوخ العرب